

چان چاك روسو

حياته وكتبه

د محمد حسن هوتک

مقدمة

نحن في الحياة أشبه بالزورق الصغير السابح فوق أمواج المحيط الضخمة إذا لم تكن له شواخص وأعلام تهديه طريقه كان قميناً أن يضل السبيل وأن يبتلعه الخضم الهائل المحيط به . فهذه اللانهايات غير المنتهية من الزمان الماضي الذي يثقل كواهلنا . ومثلها من لا نهايات المستقبل الجون لا ندرى سواده من بياضه . ولا نهايات المكان والفضاء المترامية حولنا من فوقنا وأسفل منا ، وما هو محتجب وراء أفق ما أقرب ، أو مخفى طى اليبس والماء مما يسهل أن يغيب عنا علمه . ذلك المحيط المخوف الذي يشتملنا ونحن فيه ذرة تافهة لا يعنى بها أبنا تحل ولا كيف تتطور ، والذي يشتمل مع ذلك كل ما في الحياة من معنى ونعيم لا سبيل لنا إلى سلوك لجهته ما لم نجد هادياً يسير بنا بين متلاطم أمواجه متقبلاً مخاطرها ملتصقاً سكينتها حتى يصل بنا إلى شاطئ سكينته الخلد .

هذا الهادى هو فطرة الاحتفاظ بالحياة فطرة مركبة في النفس الإنسانية كما هي مركبة في النفس الحيوانية بل في ذرات النبات والجماجم . ألا ترى إلى أعواد القصب الرفيعة كيف تنحني لقاء العاصفة فلا تنجى عليها إلا أن يصبح الانحناء بالغاً غايته ولا سبيل للمزيد منه . ثم ألا ترى إلى كل أنواع الحيوان كيف تسعى لتعيش في أكثر الأوساط ملاءمة لها . لكن هذه الفطرة التي يبدأ مظهرها الإرادى عند الحيوان على شكل بسيط تنتقل إلى حال من التركيب عند الإنسان يجعل ملاحظتها أكثر صعوبة وأشد للدقة احتياجاً . ولعل ذلك راجع إلى أنا معشر بنى الإنسان نحن الذين نريد ملاحظة فطرتنا وملاحظة الموجود ذاته صعبة إن لم تكن غير ممكنة . أو لعل راجع إلى أن فطرتنا مركبة حقيقة على اعتبار أنها مزيج مركب من فطرة جميع الخلائق التي يقال إنها دوننا في مراتب الحياة .

ولو صحت هذه الفكرة الأخيرة . لو صح أن الفطرة الإنسانية هي مزيج

جامع تطورات الخلائق الأخرى التي هي دون الإنسان في مراتب الحياة ، ونيل أبنائها صحيحة . إذن لوجب أن تعرف الجماعة الإنسانية في كل عصر بنوع من أنواع حياة هذه الخلائق هي أقرب حتى تجعل الغلبة في اتجاهها لتطوّر إلى ما قابل فطرة هذا النوع الأدنى فتكون أدنى إلى الصواب وأبعد عن مواضع الزلل . وقد يكون التاريخ نفسه مؤيداً إلى أن بنى آدم اتبعوا سبلقتهم ومن تلقاء أنفسهم هذه السبل . فكان البدو أكثر أخذاً بفطرة كواسر الوحش ، كما أن العلماء اليوم يعنون بالتنقيب في عالم الحيوانات الاجتماعية التكسية كالتسل والنحل لجعل الإنسان من فطرته البسيطة هادياً له في توجيه فطرته المركبة . وذلك لأنه كلما كان الشيء أكثر بساطة كان أكثر في معركة الحياة سلاماً . فلا سبيل للإنسان ، وهو أشد المخلوقات تركباً وتعقيداً ، إلا أن يسير على حدى السلائق الحيوانية البسيطة .

وليس البحث وراء معرفة الفطرة البسيطة التي تتقابل حياتها مع نوع خاص من حياة الإنسان بالأمر السهل . لأن عقولنا وهي المكلفة بتحمل هذا العناء محملة بميراث ماضٍ طويل مركب مضطرب ، فهي ليست حرة الحرية الكافية لإمكان إلهامها إلهاماً صحيحاً . وكثيراً ما يقع لها فضلاً عن هذا القيد الثقلة به ، أن تراجم نوعاً مركباً من الحياة الإنسانية تفضل في تكييف مكوناته الأساسية أشد الضلال . ثم إذا صادف أن فتح أمامها شعاع من نور الأمل في الهداية فكثيراً ما تطفئ العقائد والمبادئ الحاكمة وما إليها من ميراث الماضي ومن ضرورات الحياة ومن تحكم الشرائع ومن استبداد الحكام على هذا الشعاع فيقع صاحبه إما في تيه الضلال وإما في لجة سوداء من ظلمة اليأس . ويذهب ما كان ممكناً أن يلمسه هباء . وأكثر ما يكون هذا الفشل في تلتبس الطريق لمعركة أوفى وجوه الفطرة للبشر في عصر معين حين يكون البناء الجماعي القائم قوياً صلباً لا تنهز ضربات النقد . في هذه الحال تكون قوة البناء حائلاً دون الإلهام الأممي . أما إذا تصدعت جدران الاجتماع وبدأ الفساد يدب إليه ولم تسحر قوة الحاضر الأنظار عن التصنع إلى المستقبل هالك يكون للإلهام صدى يزيد أمل صاحبه في توسيع فرجة عقل منها على ما حوّه وإلى ما أمده . ويحبس على أثر ذلك نوع الحياة المتوقفة على السلائق البسيطة التي تقابلها . ثم يرسم خطة الحياة في كنفه .

يتوقوا . فإذا نادى بهذه الكلمة وجمعها الناس اتجهوا صوبها واحتشدوا بطلبها وساروا في حياتهم على نورها .

على أن الرسول الذي تلقى الكلمة المرجوة التي توجه الناس وجهتهم في الحياة للمستقبل لا يظهر فجأة على مسرح الاجتماع . كلا ولا هو ينادى بشيء جديد لم يسمع الناس في حياتهم به . ولكنه يركز في رسالته الآمال والتزعات المبهمة التي تجول في أنفس المجموع العاجز تحت حمل الوراثة والربط والتحكم عن تينها جليلة ظاهرة محددة . فإذا سمعها الناس اجتمعوا حولها وتعلقوا بها وبصاحبها لأنها عبارة عن مرآة صافية تعكس صورة ما كان في نفوسهم مضطرباً . وصاحب الرسالة - وهو أصنى أهل زمانه ذهنًا وسليقة لا عن دقة في المنطق ولكن عن نقاء في جوهر الذهن وقوة في العاطفة تدفع إلى الإيمان بالرأي - هو الذي يسير أمام الجماعة ويكون هادياً ومرشداً .

في تاريخ الإنسانية من هؤلاء الهداة والمرشدين شخص ظاهرة يقف المؤرخ عند كل واحد منهم وقفة الحادى في كل مرحلة من مراحل سفره . يقف عنده فيحلل حياته ويحلل أعماله ويحلل أفكاره وكل ما تعلق أو أحاط به على اعتبار أنه يمثل الجماعة كلها ممن حوله وأنه لذلك صورة التطور في تمام ظهورها . وبذلك لترى في مراجعة هذه التاريخ أن صور هؤلاء الهداة هي المثال الدقيق الواضح للتزعات التي سبقته أو عاصرتها والتي لم تستطع الظهور لضعفها أمام سلطان الجمعية حتى جاء ذلك الإنسان الممتاز فارتفع بروحه وبذهنه فوق متداول مصالح الحياة محققاً ما قد يقضيه ذلك عليه من المصالح . عاملاً على بناء الجديد أكثر من غنايته بهدم القديم الذي طالما هزت عرشه تلك التزعات في إبان ظهورها وقبل أن يتركها رجل التاريخ . حينذاك ترى الجماعة أسرع ما تكون لاتباعه والسير على ما يقرره لما من خطة سن .

على أنها كثيراً ما تتردد في اتباعه بادئ الأمر وكثيراً ما تعرض عنه وكثيراً ما يموت هو قبل أن تثمر فكرته الثمرة المرجوة . لكنه يتحكم بعد ذلك - على حد قول كارليل - فيحكم من قبره الأمم والعصور التي كانت تذر مدى حياته في ملابسه البالية ولا تكاد تجود عليه بالكشاف قيم به أوده . هنالك ترى ذكرى إبداعات تعود إلى الوجود لتجلس منه في الثروة وعلى عرش الخلود . وهنالك ترى

لهدم نظم التربية إذن من أساسها ليحل محلها نظام طبيعي قائم على فكرة استقلال الفرد في حكم البساطة الطبيعية . ولهدم النظم السياسية المبنية على أساس من الأثرة والملكية الخاصة والتحكم والاستبداد : لنحل محل ذلك كله الجمهورية الاشتراكية القائمة على أساس من التعاقد الحر بين جميع أفراد الاجتماع . ولهدم كل الفوارق الصناعية التي أقامها التحكم والإرفاق بين الناس ولتكن الفطرة الطبيعية هي القائد والمرشد في كل حال .

هذه هي الفكرة الأساسية التي صدر عنها روسو وعليها رتب الحياة الفردية والحياة الاجتماعية . وهذه هي الفكرة التي استنزلت النفوس ووجهت الأمة الفرنسية حين ثورتها الكبرى في سبيلها ، فرممت لها خطتها ووضعت لها أسلوباً وقررت لها أنواع لغوها وأنظمة حكمها . على أنها لم تكن فكرة روسو خاصة ، بل نادى بها من قبله كتاب ذوو مركز ومكانة . ولكنها خلدها روسو وخلدت هي اسمه بصيغة تحريروها وأسلوبها الكتابي . فهي صادرة من قلب روسو وتصوره أكثر مما هي صادرة عن رويته وتفكيره . وهي لذلك مخاطب القلب والخيال بقوة وحرارة وثورة تدفع إليها من الإيمان والإدعان ما يخضع معه الفكر ويستسلم له اللب . ذلك ما يشعر به الإنسان حين يقرأ روسو على بعد عصرنا عن عصره واختلاف وسطنا عن وسطه . ما بالك إذن بشعور أهل القرن الثامن عشر الذين كانوا يقيسون الضمض والإرفاق وأبشع أنواع التحكم والاستبداد . لهذا لم يلبثوا حين انفجر بركان الثورة أن اتخذوها إنجيلاً لإيمانهم السياسي .

إلى جانب ما تركته هذه الكتب من الأثر في النفس بما تثيره من الأفكار يجب ألا ننفل ما تبعته إليها من اللغة الرقيقة أو الحزة القوية على حسب موجات أسلوبها الكتابي . فقد قضى روسو حياته موسيقياً قبل أن يكون كاتباً . فلما انتقل إلى حياة الأدب والتحرير لم ينس التجارب الموسيقى في أسلوبه . وكان كلما ازداد تقدماً في السن وفي المكانة ازداد هذا التجارب جمالاً وإبداعاً حتى لتجده وقد بلغ الذروة منها في كتابيه الأخيرين « الاعترافات » و « أحلام المتوه المتوه المنفرد » . وهذا الأسلوب الموسيقي الوجداني الممتاز وبغضات تستهوى الفؤاد توقع عليها أقوى الأفكار وأسمها وأبدعها سالت الكتب القليلة التي تركها جان جاك قترك ميراثاً خالداً يتشارك فيه أهل هذه الأجيال والأجيال التي بعدها إلى أن يتقلب

الصور والتأثيل والمقاصير والحارب تقام ذكراً له واحتفاظاً بآثر من آثاره . وما كان أخوجه أيام حياته إلى بعض مما يتفق في هذا السيل يحفظ به على نفسه نعمة العيش .

من هؤلاء الهداة جان جاك روسو . فقد خرج هذا الطريد من منبته في سويسرا ، وعلى دين آياته البروتستانتين ، إلى فرنسا مقر عظمتهم ومهبط أفكاره ، وللكبتلة دين مدام دافرنس التي التقطته ورثه أيام تشرده ويؤسه . وبعد أن ظل أربعين سنة يعالج الفقر والفقر يقده ويطلق أبواب التعليم والموسيقى وخدمة الحكومات المختلفة من غير نجاح أو توفيق إذا به تطلق في أول خطاب ألقاه بكلمة كانت تتردد في الصلور وتتقف في الحناجر . تلك الكلمة هي القيامة في وجه النرف . ونطق بها صريحة قوية مربعة حتى اهتزت لها عروش الأغنياء والمترفين هزة عنيفة بعد ما كانت قد واجهت غيرها من الصيحات الضعيفة المستحبة بشيء غير قليل من الثبات والطمأنينة . وعقب على كلمته هذه بكلمة في المساواة طعن فيها نظام ذلك العصر ونادى :

« إن الملكية الخاصة والترف والإيمان في الشبهات هي سبب كل التماسات للكماسة التي تقع على رؤوس ملايين الفقراء . والتي يحصلها الشعب لا طال إيمانهم أنها أصلح الأنظمة للوجود الاجتماعي . وإنه لا سبيل لنخلص الأغلبية من هذا الشقاء إلا بعودة الإنسانية إلى حالتها الطبيعية » .

هذه هي الفكرة القائلة في كتب روسو كلها . وعلى أساسها وجه النقد المر لا اعتقده خروجاً على الطبيعة من علوم وفنون ومناظر وملاه وسوء تربية الناشئة وتحكم الاستبداد في رقاب البشر . وعلى أساسها كذلك وضع قواعد الإصلاح التي اعتقد وجوب الأخذ بها لإسعاد الإنسانية . على أن فكرته في الإصلاح لم تكن فكرة تدريجية تبدأ عند الأنظمة الحاضرة وتسعى لتحويلها رويداً رويداً في اتجاه معين ، ولكنها كانت فكرة منطوقة ثورية ترمى إلى هدم نظام وإقامة نظام جديد على أنقاضه . ويجب أن يقوم هذا النظام الجديد على مقتضى إلهام الطبيعة وحيها . والعيش على مقتضى الإلهام الطبيعي هو هذا العيش البسيط الذي كان الناس يعيشونه حين كانوا لا يزالون قبائل لا تعرف الملكية ولم تندمس بينهم الفوارق الاجتماعية .

نوع الحياة الذى تعرف انقلاباً ليس فى مقدورنا تسميه . وقد ربا هذا الميراث ونما وزاد بكثرة استغلاله ، وبحسن القيام عليه ، ونرى قليل ما فيه من الخبث وحسن تفهم الطبيب العظيم الكثير الذى يحتويه .

وهذا الميراث هو النور الذى يبين لنا فى خلال ذباجير المستقبل الوجه الأصح من وجه فطرتنا الإنسانية المركبة الذى تكون هدايته لنا أضمن لسعادتنا فى الحياة أو على الأقل أضمن لاحتمالنا فترة الزمن التى نمرّ فى أثنائها بأقل ما يمكن من الشقاوة والألم .

ولست أريد فى الصفحات القليلة التى أعرض بها حياة روسو وكتبه فى هذا الجزء والجزء الذى يسميه أن أعرف إلى أى مقدار أخذت الإنسانية بهدى آراء المرشد ولا إلى أى حد زاعت عن نور أفكاره . ولكنى كمصرى أولاً وكشرقي ثانياً أريد أن أعرض على أبناء مصر والشرق صورة من قوة حيوية قامت فى الغرب لعل فى عرضها ما يجعل الصلة بين الشرق والغرب ممكنة على أساس التفاهم الحر المخلص لا على مجرد القوة الغاشمة المنحكمة بتعرف وجهه شبه ولو قليلة بين أبطال هناك وهنا تجعل المشابهة الظاهرية فى الوجود الإنسانى بين جميع سكان المعمورة دليلاً على إمكان المشابهة الروحية والعقلية التى هى فى جوهرها أساس المساواة القائمة على المودة والتجاذب .

يجب أن أفسر ما أريد . قال كاتب غربي من شعراء الإنجليز : « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقى » . ولقد يكون فى التاريخ مصداق لهذه الكلمة . فقد رأينا دائماً شيئاً من الخلاف غير قليل بين فلسفة كل ناحية من هاتين الناحيتين للوجود . فالشرق المضيء المشمس الخصب الجواد أبو المدينيات والديانات الأولى والزاهد فى نعم الحياة لكثرة ما تغصه هذه النعم بوقرتها وكثرتها لم يلتق يوماً مع الغرب ملتقى الأخ بالأخ والصديق بالصديق ، ولكنهما كانا ولا يزالان كلداً تلاقيا كانت أيديهما شاكية السلاح أو شفاهما تتم عن ابتسامات العذر والخديعة . والفكرة التى تعلن فى أحدهما سلاماً وسعادة للإنسانية تنقلب فى الآخر دماً وموتاً زوأم . وهل ترى المسيحية الزاهدة بنت الشرق الخصب . هل ترى هذه الديانة البديعة سداها ولحمتها المودة والحب والتسامح . هل تراها تثبت ما أثبتت فى الغرب من كراهية وغل ودم ونار وموت إلا أن تكون طبيعة هذا الغرب متنافية

مع الموض الذى أثبت هذا الدين الجميل . والغريب الذى لا نجد له تفسيراً إلا من سخرية الأقدار وطبيعة التناقض الإنسانى أن هذه الديانة البرة المتسامحة هى وحدها التى تبنى فى الغرب موضع التضال والتزال الدائم .

على أن بقاءها وحدها فيه وبقاء الديانات الأخرى فى الشرق . وعدم ملازمة الأديان جميعاً ومخالفتها بعضها لبعض هو مصداق الكلمة السابقة : الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقى . وكيف يلتقى قوم من طباع متخالفة مقدار اختلاف طبيعة هذه الأقطار وأجوائها . كيف يلتقى الشرق القانع السعيد فى أحضان الطبيعة الكريمة الطقس والجو والمنبت بالغربي العائش بين الجبال والثلوج والزمهرير وعاديات الطبيعة . حقاً إنهما من جنس واحد وطينة واحدة وذوى طبائع متقاربة . لكن الجنس يحتمل أنواعاً والطينة تأخذ أشكالاً واختلاف الطبائع لا يتنافى مع تقاربها . ولن يكون تلاقى بين أفراد الجنس ولا اتفاق فى أشكال الطينة إلا إذا بلغ من تقارب الطبائع أن تطابقت . وليس التطابق محالاً فى عالم النظر الاجتماعى ، ولكننا بحاجة إلى عصور نمر وتفاهم دائم ومودة متبادلة وإخاء صحيح ومساواة عادلة يمكن ذلك التطابق . ومن أدوات ذلك نقل الأفكار المتبادلة فى مختلف الأقطار نقلاً أميناً صحيحاً ووصف حياة الأبطال الهداة وصفاً دقيقاً بعيداً عن كل تحيز . وربما كانت هذه الأداة . من بين الأدوات الكثيرة الواجب توافرها لتنام التطابق ، هى التى لجأ إليها الكتاب والعلماء من أنصار السلام ، ولكنها من غير نزاع لا تكفى وحدها للوصول إلى هذه الغاية الشاقة العظيمة الراقية التى هى منتهى أمل الإنسانية .

هذا إذن هو الدافع الذى حدا بى لبحث حياة روسو وكتبه ، ولكنى فوق ما قدمت لا أدعى استطاعة القيام بهذا البحث على وجه كامل . أولاً لأنى لم أنخصص له وإنما هو به فأتخذ منى وقتاً ومجهوداً كانا من خير الأوقات والمجهودات التى أنفقت فى حياتى . فلم أشعر معهما بألم ولا بملال بل كنت أنتقل من تذوق أنواع من اللذة ، وأشعر فى أعماق روحي بدسم ما يصل إليها فى أثنائها من الغذاء . ولكنى على كل حال لم أنخصص . والبحث الكامل لا يتأتى إلا بالانقطاع والمزاولة والإمعان وطول التفكير فى الساعات والأيام والأشهر المختلفة . وعند مراجعة المؤلف ومن كتب عنه من الكتاب الكثيرين جداً . وإذا كنت قد

قرأت كتباً كثيرة فهي على كل حال قليلة إلى جانب ما كتب أو أخذ عن روسو .
على أن ما وجدته من الفائدة واللذة في مطالعتي وبحوثي وحرصى على وضع شيء ،
مهما يكن قليلاً في البناء الواجب إقامته لإحكام روابط إخاء الإنسانية وإزالة
الفوارق والحدود الدولية والطبيعية والفكرية هو الذى دفعنى لأجترئ على القيام
بوضع هذا الكتاب .

وقد كان ما حبيب إلى روسو وجعلنى أميل إليه بنوع خاص أمران : الأول
طريقة في التفكير تكاد تكون شرقية . والثاني شخصية المفكر الذى خلده على الدهر
على ما كان عليه من فقر واضطراب نفساني بقارب الجنون ، وعلل وأمراض ونقائص
لا حد ولا نهاية لها . وفوق هذا وذاك حبيه إلى فكرة سامية قائمة على أساسين
متينين من العدالة الاجتماعية والإيمان بالعمل .

فأما طريقته في التفكير فتكاد تكون شرقية لأنها نوع من إجلال الطبيعة
والإيمان بأنها مصدر الخير وأصل نعمة الحياة والحياة الناعمة وبأن ضمان السعادة
في القناعة بما تهبه وحسن عرفانه والمتاع بمعناه أكثر من المتاع بمادته . ولو أنك
رجعت إلى كبار المفكرين في الشرق ومن جاءوا بالأديان من رسله وأنبياؤه لرأيت
هذه المعاني متجلية عندهم مع هذا الفرق دائماً ، وهو أن روسو يدعو إلى القناعة
والتنعم في حين يرى الأكثرون من رسل الشرق وجوب التخلي عن كل نعمة
والانقطاع وترك الجهاد للخلوص من نير الحياة الدنيا على أمل الخلود هناك
في الحياة الآخرة .

ولا شك أن روسو كان جريئاً في تأييد إيمانه هذا . فقد كان في وسط
جمعية مترعة بالترف متمرغة في حماته مؤمنة به إيمان المجوسى بناره والوثني
بصنمه . فالقيام في وجه هذا الإيمان تقتضى قوة في النفس وجراً وإقداماً
لم تتوافر للأكثرين ممن سبقوا روسو لمواجهة هذه الحقيقة فكسوها في أنفسهم .
والباقيون ممن استطاعوا إعلانها أعلنوها في استنحاء وضعف فموت ولم يعن بها أحد
ولم يهتز لها إنسان .

وهذه الجرأة في إعلان الفكرة هي التي خللت اسم روسو لاقترانه بها .
وهل خالده على الحياة غير الفكرة ، بل هل لغير الفكرة حياة . لقد فني روسو
وفنى قولنير وفنى روفائيل وفنى بنهوفن ، ولقد فنى من قبلهم كبار الفلاسفة والكتاب

والأنبياء ، ولكن اسمهم جميعاً بقي خالداً لأنه اقترن بالفكرة الخالدة في مظاهرها
المتعددة ، خلدوا على الحياة لأن الفكرة وحدها هي الحياة ، الفكرة هي القوة
المنظمة للعالم والمسيطرة عليه والمحتلة كل ذرة من ذراته والمسكة بمظاهره المختلفة
في دقيق نظامها وبديع أحكامها ، هي الروح التي تحمل الحياة والوجود والأزل
والخلود ، أما المادة فلباس كثيف كثير التحول والاضطراب توجهه الفكرة
كما تشاء وتوقفه حيث تريد .

ولا شك أن روسو مثل من الأمثال العليا ومظهر من مظاهر الفكرة الحية
الخالدة ، فهذا هو أمام أهل عصره منتشر وضع محكوم عليه باليأس وبفساد
الخلق وبالأمراض التي لا تنفك تعكر صفو الحياة ، ثم ها هو ذا رجل يعيش
لا من وراء الفكرة التي كانت تهزل جسده النحيل ولكن من عرق جبينه لنقل
نوت الموسيقى ، ثم ها هو ذا يموت يائساً مشرداً ضال الصواب طائر العقل ،
ولكن جسده النحيل كان يحوى قلباً عظيماً وحياته الفقيرة كانت في قيادة عقل
غنى . لذلك ارتفع قلبه وعقله على أن يخضع خضوع السواد إلى حكم المادة
وأن يفنى تحت أحمالها وأثقالها وخلق بهما في جو الفكرة جو الحياة والقوة فحكم
العالم والوجود واستحق نعمة الخلود .

وإني أناشد القارئ أن يرجع البصر إلى التاريخ هل يرى لمظاهر المادة عليه
من بقاء ، بل هل لهذه الأسماء الضخمة من أسماء الملوك والقيصرة وقادة الجيوش
ورجال السياسة التي اغتصبت على الزمان حق البقاء من معنى في الحياة أو أثر ؟
هذا نابليون أبو الغزو والفتح وصاحب الصولة والسلطان ، ماذا بقي من أثره في
فرنسا . اسم يشاد به ولا أثر في الحياة الخالدة له . وهذا بسمرك داهية سواس
العصر الأخير لم يمض على موته نصف قرن حتى انهار صرح ما شاد ودكت
قوائمه . ذلك لأن هؤلاء الرجال كانوا يعنون بقوة أشخاصهم لا بقوة الحياة
الخالدة الماثلة في الفكرة الصحيحة التي تحكم العالم في مختلف عصوره
وأجياله ، كانوا يحسبون أنفسهم محور الوجود فإذا هم فيه ذرات فانية ، وكانوا
يسجدون أنفسهم مدى حياتهم فإذا انقضت حياتهم انقضى مجدهم . أما المسيح
ومحمد وشكسبير ورفائيل وروسو فكانوا يعلمون أنهم في عالم المادة ذرات فانية ،
ولكن هذه الذرات كانت تحوى قوة الفكرة فلما اندمجت فيها سواها من مثلها

تخلصت تلك القوة التي كانت تنفصهما فانضمت إلى القوة الكبرى المنصبة
للعالم وللوجود من أزل إلى أبد.

والعجب أن يكون ذلك شأن روسو وهو القائل بأن التفكير أقتل الأمراض
للجماعات ، لكن التفكير في طبيعة المحي الإنساني بل هو حياته . ولولا الفكرة
العامة ولولا التفكير لهلك الجنس في مهده . لذلك لم يكن روسو يقصد بكدته
معناها الظاهر ، ولكنه كان يرمي بها إلى معنى قام بوجود جمعية عصره وساقها
إلى الابتعاد عن الفكرة الطبيعية الطبية الصحيحة القوية الحية وأوقفها أو كاد على
هاوية من هاويات الفناء مزينة بزخرف الترف مما يفت في حياة الإنسانية ويسوقها
في سبيل الضعف والتخاذل إلى المذلة ، ثم إلى الزوال . لذلك كان واجباً أن
نستدرك أن الفكرة الخالدة والتي تخلد صاحبها هي الفكرة الحية الصحيحة
وليست أي فكرة وإن آذنت بزوال الآخذين بها .

ولعل أبداع ما في فكرة روسو نزعته إلى الفضيلة القائمة على أساس العدالة
الاجتماعية . فقد كان بطل المساواة والداعي لإزالة القلوق الظالمة بين الناس ،
ولعسرك هل رأيت ظلاماً أفدح من الظلم القائم عليه نظام ذلك العصر والذي
لا يزال نظام عصرنا الحاضر قائماً عليه إلى حد كبير . يقولون إن القاعدة الأساسية
القائمة عليها جمعيتنا الحاضرة هي الحرية المطلقة . ولنا ندري أي شيء يراد
بالحرية المطلقة ولا أين هي في العالم الذي نعرفه . هل الحرية المطلقة تكون
للطفل يوم يولد ؟ وهل تكون له في السنين الأولى من حياته . ما نحسب أحداً يقول
بهذا الرأي ، ومع ذلك فالسائد أن يترك الطفل لعناية أبويه سواء أكانا من الأشرار
أم من الأخيار ، وهما اللذان يقدمانه للحياة . ويومئذ . يعم بملك الطفل الذي
شب وترعرع حرية العمل . إذا به يجد حريته مقيدة من كل جانب ، ثم إذا به
يرى نفسه وقد قذف به في ميدان الحياة ولا سلاح له ليحارب ويناضل من سلحتهم
الحياة بأقوى الأسلحة . قتره جاهلاً . وفقيراً . ومريضاً . وتعيساً ينزل ليقف في
صف المجاهدين أمام المتعلمين ، والأغنياء . والأقوياء . والسعداء . ويقال له
يومئذ أنت حر وهذا هو الميدان أمامك فتقدم ولك ما تحوز به بفضل جهادك .
ومع ذلك ترى من يتنادى لنا بأسماء الإخاء والمحبة . والتضامن ، بين أهل هذا
الميدان المتنافسين المتطاحنين يفتك قلوبهم بضعيفهم وعتيم بفقيرهم وحاكهم

بمحكومهم ما دامت حريته مطلقة في هذا الفتك ، أي ما دام القانون لم يرتب
عليه قصاصاً .

هذا لعمر الحق هو الظلم وهو الاستعباد الصارخ في أشنع أشكاله ومظاهره ،
ولا شيء يفسد زواله إلا أن تطبق قواعد العدالة الاجتماعية بأن تكفل الجمعية
الأطفال فتسلحهم جميعاً بمعدات الحياة من صحة طبية وتعليم صحيح وإعداد
للسعادة والنعمة ، حتى إذا دخلوا إلى الميدان لم يكونوا عزلاً من السلاح بل
وما يدافعون به عن أنفسهم . وما دام الناس جميعاً مسلحين بقوة الحياة الصحيحة
على نحو ما يقضى به العصر الحاضر كان تشابهم وتكافؤهم من أقرب الدواعي
التي تقرب فيما بينهم وتجعل العلاقات التي يمكن ترتيبها علاقات محبة وتضامن
وتعاون لا علاقات إذلال وإشفاق واستعلاء ومرحمة ، وعندئذ أن هذه الفضائل
التي نسمع أسماءها اليوم : الرحمة ، والجود ، والإحسان ، وأمثالها ، ليست هي
إلا من خلق مدينتنا الظالمة التعيسة التي تريد أن تستدر رحمت الظالمين بدلا من
تقوية روح التضامن عندهم ، والتي تريد إلى جانب ذلك أن تهدي المظلومين
المنكوبين ليظلوا فيما هم فيه من بؤس ثم لا يشعرون .

ولن نتحقق هذه العدالة الاجتماعية إلا إذا قامت على أساس متين من الإيمان
بالعمل . إن الإله الحاكم اليوم والذي تعنو له الوجوه وترتعد أمام سلطانه الأفئدة
وجلا إنما هو عجل الذهب ، وقد بلغ الإيمان به أن أصبح الاعتداء عليه داعية
أشد العقوبات . بلى . فأنت إذا اعتديت على شخص أو على عاطفته أو على شرفه
فإن القانون لا يعاقبك إلا بما يشئ غل من اعتديت عليه . أما إن أنت اعتديت
على المال فلك الويل من عقوبات هائلة تنصب على رأسك .

هذا لا شك نظام تعيس . هذا نظام يزرع في النفوس التنافس لا على
الفضيلة ولا على الكرامة ولا على الحرية ولا على الحق ولكن على المال . والتنافس
على المال أساس كل تغاسة ومصدر كل جريمة وداعية كل ظلم . وما دامت
عبادة الذهب هي الصورة البارزة لإيمان بني آدم فستبقى التغاسات وكل الجرائم
وكل المظالم . أما إذا انقلبت الحال وأصبح العمل هو موضع العبادة والإيمان به هو
الإيمان القائم في أعماق القلوب وكان كل يجزى بمقدار عمله وكان العمل يحمي
المال اليوم وكان الاعتداء عليه ينال الجزاء القاسي : إذا وصلت الإنسانية من التطور

نحو الرق إلى هذا الحد فأذن في الناس بانقضاء القسم الأكبر من تعاساتهم وجرائمهم وظلمهم .

ليس هنا موضع عرض فكرة العدالة الاجتماعية القائمة على عقيدة الإيمان بالعمل ولا هذا مكان شرحها وتطبيقها ، وإنما أشرنا إلى الفكرة لأنها من بعض الأفكار التي سبق روسو بالإشارة إليها وإن لم يحللها ، ولما كانت هذه الفكرة هي عندنا التي تقابل تلك القطرة التي تلثم مع نوع حياتنا الحاضرة أكثر الالتئام فلم نر بداً من الإشارة إليها في هذه المقدمة الوجيزة .

وإننا الآن نترك القارئ يستعرض حياة روسو وبعضاً من كتبه في هذا الجزء راجين أن نكون قد قدمنا لقرائنا وشيبتنا مثلاً من أمثلة العظمة الفكرية المرتبطة بحياة الكون العليا .

محمد حسين هيكل

الجزء الأول

جان جاك روسو

١

ولد جان جاك روسو بمدينة جنيف من أعمال سويسرا في ٢٨ من يوليو سنة ١٧١٢ من أبوين من أواسط الناس هما إسحاق روسو صانع ساعات وسوزان برنار ابنة رجل أنعم من زوجها حالاً ويشغل بمهنة التعليم . ولقد كان رابع جد لروسو لأبيه من باعة الكتب في باريس ومن بين الذين اضطرتهم القضاة والاضطهادات الدينية التي شهدتها القرن السادس عشر لهجروا فرنسا ، أما جده لأمه فكان راهباً بروتستانياً ممن احتموا في الجمهورية السويسرية من اضطهاد الكاثوليك في ذلك العهد . وقد قضى ميلاد جان جاك على حياة أمه فبعثتها إلى نفس أبيه أكبر الحزن والأسى ، ذلك لما كان بين الزوجين من حب لا يكاد يتصوره العقل . حب نشأ معهما حيث بدأ وكلاهما في التاسعة من عمره ثم نما وتجسم وبلغ حد الهيام حتى اضطرت إسحاق للسفر طلباً لنسيان فتاة ربما منعها تفوق مركزها عليه عن الارتباط معه برباط الزوجية . لكن سفره لم يزد إلا هياماً ولوعة ، ورجع فوجد محبوبته على عهد ووجد أخا سوزان قد علق أخته هو وطلبها لنفسه فطلب إسحاق يد سوزان مقابل أخته وهكذا تم زواجهما . وكانت سوزان جميلة حية أدبية وموسيقية محاطة بالمعجبين إلى حد جعلها برغم طهرها منظوراً إليها في مدينة (كالقن) ^(١) بعين الشك . أما إسحاق فكان صانع ساعات ومعلم رقص خفيف الروح خيالي الطبع ميالاً إلى الكسل كثير المشاغبة . ولقد رزق منها ولداً بعيد زواجهما ثم اعترب إلى القسطنطينية ليكون صانع ساعات في سراي السلطان كما يقول جان جاك أو عامل ساعات لسكان بيريه البروتستانتين في داي أوجين دثر . وبقي هناك ست سنوات (من ١٧٠٥ إلى

(١) كالقن أحد مؤسسي البروتستانتية ومدينته جنيف .

(١٧١١) كانت زوجته في خلالها موضع ميل وأهواء الكثيرين . وأخيراً استرجعته .
وكان جان جاك الشجرة التعيسة لتلك العودة إذ قضت أمه نحبا بعد ثمانية أيام
من ولادته وهي في حمى النفاس .

ولم يتعز إسحاق عنها ولم يجد ما يخفف من ألمه ويهون عليه مصابه إلا البقاء
إلى جنب ابنه . وظل معه السنين الأولى من حياته . ولما بلغ الغلام السادسة من عمره
ابتدأ يعود القراءة . وجعل يقضي الليالي في قراءة روايات تركتها أمه وبصرنان
في ذلك معظم الليل . وكثيراً ما أذن الصبح وهما على هذه الحال فكان داعيها
إلى المجوع والنوم .

واستمر كذلك زمناً ، وكان أحب الكتب إلى جان جاك « بلوتارك » عن
حياة العظماء . وبعد سنتين اضطرت بعض الحوادث أباه ليغترب عن سويسرا .
ذلك أن شجناء قامت بينهم وبين من يدعى بول جوتييه ورأى أن مآله السجن
لا محالة ، ففضل الهرب وعهد بروسو إلى خاله برنار الذي أرسله مع ابن له إلى
(بوسى) عند معلم يدعى لامبرسييه . ولهذا المعلم أخت في الأربعين من عمرها
كانت تقوم على الطفلين قيام الأم وتعنى بتربيتهما .

قضى روسو قسماً من أسعد أيام حياته عند المسيو لامبرسييه . كان معزناً
محبوباً يعلمه أستاذه على طريقة من أحسن الطرق ويوجب إليه العمل بكل الوسائل .
وكانت مدموازل لامبرسييه لا تترك فرصة في الليل ولا في النهار إلا أرادت أن
تجعل للطفلين منها ربحاً للحياة ومكسباً ، ولقد دعت هذه العناية من جانبها
أن يتعلق جان جاك بها أشد التعلق ، وكان في هذا كما كان في غيره ذا طبع
خيالي دنف أورثته إياه أمه وخيال قوى متشرد أورثه إياه أبوه . لذلك فما أسرع
ما انتقل تعلقه بمرتيته إلى هيام دفعه ليجعل منها موضع حبه ويتودد إليها المندف
إلى معشوقته . وما كانت هي لتظن شيئاً من هذا . فإن طفلاً في العاشرة أو الحادية
عشرة من عمره لا يمكن أن يتصور فيه مثل ذلك الميل وتخصيصاً إلى فتاة تبلغ
الأربعين .

لكن هكذا كان . وإلى القارئ بعض أقوال روسو في اعترافاته عن ذلك :
« ولا كانت مدموازل لامبرسييه تحبنا حب الأم فلقد كان لها علينا سلطانها ، وكانت
تصل بهذه السلطة إلى معاقبتنا كلما استحققتنا العقاب ، وقد قصرت عقابها

زمناً على تهديد كنت أخشى أشد الخشية تحقيقه ، غير أنه لما تحقق تبين لي
أنه أقل شدة بكثير مما كنت أتوقع ، بل الغريب أن العقوبة زادتني حباً في تلك
التي أوقعتها ، ولولا كل حبي لها ورقى الطبيعية لما امتنعت عن استشارة ما يستحق
هذا العقاب ، فقد وجدت في الألم والحجل الذي يعقبه شيئاً من اللذة زاد عندي
الرغبة في أن بنالني من التي أنالته على الخوف من أثره . »

وانحصر حب روسو لمدموازل لامبرسييه في تصورات وأحلام لا يمكن لطفل
في سنه أن يصل إليها مهما بلغ من خياله . وقد استشعرت الفتاة ميله فلم تعد
تسمح له ولابن خاله بالنوم في غرفتها واعتبرت في سن لا يجوز ذلك معها .
وسيرى القارئ أن هذا النوع الخيالي من الحب هو الذي تخلل حياة
جان جاك كلها وأنه سيكون ذا أثر كبير في كتاباته ومؤلفاته . وهو يركز على
خيال قوى وعلى خياء كثير . ولروسو حظ وافر من الصفتين كثيراً ما جعله يخطئ
في النظر لنفسه وللأشياء فيعد إحجامه المبني على الحياء أنفة وخيالاته الموهومة
حقائق وأفكاراً .

ومع هذه الثورة التي يحكى لنا عنها روسو في وصف حبه لمرتيته فإن هذا
الحب لم يكن إلا عاطفة قلبية بريئة أصح أن تسمى عطفاً وتعلقاً كبر في نفسه
بتأثير خياله المتوقد وميوله النفسية التي صرّفت حياته إلى حد كبير ، بل التي
أثر بها أكبر الأثر في أدب عصره .

وبعد أن ظل خمس سنين عند المسيو لامبرسييه ومعه ابن خاله الذي كان
مرتبطاً وإياه برباط صداقة في غاية المتانة - خمس سنين عرفا فيها كثيراً وجال فيها
جان جاك جولات واسعة وسط الأحرار والمزارع التي تحيط (ببوسى) وملاً منها
عينه واختبرها في مخه لتخرج يوماً إلى الناس من نفثات قلعه - حدثت مسألة
نافهة كانت السبب في تركهما هذا المكان الذي متعهما بسعادة طويلة . ذلك أن
كسر مشط لمدموازل لامبرسييه واتهم روسو بأنه الذي كسره فأنكر وأصر على الإنكار
وازداد إصراراً لما اتهمه معلمه ودعى خاله برنار لتحقيق المسألة وانتهت أخيراً بانفصال
الغلامين عن معلمهما .

فلما ترك جان جاك معلمه خطر له أن يذهب فيزور أباه في (نيون)
وهناك التي بمدموازل (فلسن) مع أمها . وما كاد يراها حتى نسي ما كان له من

اللافتة سابقة مع مدموازل لامبرسيه وابتدأ خياله يصور له نوعاً من الحب - ديداً . ولقد كان إذ ذاك في سن تسمح له بتصور شيء من معنى اختلاط الحسين . لكنه لم يعبأ بذلك وجعل كل ميله إليها ميل عطف مشوب بشيء من حب الاستئثار بها حتى لم يكن يسمح لأحد في حضرته أن يقترب منها . على أن ذلك لم يمنعه من أن تكون له بفتاة أخرى تكاد تعدله في السن وتدعى مدموازل (جوتن) علاقات عطف من نوع آخر . وكان هذا الطفل المتدرج إلى الشباب كان يريد أن يرضى كل شبهات خياله على مختلف ما يصور له من أنواع الميل والعطف . ففي حين كان ميله لمدموازل (فلسن) - وكانت يومئذ تبلغ الثلاثين من عمرها - ميل ظهور أمام الناس حتى إذا خلاها اعتاده الخجل واحتار في أمره إلى أن تنجيه الجماعة فترجع إليه صوته ونشوته ، كان ميله لمدموازل (جوتن) مزوجاً بشيء من الخضوع لإرادتها والإذعان لسلطانها ، وبينما كان يريد الاستئثار بفلسن كانت جوتن هي المستأثرة به المنسية إياه ما سواها في كل لحظة ويهد معها . ولم يعلم أحد بحبه لهنه الأخيرة إلا متأخراً وما كادوا يعلمون حتى فصلوه عنها .

ولقد أعان جان جاك على كسب عطف هاتيك الفتيات جمال في صورته وبريق غير عادي في نظراته ودقة في فمه أقرب لأن تكون نسائية مبدعة . هذا فوق أن الخجل في الشبان يستدعي عطف الكثيرات من الفتيات اللاتي يرين فيه ما يسمح لهن من غير خجل أن يتنهين بمن يعطفن عليه . وجان جاك على ما عرف القارئ خجول كثير الحياء .

ولقد كانت هذه الزيارة لأبيه آخر سعد طفولته ، وكانت عودته بعد ذلك إلى خاله برنار في جنيف مبدأ نحس طويل . فبعد أن أقام زمناً في (نيون) وغادرها راجعاً إلى مستقره أرسل به خاله إلى أحد (الكتبة العموميين) ليأخذ عنه الحرفة . وأطراه خاله للمسيو (ماسرون) عندما ذهب به إليه . لكن تلك الحرفة لم ترق في عين روسو وصدف عنها وأظهر فيها التباطؤ والخمول إلى حد اضطر معلمه أخيراً لطرده بعد أن أرهقه سوء معاملة ظناً منه أن ذلك ربما يرد إلى تلميذه بعض النشاط والاهتمام .

هنالك أرسل به خاله ليحترف النقش عند معلم يدعى (دكمون) ليعده

للاشتغال من بعد ذلك في صناعة الساعات ويزاول المهنة التي زاولها أبوه من قبله . وأحس الغلام بشيء من الميل إلى هذه الحرفة . لكن معلمه وكان فظاً غليظاً كان يحسب أن الوسيلة الوحيدة لتعليم الأولاد هي إيهاقهم بالعقاب . لذلك ولما كان يجده روسو من الميل إلى النقش ابتداءً يشتغل سرّاً ومن وراء معلمه بأعمال أخرى متعلقة بالنقش . من ذلك أنه ابتداءً ينقش لأصحابه طرراً يلعبون بها . غير أن معلمه ما لبث أن اكتشف ما يعمل حتى انهار عليه وأوسع ضرباً مدعياً أنه يقلد نقود الجمهورية .

« ولقد كان من أثر ظلم معلمى واستبداده أن كره لنفسى عملاً ربما كنت أحبه وحملت نفسى رذائل كنت لولاهما أبغضها ، وكان من بين هذه الرذائل الكذب والكسل والسرقة » . وابتدأت نفس روسو حينذاك تحث وتنشط وابتداءً ما كان كسبه من قراءته أيام الطفولة ومن تعاليم المسيو لامبرسيه ومن عطف الناس عليه يتدثر بدثار كثيف من النقائص المشينة . فكثرت أكاذيبه وسرقاته وازدادت خمولاً وضعة ، وبمقدار ما كان يوغل في ذلك كانت عقوبات معلمه تزداد وتشتد . وصغر هو أمام ذلك إلى حد أصبح العقاب معه أمراً عادياً بسيطاً يحتمله من غير ألم وبلا امتعاض ، وكأنه كان يراه المقابل الطبيعي لعمله ولركزه .

ولقد ظل على هذه الحال زمناً طويلاً . لذلك لا يعجب القارئ إذا قلنا له إن هذه الصفات التي نمت فيه في أثناء هذه الفترة من حياته بقيت معه إلى حد ما طول أيامه . بل لقد حكى هو في اعترافاته أنه في الخمسين من عمره اختلس نقوداً بأن رد (تذكرة) في (الأوبرا) كان اشتراها له صديقه (فرانكي) ليقتضي الليلة معه وأخذ ثمن التذكرة من جديد وخرج . ولولا ذلك الزمن النحس الذي قضاه يقاسى الألم والتعس لما وجدت كل هذه المفاصل إلى نفسه سيلاً .

وكان حظ روسو من سرقاته أيام اشتغاله بتعلم النقش أن يصل إلى شيء من التقود يشارك به خلانه في مسراتهم . فلما طال به ذلك ابتداءً يعاوده الملل وراجع نفسه شيء من سابق أنفثها . فأكب من جديد على القراءة ، وانصب عليها بشكل جنون . فلم يترك كتاباً وقع تحت يده إلا قرأه ولا ترك وسيلة يقتنى بها الكتب . وكان يتفق ما يصل إليه من زهيد النقد في استعارة الكتب من تاجرة

هناك كانت لا تأبى إقراضه . وأما ذلك عن سابق مفاسده ففسى ما تورطت فيه نفسه من النقص ولم يترك فرصة يستطيع فيها القراءة من غير أن ينتسها .

لم ينس الخروج إلى الغابات والمزارع للرياضة الوقت بعد الوقت من بعد أن أحس بعظم لذة الطبيعة في نصرتها أيام مقامه (ببوسى) لكنه تأخر أكثر من مرة عن الدخول قبل إقفال أبواب المدينة فألقى معلمه عليه لطمًا وأكسًا . وبينما كان في الغاب يوماً ورجع إذا الأبواب ثقفل في وجهه وفى وجه إخوان معه . هناك حلف لا يدخل المدينة ولا يرجع إلى ما كان فيه وغادر جنيث هائلاً على وجهه .

إلى ذلك اليوم كان جان جاك بروتستانياً كما ولد . وإلى ذلك اليوم عاش تحت سيطرة أهله ، إن أباه أو أخاه ، وعاش عيش أمثاله الشبان الذين هم في سنه ، لكنه امتاز دائماً بحدّة خيال غريبة ما أكثر ما كانت سبب شقاؤه . ومن يومئذ انتهى ذلك العيش المنتظم على ما يظن الكاكة ، وابتدأ جان جاك حياته المشردة . وكان إذ ذاك في السادسة عشرة من عمره .

خرج من جنيث وقد اعتقد نفسه فك من رباط الأسر وأصبح قديراً على الوصول لأرقى الغابات . قال : ودخلت العالم العظم بكل ثقة آملاً أن مواهبى ستحف به وأنى سأجد عند كل خطوة أخطوها أعياداً وغنائم وأصدقاء يرجون خدمتى ورفيقات كل غرضهن أن يعجبني . على أنى لم أكن أريد أن يشغلنى العالم كله بل كنت مكثفياً بأن تحيط بى جمعية جميلة تستنى ما سواها . . . ووقفت أطماعى على الوجود في قصر تخصنى فيه عناية السيد والسيدة وتصبح البنية فيه رفيقى والابن صديقى والمجاورون فى حمايتى .

هذه أطماعه يومئذ ومن خلالها يرى القارئ جان جاك الخيال السابح في بحار الوهم البعيد عن حقيقة ما يحيط ببني آدم الذين يشردون . على أن أول أسفاره لم تكن من التعمس لتصدده وترجمه إلى أهله وعشيرته . بل كان فيها ما شجعه على الاستمرار ليقذف به ذلك في مهاوى الشقاء .

ترك جنيث واستمر في سياحاته حتى وصل إلى (كيخنيون) في بلاد السافوا وهناك التقى بفسيس هذا البلد المسبو (بنشور) . فلحنن القيس لقاءه وأكرم رفقته وأجلسه وإياه على مائدة ما كان روسو ليحلم بها ويحلى بكلمه في أمر عقيدته طمعاً في نقله من بروتستانتيته إلى الكاثلكة . وما كان مثل هذا الخاطر ليمر ببال

شاب كجان جاك ولا هو فكر فيه ساعة كان يكلمه القس في أموره ، وإنما سكت استبقاء لحسن القيا وكرم المضيف . وجن أراد هذا الأخير وداع جان جاك زوده برسالة إلى سيدة في (أنسى) هى مدام دى فارنس التى شغلت قسماً مهماً من حياة روسو على ما سيرى القارئ . فظل يتلأك طوال الطريق حتى بلغ (أنسى) بعد ثلاثة أيام قضاه في التجوال وشبه السؤال . وهنا ترك الكلمة لجان جاك نفسه ونقل للقارئ شيئاً من اعترافاته :

« كنت يومئذ في منتصف السادسة عشرة من عمرى . ومن غير أن أكون شاباً جليلاً قد كنت منتظم القامة جميل القدم دقيق الساق حتى الوجه صغير القم فاحم لون الشعر صغير العينين داخلهما ولكنها كانتا شديدي البصيص تقذفان كل ما في دمي من حرارة . على أنى مع الأسف لم أكن على علم بهذا وما علمته في حياتى إلا بعد أن أصبح علمى به غير مجد نفعاً . . .

« ولقد كان يخلج إلى أن تلك السيدة التى دلتى عليها المسيو بونتيفر لا يمكن أن تكون إلا بنولا شسطاه فما رأيت (حين الفاتما إلى نوى ممر وراء متيلاً) إلا وجهها خلق من حسن وعيوناً جميلة زرقاء تملؤها الرقة والمطف ولوناً باهراً وعقاً ساحراً . ولم يغنى منها شيء لأول ما نظرتها وأصبحت لحظتها أسيرها موتاً أن دنيا يدعو إليه مثل أولئك الرسل لابد ساق إلى الجنة .

« وكانت يومئذ في الثامنة والعشرين من عمرها . وكان جمالها من ذلك الجمال الباقي ، لأنه في الخلقة كلها لا فى القسّمات منفردة . لذلك كان جمالها لا يزال فى كل نصرته وكانت ذات روح مملوءة حناناً ونظرات كلها الرقة وإبتسامة ملائكية وقم على قياس فمى وشعر نادر نوع جماله . وكانت صغيرة الحجم نوعاً بل قصيرة متقاربة فى قوامها من غير تشويه . لكنها يستحيل أن تجد مثل جمال رأسها وصدرها ويديها وذراعها . »

هذه هى مدام دى فارنس التى نزل عندها روسو لتدله على دين حق وتخرجه عن دين آباءه ، وما أقرب ما خلقت بينهما صلة اليد والتوافق ، ولولا أن راهباً لاحظ ما هناك وبحث وراء إقصاء روسو واضطر مدام دى فارنس . محافظة على مركزها ، لتوافقته على هذا الإقصاء لعاش روسو إلى جانبها من ذلك اليوم سعيّاً . لكن كأنما قضى عليه أن يمادها بعد أيام من وصوله ليرجع إليها من جديد

بعد زمن يمضيه في البؤس والنحس فيمنع بعد ذلك بحب يتعدى حب الخيال ويتزجه شيء من الحسة والخذلان .

وترك (أنسى) ذاهباً إلى (تورين) ومعه ذلك الراهب الذي أوعز إليه بسفرو وزوجته . وظلوا في سياحتهم بين ربوع السافوا وسويسرا يقطعون أبدع بلاد الله وأجملها مناظر فتعزى ذلك الطريد بعض العزاء . وجعل يتمتع ناظره بجمال الضيعة الباهر . ولقد كان على ما عرفنا من عشاق الطبيعة ومحبيها والمولعين بها إلى حد الهيام . لذلك فلقد ساءه أن يصل تورين على عجل تاركاً وراءه الجبال بما عليها من الشجر والزهر محيطة بالمحيرات البديعة الرائعة .

وصل إلى تورين وابتدأ خياله يلعب به من جديد وتخيل إليه أن حياة كلها السعادة والعظمة تنتظره . على أن جيبه كان قد خلا . فلم يجد وسيلة أمامه إلا أن يقدم الخطاب الذي زوده به رئيس دير أنسى إلى رئيس دير تورين وهناك أدخل ليتعلم الدين الجديد .

وكان معه في الدير جماعة من الشبان ظهر له بعد أن عرفهم أنهم أفاقون وجدوا في الاتجار بدينهم مرتزقاً . أما الفتيات اللاتي كن هناك فلم يكن من بينهن من يسر مرآها إلا فتاة في الثامنة عشرة من عمرها أراد روسو أن يأنف وإياها وأن يشغل خياله بها ولكن أمنيته ذهبت سدى وخرجت الفتاة بعد شهرين من مقامه بالدير ولم يجرؤ أن يخاطبها إلا في خياله .

وقضى في الدير زمناً وهو في جدال مستمر مع أساتذته الذين كرسوا أنفسهم لإدخال الكتلثة إلى قلبه وقلب أمثاله ، وكان كثيراً ما يحاججهم بما قرأ في أيامه الأولى . أما من معه من الشبان فلم يكن من يأبه له إلا شاباً ابتدأ الصداقة معه ثم انقلبت الصداقة عند ذلك الشاب إلى حب شهواني حتى إنه راود روسو عن نفسه ، إذ أراد أن يفسق به ؟ ! فأذاع روسو الخبر في الدير . لكن الرهبان هناك اتهموه بحجة أن الأمر تافه لا يستحق كل هذا الاهتمام بل أخبره أحدهم أنه في صغره مر بالدور الذي أراد صديق روسو أن يخضعه له وأنه لم يجد في ذلك ألماً . وبعد ثمانية أيام من هذه الحادثة ألبس ذلك الغلام الفاجر الثياب البيضاء علامة الطهر وصبت عليه كأس الكتلثة .

وأراد روسو النجاة من الدير بشكل ما . لكنه لم يفلت إلا بعد شهر من الزمن .

وأقلت حين اعتبر كاثوليكيًا وأفرج عنه وأعطى عشرين فرنكاً . فخرج في المدينة هائماً يقدر مستقبله ويتنظر حياة طيبة . لكنه كان يخشى نفاذ ما في جيبه فعمد إلى بيت حقير قبلته فيه صاحبه مع جماعة آخرين على أن يدفع ثلاثة صلديات كل ليلة . وفكر هو في احتراف النقش وجعل يبحث عن يجد عنده عملاً ، ولقد أخفق مرات حين عرض للسؤال عن نفسه . وفيها هو يوماً في جولاته مر بهانوت به سيدة جذابة عرض عليها خدمته فأحسنت تلقياً وقدمت إليه ما يطلب من معدات العمل . وقبلته قبولاً حسناً .

تلك السيدة هي (مدام بازيل) التي شغلت خيال روسو زمن بقائه معها والتي أنسته من كان قبلها من أمثاله . ولقد كان زوج هذه السيدة على سفر وكلف أحد عماله أن يقوم بما تطلبه زوجته من الخدمة . فلما رأى هذا العامل أن روسو ابتدأ يأخذ مكاناً من قلبها عاودته الغيرة وصمم على الوقعة به بعد أن ألحب خياله بنار الغرام .

وإن روسو ليدكر هذه المسألة في اعترافاته وفي مذكرة وجدت في مكتبة نوشاتل على طريقة تدل على أن السيدة اهتمت له حقيقة وإن كان هو قد سار معها على طريقته في الحب ، طريقة الاستكانة والمهمل . قال : تبعها يوماً بينما صعدت إلى غرفتها وجلست إلى جانب النافذة المقابلة للباب وفي يدها بعض النسيج . ولا شك أنها لم ترق ولم تسمع حركة دخيل لقيام ضجة العربات في الطريق . ولقد كان منظرها بديعاً ونم رأسها المنحني بعض الشيء عن بياض عنقها وزانت شعورها المرفوعة برشاقة أزهار رصعها ، وعم شكلها كله بهاء سمح لي الوقت أن أملاً منه ناظرى حتى لقد خرجت عن طوقى فركمت عند الباب ومددت نحوها ذراعى في حركة مهتاجة واثقاً كل الثقة أنها لا تستطيع أن ترائى . ولكن مرأة فوق المدافأ خائنتى . ولست أدري أى أثر تركته حركتى هذه في نفسها ، فإنها لم تنظر إلى ولم تكلمنى بل أرتنى بإشارة من أصبعها الفرس المطروح عند قدميها . ولقد كان يتسارى عندي أن أرتعد وأصبح أو أطيح إلى المكان الذي أشارت إليه . ولكن المدهش الغريب أنى في هذه اللحظة لم أجرؤ على شيء من هذا فلم أتبس بكلمة ولا استبحت منها لمحة ولا مسسها لأعتمد لحظة على ركبتيها بل كنت أخرس لا عن سكينه . ونطق كل شيء في خلا الصوت بمعانى السرور والاضطراب

والشكر والرغبات المتباينة غير المحددة الموضوع المنكشئة خشية أن يصدر منها ما لا يسر . ولم تكن هي الأخرى أكثر من هدوء ولا أقل استياء ، ولم تستطع في اختلاطها حين رأيتني حضرت إثر إشارة صدرت عنها من غير روية ، أن تقبل على ولا أن تبعدني فلم ترفع نظرها عن نسيجها وجاهدت أن تظهر كأن لم ترى عند أقدامها . وحسبت في غفلي أنها شاركتني في اختلاط بل في رغباتي وإنما منعها خجل كخجلى . على أن ذلك لم يسمح لي أن أستعلي على ما عندي وقد قدرت أنها ، وهى تريد عني في السن خمس سنين أو ستاً ، يجب أن يكون لها هي كل الجرأة . وقلت في نفسي إن سكوتها عن استفزاز إقدامي دليل عدم رغبتها فيه . ولست أدري كيف كان لهذا المنظر الصامت أن ينهى ولاكم من الزمن كنت أبقي حيث كنت لولا أن فوجئت . حين ذلك قالت : قم فترك روزينا . فقامت مسرعاً وأمسكت بيد مدتها إلى وأودعت فوقها قبلتين تققدان أحسست في ثانيتهما أنها كانت تلتصق بشدة يدها على شفتي تلك كانت لحظة ما أبت مثلها رقة في حياتي ، وفرصة أضعتها ولم تعد وبقي حيناً الوليد عندها .

ومن ذلك اليوم جعلت مدام بازيل ترقية في مدارج العمل وتريد بذلك غيرة زميله الذي لم يصبر ، فأبلغ زوجها بعض ما رأى ، فلما كان في بعض الليالي وقد قدمت لأضياف عندها وليمة فاخرة وأجلست روسو وزميلة على مائدة خاصة إذا زوجها يدخل ، وكان أول ما عمل بعد تهادى التحية مع الحاضرين أن سأل عن سبب وجود روسو وأن طرده أشنع الطرد .

ولقد ذكر روسو هذه المسألة في اعترافاته على شكل يدل على قوة ذاكرة في غاية الغرابة فيما يتعلق بالأماكن والحركات قال : « وفي منتصف العشاء سمعنا عربة تقف على الباب وشخصاً يصعد هو المسيو بازيل . وإني لأراه وكأنه داخل في هذه اللحظة وعليه رداء قاتم الحمرة بأزرار من ذهب كرهتها نفسي وكرهت ذلك اللون من يومئذ ، وكان المسيو بازيل طويلاً وسيم الطلعة حسن اللقيا . فدخل بجلبية وعليه مظهر من يدهش قومه . فعانقته زوجته وأمسكت يديه وأبدت له عطفاً استقبله من غير أن يرده وسلم . على الحاضرين وجلس يتناول الطعام ، وما كادوا يفانحونه الحديث عن سياحته حتى حانت منه التفاتة لئلا تلتفت الصغيرة

وسأل بلهجة شديدة عن ذلك الشاب الصغير الجالس إليها . هذا مع أن روسو لم ير المسيو بازيل إلا في ذلك اليوم ولم يره بعدها .

وخرج من عند مدام بازيل ورجع إلى ما كان فيه من تشرد تعينه دربهات جادت عليه هي بها . ثم رجع إلى الوكر الذي كان قد نزل فيه يدفع عن الليلة ثلاثة صليديات وظل فيه حتى دلته صاحبه على الخدمة عند الكونتس دي فرسليس . وكانت هذه سيدة عاقلة مفكرة متعلمة محبة للأدب ولكنها مريضة لا تستطيع الكتابة بيدها . فأنذرت روسو لتعلم عليه ما شاءت من خطابات الرقيقة البديعة . فخشى سائر الخدم ما سيكون من نتيجة هذا المركز الجديد في إعلاء شأن زميلهم وسعوا حتى جعلوا الطبيب ينصح للكونتس بالعدول عن التفكير والكتابة . وبذلك أصبح روسو عندها نسياً منسياً .

« ولم تسمعني مدام فرسليس يوماً كلمة حنان أو عطف أو رحمة ، بل كانت تسألني ببرود فأجيبها بتحفظ . وكانت إجاباتي لها مملوءة حياء حتى عدتها وضيفة وأنفتها ولم تسألني بعد ذلك عن شيء ولم تخاطبني إلا بما يخص خدمتي ، وأصبح تقديرها لي لا بما أستحق ولكن على نسبة المركز الذي وضعتني فيه فلم تعتبرني إلا خادماً ومنعتني أن أكون شيئاً آخر . . . ومن ذلك اليوم تولدت عندي الكراهية لنظام ينتج هذه المناصب

وتوفيت مدام فرسليس وروسو في خدمة بيتها . وبالرغم من أنها أوصت لخدمها فلم تترك له هو شيئاً . فأعطاه ابن أختها الكونت دلارك ثلاثين ديناراً وترك له الملابس التي عليه والتي أراد رئيس الخدم أن يترعها منه .

وفيما هم في جلبية الوفاة وما يعقبا فقدت مدموازيل بونتال ابنة ربة البيت شريطاً من شرائط الرأس وردى اللون ببعض الفضة وبالبحث عنه وجد عند جان جاك : « ولقد كانت أشياء كثيرة أغلى سعراً من هذا الشريط تحت يدي . لكنه وحده الذي استغواني فسرقت . فلما سثلت من أين أخذته اختلط على الأمر وتأنات ثم قلت في خجل إن (ماريون) هي التي أعطتني إياه » وماريون هذه هي طاهية مدام فرسليس . وكانت ذات جمال ونضرة لون ورقة ولطف لا مثيل لها « ونودي بها إلى جمعية كان من بين من حضرها الكونت دلارك وأظهر لها الشريط وسثلت عنه فاتهمتها بتبجح فبهتت وصممت ثم أرسلت إلى نظرة كانت كافية

وكلما ازدادت إجراماً ازدادت تمنعاً عن الاعتراف بالجريمة خشية ظهوري أمام الناس كسارق سيّاب كاذب .

وإن الإنسان ليحس في هذا التبرير من رُسو لعمله بمعارضته قيمة هذا العمل بحقيقة مقصده . ولكأنه يريد أن يقول إن عملي ليس نكراً لأن طبيعتي تأتي الشر وتنتي كل سوء قصد .

وخرج من بيت فرسليس ورجع إلى منزله الخفير فأقام به أسابيع عدة دفعته فيها البطالة ليفكر في الشهوات فجعل يتجول في أنحاء تورين رجاء الوقوع على ما يمتعه . بل لقد بلغ من تحكمها فيه أن دفعته إلى شبه جنون كان يذهب معه إلى أماكن قسوة ينتظر فيها مرور النسوة فيحملق فيهن وبأني أمامهن أفعالا منكراً . واسترسل في ذلك وجعل يذهب إلى عين ماء يتردد إليها الفتيات ليستقين ويأخذن الماء منها . ووجد عندها كهفاً يتدرك إليه سلم اتخذ درءاً يلجأ إليه إذا أصابته داهية من هاتيك الفتيات وما كان يحسب أن سيصيبه أضعاف ما يتوقع . ففيما هو يغازل إحداهن على طريقته الجنونية صاحت في وجهه فهروا إلى ملجئه فتبعه رجل معه سيف وتبعه العجائز يتأبطن أيدي المكناس . ولا أدركوه توسل إلى الرجل وادعى أنه لأمين أسرة كبيرة وأنه فر من أهله الذين أرادوا حبسه لجنة قامت به . فتركه الرجل وأنجاه من العجائز ومكانسهن .

وكان من أثر هذه الحادثة أن ردت إليه بعض هدوئه وعقله فاستعاد في ذاكرته من عرف أيام كان في خدمة مدام دي فرسليس وجعل يتردد على أحدهم ، وهو قس من السافوا اسمه (جيم) ، وكان رجلاً متعقلاً بصيراً . فشرح لجان جاك مسائل كثيرة مما يتعلق بالعقيدة ، وعرض عليه كذلك نظريات عدة كان أعلقها بذهنه أن لو استطاع كل أن يقرأ ما في قلوب الآخرين لكان طلاب الهبوط أكثر من طلاب الرفعة .

وفي هذه الأثناء طلبه الكونت ديلارك وعرض عليه أن يخدم في بيت الكونت (جوفون) فقبل ذلك وإن ساءه في نفسه أن يكون دائماً خادماً . ودخل عند الكونت فأحسن استقباله وقدمه لابنه ولزوجة ابنة فسر من ذلك الابتداء وحسب أن سيكون عما قريب أرقى مما دخل . وأظهر لذلك اهتماماً فائقاً في عمله وبقي بمنزل (الجوفون) مكرماً محبوباً لا يعهد إليه من أمور الخدم إلا خدمة المائدة .

لتصعق الشياطين . لكن قلبي القاسي تحجر . ففتت عن نفسها التهمة بثبات ولكن من غير قوة وطلبت إلى أن أراجع نفسي فلا أدنس فتاة بريئة لم ترتكب في حياتها نكراً . لكنني ثبت على إنكاري بتبجح جهنمي وأعدت أنها هي التي أعطتني الشرط . فبكت الفتاة المسكينة واقتصررت أن وجهت إلى هذه الكلمات : (إيه رُسو . لقد اعتقدتلك ذا خلق حسن . وهأنذا تغدو بي إلى التعس وما أود وأيم الله أن أكون مكانك .

ودافعت المسكينة عن نفسها ولكن ثبت رُسو على كذبه بقحة وقوة أدخل الشك إلى نفس الكونت ديلارك أي الاثنين جنى . فطردهما جميعاً .

«وإني أجهل ما آل إليه أمر فريسة سبني ولكن لا شيء يدل على أنها وجدت بعد ذلك مكاناً يخدم فيه . فقد حملت وصمة قاسية أساءت لشرفها من كل الوجوه . وإذا لم تكن هاته السرقة إلا سرقة بسيطة نهى على كل حال سرقة ، وسرقة أيتها لتستغوى بها شاباً ! ومن يدري أين ذهب بها وهي في تلك السن خذلان الطهر المهان .

هذه هي الجريمة التي أقلقت نفس رُسو طول حياته والتي لم يفض بها لإنسان إلا بعد أن نشرتها اعترافاته عقب موته . وهذه هي الجريمة التي دفعه إليها خياله المتوقد وحساسيته الشديدة وغروره الكبير . هاته الصفات التي امتاز بها والتي دفعته في أحيان كثيرة إلى عمل الخير . وإنك لتقرأ تبريره لنفسه عن هاته الجريمة فتحس بهذه الصفات متجلية واضحة :

«على أن حب الشر لم يكن أبعد مني يوماً كما كان في تلك اللحظة القاسية . وغريب أن تكون صداقتي لهاته الفتاة النعمة هي التي دفعني لاتهامي إياها حيث كانت حاضرة لذمني فدفعت التهمة عن نفسي بأن ألقيتها على أول من عرض نفسه واتهمتها بأنها عملت ما أردت أن أعمله وبأنها أعطتني الشرط لأنني كنت أقصد إعطائه إياها . فلما رأيته بعد ذلك تمزق قلبي . لكن وجود ذلك الجمع منع على سبيل التوبة . وما كان ذلك مني خشية العقاب وإنما خشية الخجل . خشية أكثر من الموت ومن الإجمام ومن كل شيء في العالم . ولقد كنت أود لو ابتلعتني الأرض . ولكن الخجل تغلب على كل شيء ودفعني إلى التراجع .

وما أسرع ما تعلق خياله بآبنة البيت مدموازل (دبريل) كعادته في الإسراع في الحب ، وكعادته لم يلق معها أى نجاح .

وبعد زمن ابتدأت كفاياته تظهر فيه ، أراد رجال الدار إعداده ليتبعهم في مراكز سياسية خطيرة واتخذ ابن الكونت جوفون سكرتيراً وخادماً وجعل يعلمه اللاتينية وأنقن معه الطليانية . لكن هذا الشاب كان وكأنه محكوم عليه أن يقضى شيبته بل حياته منشرداً . فإنه بعد أن نال الخطوة في القصر وبعد أن وجد من يتفقه له عقله ومن يرتب له المعلومات المشتتة التي كان حصلها من قراءاته ويزيد له فيها ويكملها صادف صديقاً له قديماً من أهل جنيف ، شاباً من سنه يدعى باكل . وما أسرع ما ازدادت الألفة بينهما وبلغت حد التعلق وأصبحا لا يفترقان . فيجىء « باكل » عند روسو كل يوم في القصر ويعطله عن عمله . فلما استحسن أهل القصر ذلك حرّموا على باكل دخوله فجعل روسو يخرج إليه . فلما ابن الكونت جوفون ومن معه فلم يرجع . وأخيراً أعفى من الخدمة وما كان أكثره بذلك سروراً . فقد رتب مع باكل أن يرجع إلى سويسرا راجلاً يقطع الطريق الذي جاء منها ممتعاً بكامل الحرية .

ورجعا معاً يقطعان طريقاً زائنه الطبيعة بأبدع ما أهدف به بقعة في العالم ، فيمتع روسو نفسه من ذلك بكل ما تطلبه حواسه وإحساساته المتوقدة . وبقياً بعرجان كلما جنهما الليل على القرى المنثورة بين الجبال والخضرة فينالان من أهلها حسن الاستقبال وكرم الرقد . وكذلك ظلا حتى إذا وصلا إلى (شمبرى) فكر روسو في التخلص من صديقه لاقترابه من (أنسى) موضع إقامة مدام دى فارتس ، كما ابتدأ يفكر فيما سيكون لعودته عليها من الأثر . فلما استحسن صديقه ذلك منه ووصلا إلى (أنسى) قبله قبله الوداع واقتربا فراق الأبد .

وهنا تنهى الحياة المنثردة المملوءة بالصغائر ويفتح أمام روسو باب جديد من أبواب الحياة . هنا يرجع لتلقطه مدام دى فارتس من تشرده وخدمته فتحفظ به زمناً غير قصير لا يغادرها فيه إلا قليلاً وليتركها عند أخوه فيذهب إلى باريس حيث تنتظره الحياة التي تحمل اسمها .

ترك روسو صديقه عندما وصل إلى أنسى . ودخل البلد وقلبه مشته وباله مشتغل بحسب للقيما من لم تشغله عنها مدام بازيل ولا مدموازيل دبريل ولا فتيات البشر ، والتي لم يفتأ طول مدة غيابه يخاطبها وتكاتبه . فلما رآته ألفت عليه نظرة عطف واشتياق ردت إلى باله الهدوء وإلى قلبه الطمأنينة . وهنا بدأ روسو حياة سعيدة ملأى بالإحساسات الرقيقة المتبادلة .

وتبدلت بينهما محبة بلغت حد الهيام وأعدت هي له في بيئها غرفة مظلة على حدائق وأعقاب تنهى بالمزارع الواسعة ، ولم يكن معها بالمنزل سوى خادم يدعى (آنيه) وخادمة تسمى (مرسريه) كانا يقومان بنظام المنزل وجميع شؤنه . لذلك ، وبالرغم من أن الحياة الجديدة لم يكن فيها من السعة مثلاً كان في الحياة التي مر بها روسو في تورين . وهذا الإحساس المتبادل بينه وبين ربة البيت ، فقد أحس في حياته الجديدة بنعم لم يكن يخطر له من قبل ببال .

وتزايد الحب بينهما حتى صار يشغل بال روسو أيما شغل . على أن ميل مدام دى فارتس له لم يكن ذلك العطف المتبادل بين رجل وامرأة ، بل كان عطف سيدة على شاب يستحق الحنان . ولهذا فلقد كانت تدعوه (صغيرى) ويدعوها (أمى) ولهذا أيضاً لم تمتنع هي عن الاستمرار فيما كانت فيه من قبل من تبادل الصلات الجنسية مع أشخاص غير روسو .

وما كان هو ليفكر في مثل هذه الصلة أول الأمر . بل لقد بقى معها كما كان مع سواها خيالاً عذرياً ذاهباً بتصوراته في سحب الآمال والمنى . يرى في كل ما أحاط بها موضع سعادة ويرى في قربها نعمة وهناءة .

وإلى القارئ صحيفة من اعترافاته غاية في الإبداع عن ذلك الوقت من أيام حياته :

« يموت الهوى متى إذا ما لقيتها

وبحيا إذا فارقتها فيعود

« وكثيراً ما دفعني حاجة القرى منها إلى مواقف حنان تسند مدامى .
وإني لأذكر دائماً يوم عيد ذهب فيه لأداء صلوات الصبح وخرجت أنا
لأنتره بعيداً عن المدينة مملوء القلب من صورتها ومن الأمل القوي في قضاء
أيامى . على أن تعذر ذلك يومئذ كان واضحاً أمامى وكنت شاعراً تمام الشعور
أن سعادة ذلك مبلغ متاعى بها هي لا بد قصيرة المدى . ولقد أرسل هذا الإحساس
إلى أحلامى شيئاً من الحزن وإن لم يبلغ ذلك الحزن الكآبة ولا هو حرم من أمل
يخفف وقعه . واستثارت عندى دقات الأجراس وأغاريد الطير وجمال النهار
ورقة المنظر والمنازل المشتتة بين الأشجار حيث نجلت مستقرى وإياها ، هزة
رقيقة حية حزينة مؤثرة تصورتها نقلتني إلى ذلك المستقر البديع في تلك الأوقات
السعيدة يتذوقها قلبي على ما يجب من غير تفكير في الشهوات ما دام قد حصل
من الهناء على كل ما يريد » .

وكذلك راجع روسو السلام والسكينة بعد إذ فارقه طويلاً ورجع إلى
الاستقرار والهدوء بعد أن قضى زمناً متشرداً أو في مراكز وضيفة وجعل يقرأ من
جديد مائلاً بالقراءة كل أوقات فراغه مستعيناً في قراءته بصاحبه التي قرأت كثيراً
والتي كانت بذلك ذات عقل وحسن اختيار .

وفيما هو يتذوق هذه السعادة زار مدام ديفارانس ذو قرابة لها هو المسيو
(دوبون) وكان رجلاً راجح العقل كثير العمل فقامت بإيجاد التعارف بينه
وبين روسو وسألته عما يصلح جان جاك له فبعد إذ رآه وكلمه ووقف على ما تبين
له منه ، حكم بأنه لا يصلح لشيء ، فهو ضيق العقل أكثر ما يمكن أن يصل إليه
مع التساهل في الحكم أن يكون قساً في قرية .

ولم يكن المسيو دوبون وحده هو الذى حكم على روسو هذا الحكم بل لقد
وجهه إليه كثير غيره . وإنا ننقل للقارئ تفسير روسو لهذه المسألة وسيرى منها مركز
جان جاك العقلي وقوته التصورية وما كان من أثرهما على حياته بعد ذلك ككاتب
ومفكر . قال :

« يجتمع في شيثان متضادان أو يكادان لا أستطيع أن أتصور اجتماعهما .
إحساس شديد وعواطف قوية وشهوات متحركة يقابلها أفكار بطيئة التبين لا تظهر
إلا بعد زمن فكأنما في قلب رجل وعقل رجل آخر . فأما العواطف فتسرع إلى

كالبرق تملأ كل نفسى ثم لا تضى شيئاً أمامى بل تغشاني وتركنى محسباً بكل
شيء ، غير مبصر شيئاً ، ثم أبقي متبلاً يعوزنى الهدوء المطلق كما أفكر .

« وهذا البطء في التفكير والتوقد في الإحساس يلانينى في وحدنى وعلى
كما يلانينى في محادثائى واجتماعائى . فلا تترتب الأفكار في ذهنى إلا بأقصى
الصعوبة فهى تدور فيه أولاً ثم تتقارب حتى تستغنى وتستدعى اهتزازات عصبية
عندى . وفي هذه الأثناء لا أبصر شيئاً ولا أستطيع أن أكذب كلمة واحدة .
بل يجب أن أتربث وأنتظر حتى تهدأ هذه الحركة في معنى ويأخذ كل شيء
فيه مكانه ببطء وبعد لأى شديد » .

وكان روسو لهذه الصفة عنده لا يحسن الكلام في أى مجتمع يوجد فيه .
ولا شك في أن ذلك من الأشياء التي جعلته مؤثراً للوحدة مبغضاً للاجتماع مجباً
للحياة وسط الطبيعة الصامتة كما أن توقد إحساسه كان يسمح له بالتمتع بجمال
الطبيعة أكبر متاع .

ولكأنما صادقت مدام ديفارانس على رأى مسيو دوبون قرأت أن يتعلم
روسو ليكون قساً في مستقبله . وأرسلت به إلى دير في البلد تحت حماية راهب
اسمه المسيو (جرو) طيب القلب حسن العشرة فأسلمه هذا الراهب إلى قسيس
غليظ القلب سمح الطبع يعلمه ، فسم روسو هذا المعلم . حينذاك نقله حاميه
تحت إمرة معلم آخر هو المسيو (جاتيه) وكان شاباً رزيناً عاقلاً ودوداً . فعنى
بروسو خير عناية وجعل يدرس له قدر جهده . على أن ذلك لم ينتج كثيراً
وصدقت نبوءة (دوبون) وحكم بأن روسو لا يصلح للبس رداء الرهبنة .

على أن صداقة المسيو (جاتيه) له أفادته في معلوماته ، كما أفادته من
قبل ذلك محادثاته مع المسيو (جيم) . وكان لهما من الأثر في حياته بعد ذلك
أن اتخذاً مثلاً لبطله في (الاعتراف بالإيمان لقس من السافوا) . وكان معه حين
مقامه بالدير كتاب موسيقى أخذ معه يوم ذهابه إليه واجتهد أن يستمر ليتعلم
فيه ما كانت مدام ديفارانس قد بدأت تعلمه إياه . فلم يتقدم إلا قليلاً برغم إدمانه
قراءته . فلما خرج من الدير ورأت (أمه) هذا الميل عنده عهدهت به لرئيس
موسيقى كندراتية البلد المدعو مسيو (لمتر) . ومع أنه بقى زمناً معه ، فلم يستند
فائدة تذكر وكأنما لم يقدر له أن يتعلم على معلم طول حياته .

وبينما كان في صحبة المسيو لمر وصل إلى (أنسى) شاب سمى (فتنور) ادعى معرفة الموسيقى وأظهر عند التجربة كفاية ممدوحة. وما أسرع ما تعلق ريسو - عندما رآه - تعلق به تعلقه (بباكل) وبغيره من قبل. وكان فتنور متعلداً ذكياً له في المجون. وازداد تعلقه به حتى أخذ معه يوماً إلى مدام دافرانس فلما رآته وحادثها رآته شخصاً فاسداً فحزمت على ريسو أن ينجي به لمرزاة مرة أخرى ونصحت إليه ألا يصاحبه.

وفي هذه الأثناء قام سوء تفاهم بين مسيو (لمر) ورؤساء الكتلثائية أساسه ما في نفوس هؤلاء الرؤساء من الكبرياء والعظمة واعتبارهم من ليس من رجال الدين في مركز ضعة إلى جانبهم. فصمم (لمر) على الحرب حتى يتركهم في حيص بيص خصوصاً وقد كان عيد الفصح مقرباً يومئذ. وفاتح مدام دافرانس عزمه ولما يشت من إمكان صده عنه رأت أن تعينه بمن ينقل معه متاعه فعهدت لريسو بهذه المهمة وخرج مع أستاذه ليليل، واجتازوا سويسرا إلى فرنسا حيث كان (لمر) ذاهباً إلى باريس بلده وسقط رأسه. فلما وصلا إلى ليون عاودت (لمر) نوبة عصبية من الثوبات التي تعاوده لإدمانه شرب الخمر لكنها عاودته هذه المرة بقوة فأرغى فيه واحمرت عيناه وسقط إلى الأرض لا يعي. فصاح ريسو حتى إذا اجتمع الناس لم يكن منه إلا أن تركهم وترك صاحبه وعرج لا يلوى على شيء قاصداً تركه وشأنه.

وهذه هي الجريمة الثانية بعد جريمة اتهام (ماريون) كذباً بسرقة شريط الرأس وإن تكن أقل منها شناعة وفظاعة. على أنها استدعت من ريسو أسفاً واستلزمت منه استدامة التوبة عنها. وإنها في ذاتها، مضافة إلى هذه المييل الغريبة التي سبق مرورها بالقارئ لتدل على حساسية مريضة وعقل غير منتظم. والعجيب أن هذه الميول وتلك الحساسية لزم ريسو طول حياته وكانت سبب عظمته ومصدر فلسفته.

وما لبث أن ترك مسيو لمر حتى فكر في الرجوع إلى (أنسى) واتخذ طريقه تَوَّالِها، فلما بلغها وذهب إلى المنزل لم يجد مدام دافرانس وعلم أنها سافرت إلى باريس المهمة لم يتح له أن يقف عليها. فهمه ذلك واستثار شجنه وزاد من أسفه لتركه مسيو (لمر) على نحو ما فعل. غير أنه لم يبق على ذلك طويلاً وسرعان ما رجع

فبحث عن صديقه فتتور الذي أسس لقاءه وقبل أن يبق جان جاك مقبلاً معه. وجعلاً يقضيان معظم النهار مفترقين: فتتور في جمعيات (أنسى) ومع سيداتها اللاتي بدان يتعشقه وريسو في جولاته وسط الطبيعة وأحلامه التي لا تنتهى. في هذه الأيام عرف مدموازل جالى ومدموازل جرافريد. وإلى لأحبس قلبي لأن لأترك ريسو بقص على القارئ ملقاه بهما وتوطيد معرفته إياهما في الحكاية الآتية التي بلغت أقصى حدود الإبداع في الكتابة فلا يكاد يوجد فرنسي لا يعرفها قل:

«تبدى لي الفجر يوماً بديع الجمال فارتدبت ملابسي على عجل وخرجت مسرعاً أريد المزارع لأرى مطلع الشمس. فذقت تلك اللذة في كل بهائها: لبست الأرض زخرفها وازينت بالزهر والعشب وزادتها اللياليل زخرفاً وهجة. والطير كلها تنادى تودع الخريف وتحجى مولد يوم صيف جميل. يوم من تلك الأيام البديعة التي لا يراها الإنسان في سنى والتي لم تر أبدأ في هذه الأرض المكتشفة التي سكنها اليوم.

«وابتعدت عن المدينة على غير شعور مني وتزايد الحر فالتجأت إلى ظل أشجار تحيط غديراً. ثم سمعت وقع حوافر خيل فأصوات بنات تبين عليهن الحيرة وإن لم يمنعهن ذلك من الضحك عن قلب طيب. فالتفت فنادينني باسمي فاقتربت فإذا بي أرى طفلتين من معارفهما مدموازل جرافريد ومدموازيل جالى وكانتا لم تستطعا إكراه جواديهما على عبور الغدير لقلة دربتهما في الركوب.

«وكانت مدموازل جرافريد طفلة من (برن) غاية في الرقة دفعها جنون سنّها فتركت بلدها وأقامت مع مدموازل جالى التي أخذت على أمها عهداً أن تبقى معها هذه الصديقة الرقيقة حتى تستقر على حال.

«أما مدموازيل جالى فكانت أصغر من صاحبها سنّاً وأكثر جمالاً ويشوب هذا الجمال إبداع ودقة. وكانت صغيرة الحجم تامة التكوين في وقت معاً. أى في أجمل اللحظات التي تمر بها كل فتاة. وكان بينهما جميعاً حب حلو ضمن حسن علاقتهما بقاءه ما لم يعكر صفوه محب متعشق.

«وكانتا ذاهبتين إلى تون Thones حيث يقوم قصر قديم مملوك لمدموازل جالى. فاستعاننا في كي استعدى الخيل الغدير لعدم استطاعتهما ذلك وحدهما.

فأردت أن أخب الخيل بالسوط لكنهما خافتا على الرفس وعلى أنفسهما السقوط . فلجأت إلى وسيلة أخرى فأمسكت بلبجام حصان مدموازل جالى وشددته ورائي وحضت الغدير حتى بلغ الماء منتصف ساقى . وتبعنا الحصان الآخر من غير مشقة . فلما فرغنا من ذلك أردت أن أحبيهما وأذهب . فتسارنا ثم وجهت مدموازل جرافريد الكلام إلى قائلة : كلا كلا لن نفلت منا هكذا . لقد ابتلت في خدمتنا فيجب عدلا أن نأخذ على مسؤوليتنا إعادتك إلى سابق حالك . يجب يا صاح أن نحجى معنا . إنا نستوقفك سجيناً ، فذق قلبى وحولت نظرتى إلى مدموازل جالى فأضافت ضاحكة مما أنا فيه من الاختلاط : نعم نعم أسير حرب ! امط الجواد وراءها فإننا مسئولتان عنك « فقلت : لكن يا آنسة لم أنتشر من قبل بمعرفة السيدة والدتك فماذا عساها تقول حين تترانى : فأجابت عنها مدموازل جرافريد : أمها ليست في تون ونحن وحدنا وسنرجع الليلة ورجع معنا .

« ليست الكهربية أسرع أثراً من هذه الكلمات على نفسى . وقد اهتر قلبى سروراً ساعة امتطيت جواد مدموازل جرافريد . وطوقها بذراعى فازداد قلبى اهتزازاً حتى شجرت هى به . ولقد أخبرتنى أن قلبها هى الأخرى بهتر خيفة أن تقع .

« ودفعنى السرور بالترفة وحديث الطفلتين لأتحدث أنا كذلك . ولقد قضينا حتى المساء لا نسكت لحظة . وأمتعنا بالطمأنينة فبقى لسانى يتكلم بمقدار ما تنطق عينائى وإن لم يقل ما إليه ترميان .

« ولا وصلنا إلى تون وزال ما بردائى من بلل طعمنا غداءنا ثم قمنا لتحضير أمر العشاء . . وتعشينا وجلسنا بينهما فأى عشاء . ألا ما ألد ذكره .

ومضى اليوم وقد لعبنا به على ما شئنا وبكل وقار . فلم تصدر كلمة مبهمه ولا عبارة سيئة .

واقترقا على موعد بينهم . ولكن ما أقل ما تصدق مثل هذه المواعيد . فرجع جان جاك إلى حياته مع فتور يقضى النهار هائماً يتمتع بالطبيعة وجمالها ويسوؤب الليل إلى بيت صاحبه يقضيه سعيداً مرتاح الفكر والخاطر .

وطالت غيبة مدام دافرانس ففكرت خادمتها (موسريه) فى الرجوع إلى بلدها (فريبور) وسألت جان جاك أن يصحبها . وذهبا جميعاً ومرا فى

طريقهما (بنين) حيث أبوه فخرج عليه وترك عنده بعض متاعه وودعه وذهب مع الخادمة حتى دار أهلها . وبعد يومين أقامهما عندها تركها إلى لوزان ووصلها خالى الجيب لا يملك فلساً فأكل ونام عند رجل أنف أن يأخذ منه فى الصباح رهنأ عما استحق عليه .

لكن تسول شاب قوى حال لا يمكن أن تدوم . فذهب إلى نزل وادعى عند صاحبه أنه مغن ماهر وأن فقرأ بقعد به عن كل شيء . ولقد مر بالقارئ أنه أخفق فى تعلم الموسيقى وفى الغناء . لكنه لم يجد غيرها مرتزقاً . ووعده صاحب النزل خيراً ونشر عنه ورتب معه ليلة طرب ليغنى فيها وحصل له على بعض تلاميذ (كانوا بلداء بمقدار ما كان جاهلاً) . ولا ذهب إلى هذه الليلة وغنى لم يكن من السامعين إلا كل ساخط عليه مشتمر منه . وأورثته الخيبة ألماً وحزناً لم يكن له عنهما من عزاء إلا بعض مكاتبات كانت ترد إليه من صاحبتيه جالى وجرافريد فتحمل إليه ريحهما وتعزيه بعض الشيء عن همه .

سرف هذا الفشل عنه تلاميذه وهدهد بفقر أكثر من عدمه الأول . فعول على ترك لوزان وعلى أن يمر ببلد مدام دافرانس ، وتوجه إلى (فيثى) يتمتع الناظر منها بذلك الجمال الساحر الذى تمتاز به . وأقام بها يومين أحبا فيهما حباً استرجعه إليها مرات فى حياته وجعله يتخذ منها فيما بعد مقر أبطال روايته الكبرى (هلويز الجديدة) .

وأخيراً ساقه طالعه وألقت به عصا التسيار إلى نوشاتل ، وهو يدعى دائماً أنه موسيقى ماهر . لكنه كان يعلم علم اليقين أن الفشل ينتظره لا محالة . لذلك ما لبث أن رأى قسيساً إيطالياً لا يتكلم الفرنسية حتى تقرب منه واتصل به كمرجم . وكان القسيس داعياً يطوف أنحاء أوروبا يجمع الصدقات من كبار رجال الحكومات ليردها على بيت المقدس . ولقد سر روسو أكبر السرور أن علم أنه يرمى من هذه السياحات المترامية ليصل أخيراً إلى مهبط الوحى ومسقط رأس السيد المسيح . لكن أحلامه لم تتحقق فإنه بعد أن مر مع القسيس (بفريبور) و(برن) وصلا إلى (سولير) حيث كان المركز (دبنك) قنصلاً لفرنسا . فلما استقبلهما ورأى روسو وعرف منه حقيقة حاله منعه من الاستمرار مع صاحبه وحجزه عنده ولم يعطه الفرصة حتى ولا ليودعه .

وبعد زمن قضاه في بيت القنصل صمم أهل البيت على إرساله لباريس
سكرتيراً لأحد الشبان المشتغلين في الوظائف العسكرية من أقاربهم . وأعطى
ما يلزمه للسفر وراح يقطع الطريق بين بدائع الطبيعة وغرائب أحلامه حتى وصل
باريس وكانت في خياله مدينة بابلونية ليس فيها إلا شوارع فخمة وإلا قصور
من المرمر والذهب . فلما تبذرت له أطرافها وبها منازل صغيرة سوداء تمر من أمامها
ضربات ضيقة قدرة يسير فيها المسؤولون والباعة اضمحلت أحلامه وتلاشت أوهامه
وداخله إحساس اشتمزاز بقي عنده بعد ذلك برغم ما ظهر له من إبداع فيها وجمال .
وأحسن من قدم نفسه إليهم استقباله ، إلا جماعة من كان يريد الخدمة
عندهم ، فاعتراه هم كبير . ولولا أن سيدة اهتمت له وبحثت وإياه عن مدام
دفارانس وعرفت أنها سافرت لكان أسوأ حالاً وأتعس مصيراً . وما كاد يعلم بسفر
(أمه) حتى غادر باريس مسروراً بفراقها ورجع قاصداً السافوا لبحث عنها .
فلما مر بليون قصد بيت مدموازل دشاتليه إحدى صاحبات مدام دفارانس آملاً أن
يقف منها على خبر صديقتها . فعلم أنها غادرت ليون من زمن . لكن مدموازل دشاتليه
لم ترض عليه بالبحث عن محل وجود صاحبها .

كان روسو يومئذ قد وصل من الفقر إلى قراراته : وأبى عليه غروره أن يظهر ذلك
لمضيفته فترك بيتها وانطلق هائماً وسط المدينة يبيت مرة في العراء ويعرض نفسه أخرى
للممبيت بمotel قيس يروده عن نفسه قصد أن يفسق به . وفيما هو سائر يغنى بعد
ليلة قضاهها تحت السماء قابله الميسو زوليشون وعلم منه أنه يفلو على نقل الموسيقى .
فاستخدمه عنده زمناً فلما فرغ من العمل رجع ومعه ما يقيم صلبه وبقي مع مدموازيل
دوشاتليه أياماً يستفيد من ملاحظاتها حتى إذا جاء الخبر أن مدام دفارانس مقيمة في
شميرى ودع مضيفته ومضى .

وصل (شميرى) فوجد أمه مقيمة في بيت أقل فخامة بكثير من بيتها في
(أنسى) . ووجدتها وقد أعدت له غرفة من غرفه . وكان (كلودانيه) لا يزال
متصلاً بـ مدام دفارانس اتصال خدمة واتصال مخاللة ومزولة . فلما علم روسو
بذلك لم يتمتع ولم يتضابق بل تزايد حبه لآنيه وعطفه عليه . قال : « وكذلك
كان من الأدلة على سمو أخلاق هاته المرأة الرقيقة أن يرتبط جميع محبيها برابطة المحبة
فيما بينهم . وأن تخضع الغيرة ويخضع التنافس إلى عاطفة اليد التي توحى هي » .

فهم جميعاً فلا يريد أحد منهم بالآخر شراً . هذا هو حكم روسو وهو حكم ينظر
بعدم اعتداده بالفصائل المقررة .

ووجدت هي له في تعداد الأنفس وقتل وظيفة اشتغل بأدائها ستين تعلم في خلافتها
الحساب والرسم كما انكب في أخريات أيامها على القراءة انكباباً شديداً . ثم
ترك التعداد وانقطع للموسيقى وكان قد بلغ منها بعض المبلغ لكثرة ما زاولها أيام كان
لها معلماً . وكثر لذلك تلاميذه وانقطع لهم وكان من بينهم فتيات غاية في الجمال
ومن بين أمهات هاته الفتيات من افتتن بشكل جان جاك وأردن منه ما لم يكن يفهم
إلى ذلك اليوم من صلات الجنسين . فلما رآته مدام دفارانس على هاوية الوقوع
فيما تدفعه إليه سنة من الشهوات لم يجد إلا طريقاً واحداً ينجيه من هذا الشر . وذلك
بأن تهب له نفسها . وقبل هو هذه الهبة فدنس حبه الطاهر وأصبح شريكاً لكلود آنيه
من غير ضجر ولا ملال .

والمدحش أنه يبرر في اعترافاته عمل مدام دفارانس بقوله إنها إنما كانت تريد
به الخير فيما فعلت . ذلك لأنها لم تكن تهتم بالعلاقة الشهوية أو تغييرها أية
أهمية . فلم يكن في عملها ما يمكن اعتباره خطيئة من جانبها ولا كان في مخاللة من
تسميه ابنها ما يمكن أن يمس أخلاقها . واعتذار روسو عن معشوقته الكريمة على هذه
الطريقة لا يقل عن حكمه السابق دلالة وبياناً .

وبعد زمن قضاه شريكاً لكلود آنيه في مضاجعة مدام دفارانس توفي كلود
مأسوفاً عليه منهما جميعاً وأصبح روسو سيد البيت والمكلف بتصرف أموره . وإنه
ليعزو ما عرف عنه من بخل طول حياته إلى ذلك الوقت حين اضطره النظر في شؤون
(أمه) للتدبير والحذر . وأصبح مركزه كرفيق لـ مدام دفارانس معقولاً بعض الشيء مهتماً
ناله من اللوم .

ولطول ما اشتغل بالموسيقى راق له أن يؤلف فيها . لكنه لم يكن من العلم بها
بحيث يستطيع الوصول لذلك وحده . ولم يجد في شميرى ولا ما جاورها من يعلمه
إياها . فذكر أن صديقه فتور تعلم على أستاذ في (بزانسون) اسمه (بلانشار)
فصمم على الذهاب إليه . ولم تقف مدام دفارانس دون إرادته بل ساعدته عليها
وأعدت له عدته . فلما مر في طريقه (بنين) عهد إلى أبيه أن يرسل له متاعه .
لكن متاعه صودر على حديد فرنسا بحجة أن عمال الجمرك وجدوا بين أوتار

ورقة فيها ما يظن على الكثرة ونشروا نشرها في البلاد فاضطر روسو بعد مقابلته المسبوق لانتشار أن يرجع على عقبه إلى شميرى ولم يكسب من سفرته شيئاً . . . أقام في شميرى يتمتع وحده برفيقته ويعلم الموسيقى ممناً بالسكون الأعم والراحة الكاملة . وأتيح له يومئذ تلميذ شغف به هو المسبوق (دكونزيه) . وكان شاباً ذكياً متعلماً مطلعاً ولا يأخذ ميله للموسيقى الكثير من وقت جان جاك . بل كان يقضى معظم حصته في الحديث عما ظهر من الكتب وبالأخص من كتب الأدب . ولقد قرأ مع روسو أكثر خطابات فولتير مع فردنان البرنس البروسي . وكان سبباً في تعلقه بقراءة ما يظهر من كتب الأدب . فلما ظهرت (خطابات فولتير الفلسفية) جاء عليها وتعلق بها أى تعلق .

وبينا هو في متاعه فاجأته حادثة كانت مقدمة لحادثة أخرى زادت إلى سابق أمراضه . ذلك أنه كان يوماً يحضر دواء في زجاجة فأصاب عينيه بعض ما فيها فاعتل بهما ستة أسابيع كان لا يبصر في أثنائها شيئاً . وما كاد يشفى من هذا المرض حتى أصابه مرض آخر ألزمه الفراش وأتى على قواه . فعنت به مدام دافرانس خير عناية . لكنه بقى بعد إذ أبلى من مرضه زمناً طويلاً في دور النقاهة . هنالك رأى أن البقاء بين جدران شميرى لا يمكن أن يلائم صحته أو يوافق مزاجه فطلب إلى صاحبه الخروج معه إلى الريف . وبعد تردد عزم على الذهاب إلى (الشارمت) على مقربة من شميرى مع إبقاء منزلهما في هذا البلد . وقضى جان جاك في (الشارمت) أسعد أيام حياته . وإلى القارئ كلمة من اعترافاته في وصف ذلك الزمن من عمره قال :

« هنا ابتدئ الزمن القصير السعيد من أزمنة حياتي . هنا تجيء البرهات السريعة الهادئة التي تجعلني أقول إنني حييت . إيه أينها اللحظات الثمينة المأسوف عليها . ارجعي فاسترجعي مسراك الهني . انسابي في ذاكرتي إن استطعت أكثر بطلاً مما كنت في سرعة مرك . ما عساي أعمل لأطيل كما أريد هذه الذكرى البسيطة المؤثرة ولأقول وأعيد الأشياء نفسها . ولا يمل قارئ بإعادتها كما لا أمل أنا باستعادة ذكراها ؟ ولو أن ما كان يومئذ كونه الوقائع والأعمال والكلمات لاستطعت وصفه وتبنيانه . ولكن ماذا أذكر عن شيء لم يقل ولم يعمل بل ولم يأخذ أى مكان من الفكر ولكنه ذيق بل أحس وليس عندي ما استظهر به قيمة سعادتي غير ذلك

الإحساس نفسه ؟ كنت أستيقظ مع الشمس وكنت سعيداً . كنت أنتزه وكنت سعيداً . كنت أرى أمي وكنت سعيداً . وكنت أتركها وكنت سعيداً . كنت أقطع الغابات والأحراش وكنت أجوب الأودية وكنت أقرأ وأسكت وأشتغل في الحديقة وأجمع الفاكهة والسعادة تبغني حيث كنت ولا نستطيع تركي لحظة لأنها لم تكن في شيء معين بل كانت مترجمة بنفسى وروحي . »

على أن انغماسه في السعادة لم يقطع على المرض طريق سريانه ولم يعد إلى المريض صحته . بل لقد تزايدت آثاره بما زاد روسو يأساً من الحياة وطلباً للموت . ومن بعض هذه الأمراض ما لا أستطيع وصفه بأبلغ من كلمات روسو نفسه . وما هي ذى :

« بينا أنا ذات يوم ، ولم أكن أسوأ حالاً مني عادة ، بينا أنا أرتب منضدة إذاني أحسست بثوران في جسمي أشبه شيء بعاصفة هاجت دمي وامتدت منه في لمح البصر إلى كل أعضائي . وابتدأت شرابيني تدق بقوة لم أقف عند الإحساس بها بل كنت أسمعها ، وصحب ذلك دوى في آذاني تنوع إلى ثلاثة أو أربعة أنواع . فصرير قوى أصم . وخرير أكثر وضوحاً كأنه خرير الماء الجاري . وصغير حاد . وذلك الدق الذي سبقت الإشارة إليه . وتبينت أمامي الدقات من غير حاجة مني لأحس أعصابي أو ألمس جسمي يدي . ومنع على ذلك الدوى الداخلي الشديد ما كان عندي قبل يومئذ من دقة الأذن وجعلني وإن لم أكن أصم قليل السمع ، كما بقيت من ذلك الحين . »

وأعقب ذلك عند روسو قلقاً وأرقاً . وأصبحت الحياة عنده محلاً لليأس كما أصبح انتظار الموت من بعض آماله .

جاء الشتاء واضطر روسو للرجوع من الشارمت حيث الطبيعة البكر والمناظر البديعة التي امتازت بها السافوا ودخل كنه في (شميرى) ووثق علاقته بالدكتور (سالومون) الذي أصبح طبيب البيت . وكان الدكتور سالمون رزيناً مطلعاً فصرف روسو معظم وقته في الاستفادة من علمه ، كما أنه استمر دائماً على القراءة والبحث . وفي هذه المرة جعل بحثه علمياً مرتباً مبنياً تؤدي إلى الإلمام بالعلم والإحاطة بما تعلق به . وكان له في مطالعته البلد الذي يعيش فيه ، كما أنها كانت تنسيه بعض ما هو فيه مر

فلما انتهى الشتاء ورجعوا إلى الشارم عمل على إضافة بعض أعمال يدوية إلى قراءاته . غير أنه لما اشتغل في الحقل أحس بضعفه المطلق عن القيام بأعماله التي أربت على قواه والتي كانت تورثه الخفقان والدوار . فاشتغل بتربية الحمام وجعل يملأ به من فراغ وقته مالم تشغله المطالعة .

وأصبح يعيش إلى حد ما عيشاً مرتباً منتظماً : « فكنت أستيقظ كل يوم قبل مطلع الشمس وأصعد إلى أعقاب تجاورنا ينساب بينها طريق جميل تحيط به الكروم حتى يصل إلى شمبى . وهناك في نزهى كنت أقيم صلواتى . ولم تكن هاته الصلوات مجرد كلمات تنطق بها الشفاه بل كانت صعوداً مخلصاً بقلبي إلى مبدع هاته الطبيعة الحلوة التي تمتد أمام ناظرى . وما أردت يوماً أن أصلى لله في غرفتي إذ كان يحيل إلى أن الجدران ونحوها من الأشياء الضئيلة التي صنعها يد الإنسان تحول بيني وبين الله . وإنما وددت دائماً أن أشاهد صنعه في حين يرتفع قلبي إليه . وكانت صلواتى طاهرة وتستحق لذلك إن صح القول أن تجاب . . على أن عبادتي إنما كانت مشاهدة وإعجاباً لا طلباً . . ثم أرجع من نزهى من أطول الطرق تشغلني مناجاة ما يحيط بي ويسحرني من مناظر الحقول بلدة وشوبة . هاته المناظر التي تسترعى وحدها القلب والعين فلا يكلاّن أبداً عن مشاهدتها . »

فإذا رجع جلس إلى (أمه) يحادثها وتحادثه ثم يتركها إلى كتبه حتى تحين الظهيرة ويحجى موعد الغداء . . ويقضى بعد الظهر في زيارة طيوره ومحادثه أصحابه وقراءة كتبه .

وكان يومئذ قد بلغ رشده ففكر في المطالبة بميراثه عن أمه وذهب إلى جنيف لهذه الغاية . وأسعده الحظ فلم يلق في سبيله العراقيل التي لا تفتأ تقوم كلما طرحت مسألة أمام القضاء . واقتسم ذلك الميراث الضئيل مع أبيه وأخذ نصيبه وتصرف فيه واشترى بقسم من ثمنه كتاباً ثم حمل الباقي إلى مدام دافارانس . ورجع إلى العيش معها وبين رياضاته ومطالعاته .

وفما كان يدرس كتب الطب دخل إلى نفسه الاعتقاد أنه مصاب بمرض في القلب هو أصل كل نواه . فعزم على علاج نفسه من ذلك المرض . لكن أصابه بلاؤه لم يكونوا بحيث يصلون إلى معرفة دوائه . فذكر أن (كلود آنيه)

كان قد أخبرهم بعد رجوعه من سفره إلى مونبلييه أن الدكتور « فيز » يدعى مريض القلب بدقة ومهارة . هنالك صمم على الذهاب إليه . ولم يقف دون تصميمه أى حائل لأن ما حمل من ميراث أمه - ضمن نفقات سفره . كما أن إرادة مدام دافارانس لم تكن لتقف دون سفر غايته أن يعود سليماً معافى .

وأعد أهله للسفر وسفر حتى إذا بلغ جنريل تقابل مع عروس مسافرة مع حاشيتها وصحبها سيدة تدعى مدام (دلارناج) . واستمر في الطريق الذي فيه يسرون من غير أن يكون بينه وبينهم أى تعارف . لكن السفر من شأنه أن يخلق المعرفة . فجعلت السيدتان تسألان كل صباح عن صحة هذا المسافر معهما بل لقد سألتاه أحياناً كيف قضى ليله .

ومن غرائب جان جاك التي لا تنتهى أنه لما سئل عن اسمه وبلده ادعى أنه إنجليزى ذاهب للتداوى بمونبلييه . فكأنه برغم تقدمه في العلم والسن وبرغم حسن الحال الذي كان فيه لم تزل تعاوده نزوات الكذب التي اعتاد صغيراً .

وتركته العروس وحاشيتها عند رومان وتركته معه مدام دلارناج . فلم يمض زمن حتى وقع حبه من قلبها أى موقع . وقع منها بحيث لم تستطع بعد يوم من انفرادهما وبرغم خجله الشديد دون أن تبه نفسها وتجعله يقول بعد سنين من ذلك في اعترافاته : « ولولا مدام دلارناج لمت من غير أن أعرف المذات . »

وكان اسمه عندها (ددنج) وهو الاسم الإنجليزى الذي اختاره لنفسه وثبتت معه أياماً قصيرة أنسته فيها مرضه وألمه . فلما حان لهما أن يفترقا أخذت عليه عهداً أن يعرج عليها « بسانت انديول » حين رجوعه من مونبلييه ووعدتها بذلك وعداً صادقاً . ولما وصل إلى مونبلييه استمرت المخاطبات بينه وبينها من غير انقطاع .

على أنه لم يجد في مونبلييه فائدة تذكر بعد إذ أقام بها ستة أسابيع كاملة . وكل ما ظهر له أن الأطباء الذين بها والدكتور (فيز) نفسه لا يعرفون مرضه بل يدعون أنه ليس مريضاً . فصمم على الخروج منها والذهاب إلى سانت انديول حيث صاحبه التي أنسته في سابق تعارفهما كل ألم . لكنه لما تنصف الطريق فكر في أمره ونسيانه المشين لمدام دافارانس وفيما يؤول إليه حاله إذا هو ذهب إلى مدام دلارناج وخشى أن يفتضح أمره وألا يجد هناك من السعادة ما وجد من قبل

في شميرى وفي الشارمت . لذلك عدل عن عزمه ومضى قاصداً السافوا مقره القديم .

ووصل إلى شاميرى . فلما قابل مدام دفارانس قابلته ببرود أشد ما يكون مغايرة لما كانت تلقاه به من الجذل قبل يومئذ . فهمه ذلك كثيراً . ثم عرف أن شاباً آخر أخذ مكانه وأصبح عشيق « أمه » المحبوبة لديه .

طبعى أن يحتاج روسو أمام هذا المنظر الخسيس . طبعى أن يدق برأسه ثمانية الفاجرة الأرض . طبعى أن تعرفه جنة تدفع به إلى كل الموقف . لكن شيئاً من ذلك لم يكن . وإنما شعر بشيء من الأسى دفعه إلى أن احتجب في غرفته بعد ما عرضت هي عليه أن يشارك « فنتر نريد » فيها كما شارك كلود آنيه من قبل . وقد رفض مملوءاً أسفاً وحزناً .

وبقى في البيت ولم يسافر إلا بعدما أظهر له كل من فيه الإغضاء عنه بل الامتناع منه . هنالك نقد صبره وأخير صاحبه القديمة بعزمه على السفر إلى ليون . فابتهجت لذلك وزودته بخطاب لصديقة لها كان سبباً في اشتغاله مريباً لأولاد المسبو (دمايلى) حيث أقام يعلمهم سنة كاملة .

ولقد لقي مدة إقامته رجلاً وسعاً . ومع أنه أظهر العجز المطلق دون القيام بالمهمة التي عهد بها إليه كما أظهر عدم الاستعداد لما أرادت مدام دمايلى أن تعود به إياه من رقة المعاشرة ، فإن رب الدار لم يبادل له إلا كل عطف وود . بالرغم من ذلك فقد تآقت نفسه للنبيذ مرة فلم يجد من غضاضة في اختلاس زجاجات مما في البيت ولم ينسه طول الزمن الالتجاء إلى السرقات الضئيلة التي اعتاد أيام صغره وأيام كان في الضنك والضيق .

ولما استحسن من نفسه العجز عن القيام بمهمته استقال منها فأقبل . ورجع إلى الشارمت حيث قابلته مدام دفارانس ومعها صاحبها الجديد بالفتور الذي قابلته به المرة السابقة . فلما أقام عندها زمناً لاحظ أن حالها تتدهور لكثرة ما كان يكلفها (فنتر نريد) من النفقات وصمم على العمل لإيجاد ما يقيمه ويعينها . فعنى بوضع طريقة جديدة لرقم الموسيقى حتى إذا استكملها فكر في الذهاب إلى باريس لعرضها على الأكاديمية هناك . ولا استتمت هذه الفكرة وأصبح قديراً على إنفاذها تأهب للسفر . فترك الشارمت متخذاً إلى باريس طريق ليون حيث

قوبل بالترحاب، والتحية وحيث زود بالخطابات إلى جماعة من كبار الرجال في العاصمة الفرنسية ممن يؤمل فيهم معونته .

• • •

هنا ينهى العصر الأول من حياة روسو . هنا ينهى الزمن الذى قضاه مشتتاً منشرداً لا صناعة له ولا حرفة يعيش كلاً على غيره وعبلاً على غير أهله . وإذا كان لم يقم يوماً من أيام حياته مقام ثبات واستقلال فإن ذلك الزمن الذى مر بالقارئ ذكره هو أكثر أزمته حياته تشرداً وضياًعاً .

وهنا ترك روسو شاباً حلو الطلعة دمت الخلق قوى الحس متوقد الخيال عظيم الحياء والخجل قليل الاعتداد بالفضائل العامة سريعاً إلى الكذب والسرقة لا يحسن عملاً خاصاً يمتاز به . وتركه مريضاً عانى الآلام أنواعاً وقاسى الأمراض ضرراً . فأصابه فوق ما منى به من أول أيام حياته من انقباض المثانة والخفقان والدوار وما تبعهما من الأرق وحب الوحدة .

تركه وترك جانباً صلاته النسائية وجولته القديمة لتفكر وإياه في الانتقال إلى العاصمة الهائلة طلباً للثروة والعظمة .

ترك روسو مدام دافرانس مع رفيقها الجديد (فنتزريد) وسافر قاصداً باريس ليعرض على أكاديميتها طريقته في رقم الموسيقى . فمر في طريقه بليون ومكث بها أياماً زار فيها أصدقاءه العديدين الذين عرف أيام كان معلماً لأبناء المسبو (مابلي) . ولقد استفاد من هذه الزيارات كثيراً حيث زود بخطابات تقدمه إلى جماعة من كبار باريس ومن يستطيعون نفقه . فأعطاه المسبو (مابلي) خطابات إلى (فونتسل) وإلى الكونت (دكاليوس) وقدمه المسبو (بوردي) إلى الدوق (ريشليو) الذي كان يومتد بليون والذي وعد جان جاك أن يراه في باريس .

ولم يفته في ذلك الزمن القصير الذي قضاه بليون أن يتعلق بمسائل « دالاسير » حتى يشغل بها خياله زمناً ما . ولقد كانت هاته الآسة في مثل مركزه الاجتماعي لا تملك شيئاً غير جمالها ومعوقها . ولولا أنها كانت معطوبة لأحد التجار لا امتنع عن التفكير في البقاء معها . كما كان مع مدام دافرانس وكما فكر في أن يكون مع مدام دالاناج .

وأخيراً ارتحل حتى وصل باريس . لم يرها هاته المرة بالعين التي رآها بها لأول ما نزها . بل لقد ظهر له ما فيها من إبداع وجمال متعلّياً في أحسن مظاهره . ولكأن هذه المدينة الكبيرة بما ينبعث عنها من الخيال الغريب للنفس قبل أن ترتب في الذهن فكرة صحيحة عنها لا تظهر بما هي عليه من عظمة لأول مرآها . فإذا غادرها الرائي ورجع إليها وقارنها بما رأى تبدى له كل ما فيها من معاني الإبداع والعظمة .

قال : « حلت باريس في خريف سنة ١٧٤١ ولا أملك إلا خمسة عشر جنبها فرنسياً وروائياً (ناريسيس) والقراحي بشأن الموسيقى . لذلك كنت في أشد الحاجة للاستفادة من وقتي الضيق فأسرفت إلى عرض خطابات التقدم . والشاب

التي يصل باريس ويكون مقبول الشكل ويظهر عليه أثر المواهب والى دائماً من أن يجد قديراً حسناً . وكان ذلك شاقاً » .

وكان من بين من تقدم إليهم يومتد المسبو (بور) ومن طريقته عرف المسبو (ديومير) الذي مكثه من عرض طريقته في رقم الموسيقى على أكاديمية العلوم . ولم يجد أعضاء المجمع بأساً من النظر في الاقتراح بعد أن تفحصه لجنة عينت لهذا الغرض . وبعد مناقشات طويلة بين أعضاء هذه اللجنة وبين روسو انتهى الأمر بعدم قبول الاقتراح ورجع روسو بعض بنان الدم على ما أضاع من وقته وبذرف دموع الأمل على انهزام صروح أحلامه .

وبعد فشله هذا كتب كتاباً يعرض فيه على الرأي العام اقتراحه طالباً إنصافه مما وقع به من الحيف والظلم فلم يكن كتابه أكثر رواجاً وقبولاً عند الناس من طريقته أمام اللجنة . ووضع عليه من جديد ما صرفه من الوقت والمجهود في كتابة هذا الكتاب .

غير أن مساعيه هذه وإن لم تقلده مباشرة إلا أنها سمحت له بمعرفة عدد غير قليل من العلماء وذوي الرأي في البلد . مع هذا فقد اضطره فقره ليقصر زياراته على عدد قليل من الناس حتى لا يعرض ماله وجهه لكل إنسان . ولا يعجز القارئ لذلك بعد أن عرف ما اجتمع في روسو من الحياء والغرور . فكان يزور ماريفو وفونتسل . وقد اطلع الأول على روايته (ناريسيس) فأعجبه وأراحه لشباب من سن جان جاك يومتد هو (ديدرو) الذي صادق روسو بعد ذلك زمناً غير قليل .

وكان يقضي القسم الكبير من فراغه في لعب الشطرنج بفهمة (موجي) . ومرت الأيام على هذا النحو يقضيا بين أصحابه وبين الشطرنج ويرى بعينه نفاذ ثروته الضئيلة . وفيما هو يوماً كذلك وقد أفلس أو كاد قابله القس (كاسل) وقال له : « إذا كان الموسيقيون والعلماء لا يتبعون طريقك فادلف إلى النساء فقد يصادفك النجح عندهن ، ولقد سبق لي أن حدثتك عن مدام (ديزرنال) فادهب إليها من جانبي وسترى عندها ابتها مدام « ديجلي » وهي سيدة ذات ذكاء وعقل ومدام (دوين) وهي كذلك سيدة عاقلة تد بعد أن خاطبتها في أمرك أن تترك وتستحسن تقامك . وأعلم أن الإنسان لا يستطيع في باريس شيئاً إلا بمعونة النساء » . وبعد نحي . من التردد ذهب فزار مدام (ديزرنال) وابنتها فأحسنا وفده وطلبا

إليه أن يتردد عليهما . ولقد كانت علاقته بهما مما جعله يتوقع قرب الفرج والخروج مما كان فيه من ضنك ويؤس .

وفي هذه الفترة زار مدام (دوين) وقدم لها كتابه الذى دافع به عن طريقته فى الموسيقى فقبلت هديته وأحسنت استقباله وخاطبته فى أمر اقتراحه مخاطبة عليم بالموسيقى وحجزته عندها للعشاء . هنالك جن بها . ما لبث أن سمحت له بالتردد عليها حتى جعل يذهب إليها كل يوم ويتناول العشاء عندها مرات فى الأسبوع . ولما كانت من صاحبات الصالونات الفخمة التى يتردد إليها السيدات والكبراء والكتاب أمثال فونتنل وبوفن وفولتير فقد استفاد روسو من زيارته لها أكبر الفائدة ، غير أنه كان على ما عرف القارئ عيا وسط الجماعات لا يستطيع التفوق فى الحديث ، بل ولا ينطق صواباً . لذلك كان أغلب وقته صامتاً لا يبين .

لكن تعلقه بـ مدام دوين لم يترك له الهدوء والسكينة . ففكر فى أن يكتب برسمها رواية موسيقية أسمها « الميزجالانت أى الشيطانات الرقيقات » . وبدأ عمله واستمر فيه . وقبل أن يتمه تعين بعناية مدام « ديزنفال » سكرتيراً « للمسيو متاجو » قنصل فرنسا بالبندقية فسافر إليها وكله الأمل فى مستقبل باهر . وما كان أمره إلى الأمل عند كل فكرة أو حادثة جديدة تصادفه . واستمر مشغولاً بالرواية التى يكتب وبالموسيقى التى كان يعدها لها .

ووصل إلى البندقية وتسلم أعماله وحاز ثقة القنصل الذى كان على ما نجبرنا روسو رجلاً ضيق العقل ضليل الفكر ضعيف الخلق حتى اختلف معه آخر الأمر خلافاً انتهى بانفصال جان جاك بعد ما حاز ثقة الجالية الفرنسية بسبب ما عمل جهده لخبرها : قال : « وكنت أعمل دائماً باستقامة وهمة ونشاط تستحق من جانب « القنصل » مكافأة غير التى نالنى بها آخر العهد . ويومئذ حان الزمن الذى يظهر فيه عملى مقدار ما جئت به السماء من مواهب وما أفادتني إياه خير النساء من تربية وما حصلته بنفسى من علم . وقتت بأداء واجبي وخدمت فرنسا ولم أكن مديناً لها بشيء خدمة صادقة كما خدمت القنصل بعدل فى كل ما تعلق بى . وقتت بذلك برغم وحدتى وغيبية الصديق وانقطاع الناصح وقلة التجربة وخدمتى أمة أجنبية وبرغم أنى كنت محاطاً ببحثالة من أهل سوء الذين كانوا يغرونى دائماً بمجانستهم خدمة لهم م ولكى لا يكون وجود المثل الحسن قذى

فى عيونهم . ولقد استحققت لحسن قيامى بالعمل فى هذا المركز المحسود احترام الجمهورية واحترام جميع القناصل الذين كانوا يرأسوننا وعطف جميع الفرنسيين المقيمين بالبندقية وحصلت عليه .

على أن حسن علاقته برجال القنصلية وشديد مقاومته لأهل سوء منهم لم يقده كثيراً واستطاع الأخيرون تغيير قلب القنصل عليه واستفاد صبره هو حتى اضطره لترك (هذا المركز المحسود) . فخرج منه ساخطاً على نظام السفارات والحكومات وإن تعزى ببعض ما كان من عطف الناس عليه .

والغريب أن روسو لم يترك فى اعترافاته شيئاً عن أثر جمال البندقية على نفسه . غريب حقيقة أن يوجد هذا المولع بالطبيعة الوصف والآثارها الذاكر الشارم وثقى وغيرهما أطول الذكر وسط جمال هذا البلد الغريب ومبانيه الفخمة وعظمته ورقته ثم هو ينسى كل ما تعلق بذلك من أمره وشأنه .

لكنه إلى جنب ذلك لم ينس أن يذكر نوادره النسائية هناك . فبعد أن أقام زمناً طويلاً متبعاً أقصى نظام الطهر والفضيلة دلف مع صاحب له إلى بغى تدعى (البادونا) . ثم تقابل بعد ذلك مع فتاة اسمها (زوليتا) تركت فى نفسه أثراً يكاد يعدل ما يترك العطف الحلو والميل الرقيق من الأثر . ولقد كانت هذه المقابلة الأخيرة مثاراً فى اعترافاته لهذه الكلمة الجميلة الخالدة :

« دخلت غرفة البغى فكأنما دخلت معبد الجمال والحب وتبدى شخصها لناظرى لابساً ثوب القداسة . ولولا هذا الاحترام الذى كان عندى لما أحسست بمثل ما أحسست به أمامها . وما لبثت حين رفعت الكلفة بيننا وعرفت ثمن جمالها ونوالها حتى أسرعرت أريد أن أجنى ثمرها خيفة أن تضيع منى . ولكنى شعرت فجأة بدل النيران التى كانت تأكلنى ببرد قاتل ينساب فى عرونى فارتعدت رجلاى وجلست أبكى كأنى الطفل .

« من ذا يستطيع أن يعرف سبب بكائى وما مر برأسى فى هاته اللحظة ؟ إنما قلت فى نفسى : هذا المتاع الذى أصرفه هو أبهى ما أبدعت الطبيعة وأنتج الحب . فعقلها وجسمها وكل ما فيها كامل وطيبها وكرمها يوازى جمالها ورقها . يجب أن يكون الكبراء والأمراء عبيدها وأن تكون الصوالج تحت أقدامها . مع

هذا فما هي ذى متجولة بائسة مسلمة إلى الكافة يلهو بها ربان مركب تجارية ثم نجي . وتلق نفسها بين يدي وهي تعلم أني لست شيئاً .

في هاته الكلمة روح جديدة لم تكن معروفة قبل روسو . روح العطف على المرأة الساقطة . وهي روح ما كان لغير ابن الشعب الشريد روسو أن يلمسها أو أن يحس بها وسط جمعية ذلك العصر المترفة الدعية . وما كان لغيره من الهيايين للفضائل المقررة أن يتقدم بها بهذه القوة . فلما نشرها امتدت وتشعبت بمقدار امتداد الرومانزم وتشعبه .

ورجع روسو من البندقية إلى باريس وجعل يعرض شكواه على ذوي الأمر فلم يحفل بشأته أحد ولا أصغى لشكواه إنسان . فتأثرت نفسه واشتأز من الظلم المبني على المبادئ الحكومية لذلك الوقت . وصمم تصميمياً أخيراً على ألا يشتغل في السفارات ما عاش . ورجع إلى البيت الذي أقام فيه من قبل بشارع (سان كنتان) وشرع في إتمام روايته « الشيطانان الرقيقات » .

حدث في ذلك الحين أمر كان له أكبر الأثر في حياة روسو : فقد عرف فتاة كانت معه في المنزل تدعى « تريزلفاسير » شاركته بعد ذلك حياته وظلت معه حتى يوم وفاته .

جاءت تريزلفاسير إلى المنزل فاستلقت نظر الحاضرين بما ظهر على شكلها من بساطة أهل الريف وبلههم . لكن روسو أعجب منها بتواضعها ورقها . فلما جعل الحاضرون يمزحون معها ويغازلونها أخذ هو على عاتقه حمايتها والدفاع عنها . وسرعان ما تعلق بها وخالطها وجعل منها الشطر الذي خلق له من يوم خلق الحياة . وتريزلفاسير ابنة تمنتين تنظيف الملابس وغسلها وأنها تاجرة صغيرة في أورليان وكان أبوها عاملاً في دار المسكوكات ثم تدهورت حاله وتركه وظيفته .

لم تثر هذه المعلومات من عزم جان جاك على ضحها إليه . بل لقد وجد فيها الشخص المكمل له والذي لا غنى له عنه . وهذا برغم عقلها الذي بقي على قطرته لا يعلق به تهذيب ولا تقيده تربية : « ولست أخجل حين أعترف أنها لم تحسن أبدا القراءة وإن كانت تكتب كتابة مقبولة . ولا أقمت في شارع (بنى شان) كان مقابل نوافدى في قصر (بونشارترن) ساعة كبيرة جاهدت أكثر من شهر لأعلمها فيها معرفة الوقت وهي الآن لا تكاد تعرفه . وما استطاعت يوم

أن تفهم نظام الاثنى عشر شهرا السنوية . وهي لا تعرف رقما واحدا برغم المجهودات التي أنفقت لأفهامها الأرقام فلا تعرف عدد النقود ولا ثمن شيء ما . والكسبة التي تنطق بها هي أغلب الأمر عكس ما تريد أن تقوله . على أنها برغم مبلغها هذ من العباوة - بل من البلادة إذا أراد القارئ - فيها نصائح ثمينة في أخرج الأوقات . وكثير ما رأت ما لم أره أنا أيام كانت تحيط بي الخطوب في سويسرا وإنجلترا وفرنسا . وكثيراً ما انتشلتني يومئذ من أخطار كنت أقدم عليها إقدام الأعشى . ولقد أكتسبها إحساساتها وحسن نظرها وسلوكها الاحترام العام أمام أرقى السيدات وأمام الكبراء والأمراء كما سمعت أنا من أجلها ثناء ظاهراً إخلاصه » .

هذه هي المرأة التي شاركت روسو حياته وهذا هو حكم روسو عليها . ولقد استثارت هذه الحادثة في نفس جميع الذين كتبوا عنه الأسف على هذه الرابطة غير اللائقة به ، والتي كانت تعيسة الأثر في مستقبله . ولم يخرج على هذا الرأي إلا جول لمر الذي يرى المسألة طبيعية بالنسبة للشخص روسو ولركزه . ولا يفوت القارئ أن جول لمر أشد التقاد كراهية لروسو وحقداً عليه حتى ليخيل لك حين تقرأ الكتاب الذي حوى محاضراته عنه أنه معاصر منافس له مع أن روسو ابن القرن الثامن عشر ولتر لم يمت إلا عام ١٩١٤ . لذلك فإن تقديره بالنسبة لهذه المسألة كتقديره في غيرها موضع للطعن والترفيف .

والذي لا شك فيه مطلقاً أن هذه العلاقة بين روسو وتريز كانت من انعس ما منى به روسو في حياته وبالأخص في أخرياتها . فلقد بقيت أمراضه النفسية كميله للوحدة وسوء ظنه بالناس وعدم ثقته بأحد منهم تقوى حتى وصلت به أخيراً إلى الجنون . فلو أن رفيقة حياته كانت غير هاته البلهاء لما وقع في كل هذا التعس الشنيع . كذلك فقد كانت رابطته بها سبباً لأكبر الجرائم التي ارتكبها في حياته - إن كان قد ارتكبها حقيقة - جريمة التنازل عن أولاده للملجأ اللقطاء .

أما عن أثرها في كتاباته فلا يبنى أحد ما لمعاشرينا وأصحابنا علينا من الأثر في الإحساس والتفكير وبالتالي في طريق نقلهما بالكلام والكتابة .

دخلت تريز إلى نزل سان كنتان واستحققت لبساطتها وشدة حيائها حماية جان جاك الشديد الحياء الكثير الخجل . وتعارفا وتحابا . ووعد جان جاك أنه لن يتركها ولن يتزوجها . ولما أخبرته في خجل بأن شابا استغواها عن نفسها مبتداً

الشباب لم يكن منه إلا أن صاح إنها كذلك أحب إليه . وفي قليل من الزمن توقفت المعركة بينهما وأصبحت محبته ورفيقته .

وبعد أن فرغ من أوبرا (الميزجالانت) عرضها على مدام (دلايلبير) لتعرضها على أستاذها « رامو » كبير كتاب الموسيقى في ذلك العصر . فحكم بأن بعضاً منها يستحق الإعجاب في حين يدل الآخر على جهل مؤلفه جهلاً مطلقاً في الفن . فلما سمعت ربة البيت حكم أستاذها اعترضته آية لا سبيل لنسخها أو تبديلها . لكن ريشليو ، وكان يكثر التردد على مدام « دلايلبير » ، أعجب بأوبرا روسو حين سمعها ووعده أن تدل في البلاط في فرساي . وقد مثلت بالفعل وطلب الملك أن يقدم روسو إليه . فاعتذر بما هو عليه من سوء فهم نظام الاجتماعات المراقية وكان يومئذ قد لزم عيش النشيف والرهو وانقطع لتريزلقاسير .

ولشدة ما أعجب ريشليو بأوبرا روسو فقد عهد إليه ليصلح شأن أوبرا كان فولير قد وضع شعرها ووقع موسيقاها « رامو » نفسه . فقام بذلك برغم المصاعب التي كانت محيطة به من مرض وقرر واحتفظ جهده بكل ما يمكن الاحتفاظ به من عمل المؤلفين ، ومع ما أنفق في عمله من عناء فقد غمطه « رامو » واجتهد فلم يترك لاسم هذا المنافس الجديد أن يظهر في « أعياد رامير » . ولقد أثر هذا العمل في نفس روسو حتى أمره بالزومه الفرائش فني في بيته ستة أسابيع لا يفارقه . ولم يتمكن من مقابلة « ريشليو » بعد ذلك فصاعت عليه أتمابه وضاع عليه وقته ولم يستفد من عمله فلماً في وقت كانت يده قد خلت من الأصفر والأبيض . ولولا ما خصه من ميراث أبيه الذي توفي حوالاً ذلك الحين لوقع في أشد الفسك واليأس .

« ومضى الوقت ومضى النقد معه . وكنا اثنين بل أربعة بل سبعة أو ثمانية . ذلك لأنه وإن كان إخلاص تريز لا مثيل له فإن أمها لم تشاركها إياه بل كانت كلما رأت أمر ابنها صلح بعض الشيء . جلبت كل عائلتها يقاسمون تريز صلاحه . فيجي . إخوانها وبناتها وأبناؤها وحفدتها خلا كبرى بناتها التي كانت متروجة . وبذلك تخلس الأم منها كل ما أمعله أنا لها ولمصلحة هؤلاء الجياح . . . وعجيب أن تكون صغرى بنات مدام لقاسير والوحيدة التي لم يهوها أبوها ، هي الوحيدة التي تقوم على أمها وأبيها وتعلمهما . ثم إن يسرقها إخوانها وأخواتها . بل بنو أخواتها

بعد أن يألوها بالقرير والأذى ولا تستطيع التخلص من ضربهم ولا دفع سرقهم » . ولما ريس من كل معونة من جانب ريشليو ومدام دلايلبير وفيها هو في همه وشجته لخلو ذات يده صادفته عناية مدام دون والسو فرانكي فانتخذه سكرتيراً خاصاً وبنياً له تسمعة فزك في السنة وألقاه بذلك من محالب الفاقة . وكان فرانكي يدس الكيمياء في ذلك الوقت وأعد لها في بيته معصلاً . فاستفاد روسو ديسها منه وصارت عدة جديدة في جعبة معلوماته المسلوقة بأغرب الأشياء وأكثرها اختلاطاً بالأدب والتاريخ والموسيقى والرياضيات والطبيعات .

وانتقلوا وانتقل معهم من باريس إلى قصر يدع في « شنسو » . قصر ملكي بنى على نهر الشير أقامه هنري الثالث لتسكنه محبته « ديان دويواتيه » الجميلة . وأمضوا الخريف هناك بين قصف وطو وطرب . فكان روسو يكتب الروايات يقوم بتبليها المنتزهون أنفسهم . وقضوا زمناً حلوا زمن هناه وسعة . فلما رجع روسو إلى باريس وجد تريزلقاسير حلي .

هنا تبدأ سلسلة الجرائم التي ارتكبها بإلقاء خمسة أبناء تباعاً في ملجأ القطار . وقد اعتذر روسو عن جريمته هذه بسفاسط طويلة سذكها للقارئ من غير تحيز . ولكننا نشير قبل ذلك إلى الخلاف القائم بين المؤرخين بشأن أبناء روسو . تقدم بنا القول أن جان جاك كان مريضاً باحتباس في المثانة . فلما رأى أنصاره والمعجبون به فظاعة هذه الجريمة لم يتصوروا صلورها من رجل إن كان قد تدنس في صغره باختلاسات وأكاذيب فإن حياته كانت كلها حياة فضيلة مطلقة . فقال بعضهم إن ما اعترف به روسو إنما هو من أكاذيبه وإنه لم يخلف في الحقيقة أبناً لأن مرضه أعقمه . وإنما ألجأه لاقتراف الكذب ما كان هو عليه من شدة الميل للنساء . فكان يخشى إن هن عرفن عقمه صدفن عنه ولم تقبل منه واحدة عليه .

وقال آخرون إن روسو لم يقل في اعترافاته إنه رأى أبناءه وإنما قال إن مدام لقاسير أم تريز هي التي كانت تحبوه بخبر الحمل وهي التي كانت تأخذ على عاتقها إيداع الطفل عند ميلاده ملجأ القطار . ومعروف أن مدام لقاسير كانت لها مصلحة في توثيق صلة روسو بابنتها لكي تستمر في استغلاله . فكانت تكذب عليه بادعاء الحمل على ابنها ، بالدليل على ذلك أن تريز كانت تقضي

الكثير من وقتها في صحبة السيدات من صاحبات جان جاك روسو أمثال مدام دوين ومامد دلكمسيور ولم تلاحظ إحدى هاتيك السيدات الحمل مرة بل هن جميعاً يقررن أنهن إنما علمن بأبناء جان جاك روسو منه وحده ولم يعلمن بهن من أى طريق آخر .

ورأى ثالث أن تريز حملت حقيقة ولكن من غير جان جاك . وإذن فحريته أقل فظاعة لأنه لم يكن يحس في أعماق قلبه بهذا الإحساس الأبوي المملوء حناناً على الابن الذى ولد ولم يره أبوه .

هذه هى الآراء التى عرضت في الموضوع . وعندنا وقد عرفنا جان جاك وأخلاقه وضعف إرادته وقلة اعتداده بالفضائل لكثرة ما مر به من المحن . إنه سواء كانت تريز حملت منه أو من غيره أو لم تحمل فإنه كان يعلم حقاً أو باطلاً أنها حامل ويرضى بعد علمه بالأمر أن يوضع الابن في ملجأ اللقطاء . وأما تبريره لعمله هذا فيختلف بعضى الزمن وتعاقب الأبناء .

وإننا نعتقد أن الجريمة مهما تكن كبيرة في ذاتها فإن ما عرفناه حتى الآن عن حياة روسو المتشردة التى جعلته أقرب لأن يكون من اللقطاء من أن يكون من عائلة خاصة هى التى هونت الأمر على نفسه وهى التى تجعله أقل مسئولية عن عمله . وهذا هو السبب في أن المعاذير التى قدمها عند ارتكابه هذا الأمر للمرة الأولى لم يكن فيها أى شئ من معنى الأسف أو الألم . وإننا سنوضح كل عذر قدمه في الوقت الذى قدمه فيه .

رجع من شنتسو ووجد تريز حاملاً . وكان في ذلك الوقت يأكل في مطعم عند الأوبرا يجتمع إليه أخلاط من الشبان زمراً .

« وقد عرفت هناك نوادر مضحكة . . عن أزواج خانهم نساؤهم ونساء غرر بهن ، وميلادات خفية . وكان من يحكى عنه أنه أكثر من غيره إيراداً في تعبير ملاجئ اللقطاء موضع إعجاب مستمر . فاقنعت بذلك وكونت فكرتى على مثال ما رأيته شائعاً عند قوم على جانب عظيم من الرقة والطيبة وقلت في نفسى : مادامت تلك عادة البلاد فى طاقة الإنسان اتباعها مادام عائشاً فيها : وكذلك اخترت هذه الطريقة وصممت على إنفاذها بلا اكتراث ومن غير أن يعرفنى أى هم » . وأعطى الطفل بعد ميلاده إلى مدام لفاسير فأودعته في ملجأ اللقطاء .

بعد سنة حملت تريز مرة أخرى وأرسل ابنها إلى ملجأ اللقطاء ولم يعرف روسو المسألة اهتماماً أكثر مما أعار سابقها ولا هو أسف أو تألم ولا عد في عمله ما يوجب الرجوع عنه .

في سنة « ١٧٤٨ » عرف روسو مدام « دبنائى » . أحدثت التعارف بينهما المسيو « فرانكى » وزوجته وكان بينهما وبين هاته السيدة صلة متينة . وكانت مدام « دبنائى » موسيقية قادرة . لذلك ولحسن علاقة روسو بمامد فرانكى بدأ شئ من البود بينه وبين صاحبة الجديدة وسهل له ذلك طريق معرفة الكومتس « هودتو » وأن تخاطبه طويلاً ليلة زفافها .

ألا يرى القارئ غريباً أن ينتقل روسو من عند رفيقته تريز لفاسير وهى على ما عرف من بله وجهل ومن بين أخواتها وأمها وكلهم وضع حقير فيذهب إلى بيت السيدات « دبنائى » و « هودتو » و « بزنفال » و « دوين » ومثيلاتهن من العظيمات والكبيرات . ثم ألا يرى غريباً كذلك أن يتصل به بعضهن حتى يتركن في حياته أثراً غير ضئيل وهن يعلمن أنه ذلك المتشرد الذى قطع كل شبيبته متنقلاً كما يعلمن أنه قضى شطراً منها عشيقاً لمامد دفارانس ؟

فهل سر ذلك كله أن الشاب الذى يصل باريس بطلعة وسيمة ومواهب واستعداد واثق دائماً من أن يجد القبول الحسن ؟ . قد يكون ذلك . ولكن الذى لا شك فيه أن هذه الثقة إنما خلقها حال الجمعية الفرنسية في ذلك العصر . وإننا لنرى واجباً أن نشرحها بعض الشئ حتى يكون لنا بها بعض الدراية والعلم فنتبع روسو في حركاته الفكرية والكتابية التى هو مقدم عليها .

كانت فرنسا في القرن السابع عشر مثال الملكية المستبدة المطلقة السلطة . فكان الشعب صغراً لا وجود له ، وكان لويس الرابع عشر كل شئ . إليه يرجع الأمر والنهى وعنه تصدر كل حركة من حركات الحياة في البلاد . ولقد كان من العظمة بحيث أصبحت عبادته الصورة البارزة للإحساس الأسمى . وكان الناس يقدمونه ويعتبرون فيه الحافظ على فرنسا ثروتها وعظمتها ومجدها .

ولما كانت الطبقات العالية من الأشراف هى التى تشغل عادة إلى جانب الملك بأمر المصلحة العامة وكان لويس قد أغناها عن هذا الاشتغال باستثنائه بالسلطة فقد تيسر لأهلها فراغ من وقتهم لم يجدوا ما يملؤونه به إلا التقرب

والزئبق للملكهم العظيم . فكان الواحد منهم ينتظر على باب غرفة الملك بلا ضجر ولا ملال من الصباح إلى المساء ، وبحس بأعظم السرور إن هو صادفته منه نظرة ود أو ابتسامة عطف . والملك في عظمته لا بجود بشيء من هذا إلا على من يخصه بالقرى . لذلك فلم يكن ليصل الشريف عن الوصول إلى هذا المقام اعتبار من الاعتبار . فهو يتقرب لكل شخص يرى في تقربه ما يقربه إلى الملك . يتقرب لخدام الملك كما يتقرب لوزيره ويتقرب لمعشوقاته ولوصائف معشوقاته بل ولخدمهن إن أحوجهم الأمر . ويُنَمِّن ما يرسل ذلك من الصغار إلى النفس وما يعودها عليه من النفاق والضعف .

وكان لويس متديناً فكان كل شعبه متديناً . كان الكتاب والعلماء والفلاسفة متدينين . وكان كل منهم يخص مواهبه ليعلى من شأن الكثرة وليزيد في عظمة دين الملك العظيم . فصرف بوسويه وفنلون وأضرابهما كل قوتهم وبلاغتهم لإظهار عظمة الكثرة وقوتها ، وكان الأدب الديني قوام أمهات كتب النشر كما كانت الفصاحة الدينية هي فصاحة كل ذلك العصر . ولم يتعرض أحد مطلقاً للنظر في قواعد الإيمان ولا ارتفع صوت لمهاجمة سلطان الكنيسة الزماني . بل كانت كتابات الفلاسفة إنما تسعى لتزيد في قوة كتابات الأدباء . وديكارث الذي بدأ مذهبه بنقض كل مذهب وبيان كل شيء على أسس التفكير من جديد إنما كان يرمى ليصل إلى إثبات الإله ولا يتعرض بشيء للكنيسة .

وكان للصالونات التي أقامتها يومئذ مدام دمتنون ومن حذا حذوها من السيدات أثر هائل على الأدب . فقد كان هم الشعراء إرضاء الملك . ورضا الملك يستلزم رضا صاحباته ومن حولهن . على أن سلطة الصالونات لم تكن مستبدة ولم يتأثر بها أجمل ما في أدب راسين وكرفي وغيرهما . ولم يكن أدب كبار الكتاب جميعاً أدباً دعياً ، بل كان أدباً إنشائياً (كلاسيك) . والذوق الإنشائي هو ما جمع بين التعقل الوضعي والإحساس بالجمال .

ومن مميزات هذا الذوق الإنشائي أخذه بالعموميات وعدم ميله للدخول في الدقائق أو اجتلاء الأحوال الغامضة والمسائل الاستثنائية والاكتفاء بالنتائج التي ينتجها المنطق البحت . ومن هنا جاء أن أشخاص روايات القرن السابع عشر على

عظمتهم العقلية لا يمثلون أحياء متحركة وإنما هم يمثلون أفكاراً بيحة لها ميزة الذهاب والجئمة معهم على المسرح .

على أن عظمة القرن السابع عشر كانت تتآكل لكثرة ما كانت تنفق من الجهود . وملكه العظيم كان يرهق الأمة وكأنه كان يظنها ستنتهي بنهايته فما أُرِفَت ساعة لويس حتى كانت فرنسا منهوكة بالحروب والدين والترف وحتى كانت الكنيسة قد بدأ بداخلها الضعف . والغريب أن ما كان سبب عظمتها بالأمس هو الذي أعده لها خصوصها ليكون وسيلة القضاء عليها . فقد استفادت اللاهوتية من مناقشات بوسويه وفنلون واتخذتها سلماً للطعن في قضايا الدين ، وسرعان ما ارتاحت النفوس إلى الفكاهة لما كانت فيه من أسر وانضمت إلى فولتير وطائفته لتتنفس بعيداً عن ذلك النفاق الدائم الذي اضطرها استبداد لويس للالتجاء إليه خوف غضبه ورجاء رضاه .

وتدهور السلطة المستبدة واندحار سلطان الكنيسة المطلق ابتداءً خذلان طائفة الأشراف التي كانت تعيش في كنفهما . وبذلك ابتداء القضاء المطلق على جميع قوى الحكم القديم .

وجاء القرن الثامن عشر معادياً للدين قاتلاً لكل العقائد نافياً لكل العادات السابقة ثائراً ضد سلطة الفرد مطالباً بحال أحسن .

غير أن البناء الاجتماعي لما يخر صرحه . والنظام الذي كانت تسير عليه فرنسا القرن السابع عشر ورثته فرنسا التي خلفتها وتوسعت فيه . وبدل أن تقتصر الصالونات على جماعة سيدات البلاط فقد امتدت إلى مدام ديرنفال ومام دون ومام دبناي وأضرابهن من اللواتي أحلتهن السعة مكاناً أطلق لهن الحرية في هذا النوع من الحياة . ورجع كتاب هذا القرن الجديد إلى هاته الصالونات وتركوا البلاط وما معه بعد أن خلفه لويس العظيم خلواً من العظمة .

إلى هذا الوسط غير المتدين الطاعن على العادات والعقائد ، المدعى لنفسه من غير أن يكون من البلاط أخلاق أهل البلاط ، المتطلع إلى جهة العلم بدل أن يخضع إلى سلطان الكنيسة ذهب جان جاك روسو البروتستانتي الأصل ، الكاثوليكي المنقلب ، المتوقد الخيال ، الميال للوحدة ، العاشق للطبيعة البكر ، العاجز عن الظهور في الجمعيات ، المصاب بالآفات والعلل . وصل فوجد من حسن الاستقبال

أذهب عن نفسه بعضاً مما كان بها من اليأس وفتح أمامه متنفساً من الأمل في الحياة .

ولكنه على تقدمه إلى الأربعين من سنه حياته لم يكن قد اطمأن إلى نوع خاص من أنواع العيش . وكان نفسه القلقة لم تكن لترضى بالنجاح الجزئي الذي نالته في الموسيقى وفي التعليم فكانت دائبة تطلب الكمال ولكنها لم تكن قد وفقت إليه بعد .

تركنا روسو عند مدام ديناى ومدام هودتو . وهناك زادت صلته بصاحبه القديم ديدرو وقويت رابطتهما . كذلك عرف (كندياك) وصار يصحبهما كل أسبوع لتناول طعام الغداء في مطعم (البانيه فليرى) مجتمع الشعراء والكتاب . ولقد بلغت الصداقة فيما بينه وبين ديدرو حتى اتفقا على إصدار صحيفة باسم Le Persifleur أى الساخر . لكنهما لم يظهرها منها إلا العدد الأول . وسبب ذلك أن ديدرو ودالمير اتفقا على القيام بعمل (الانسيكلوبيديا) فشغل ديدرو بها عن صحيفته . وشغل روسو كذلك حيث كلفه بكتابة القسم الخاص بالموسيقى .

على أن هذا العمل مع الأسف لم يستمر . فإن ديدرو نشر (كلمة عن العمى لفائدة من يبصرون) ضمنها ما جرح مدام (ديرى دسان مور) والمسيو (ريويمير) فأخذ وحبس في سجن فانسن .

وكانت كلمة روسو عن الموسيقى آخر ما كتبه ولم يزل أى شهرة . على أن إكثاره من الكتابة مدة إقامته بباريس أعاد إليه ما علق بذهنه من قراءاته الطويلة السابقة وأعد له لينال المكان الذى احتله في عالم الأدب من بعد ذلك .

٤

لما اعتقل ديدرو في حصن فانسن عكف روسو على منازل صويحياته يشغل معهن بالموسيقى ويستفيد منهن معرفة أصدقاء جديدين . ثم انتقل من باريس إلى (فشنائ سور بوا) مع البارون دلايلنير وفيها عرف الألمانين (كلبفل) و (جرم) وظلت جماعتهم زمناً متمتعة في القصر الجميل الذى نزلوا به .

فلما رجع إلى باريس علم أن صديقه ديدرو قد سمح له بالانتقال من الحصن إلى حديثه ، وبأن يستقبل أصدقاءه ، فجعل يذهب إليه وحيداً أحياناً ، ومع زوجة ديدرو أحياناً أخرى .

ولما كان صيف تلك السنة (١٧٤٩) قانظاً ولم يكن روسو في حال من السعة تسمح له بالذهاب في عربة فقد كان يأخذ معه كتاباً يتلى بقراءته في أثناء الطريق . فإذا بدا عليه التعب جلس في ظل شجرة حتى تعاوده قواه فيعاود المسير . وفيما هو في بعض هذه الرحلات وقع نظره في مجلة (المركير دفرانس) على مسألة طرحها أكاديمية ديجون لتكون موضع السبق لمن يطمع من الكتاب في جائزتها السنوية . هذه المسألة هي ما إذا كان من أثر العلوم والفنون أن أفسدت الأخلاق أو أصلحتها .

« وساعة قرأت هذه المسألة رأيت عالماً آخر وأصبحت رجلاً آخر . . فلما وصلت إلى فانسن كنت في حالة من التهيج تكاد تصل إلى الدوار . ولاحظ ديدرو ذلك فأخبرته السبب وقرأت عليه ما مر بخاطري وما كتبه بالقلم الرصاص تحت شجرة من أشجار البلوط . فحضنى على استكمال أفكارى والدخول في المسابقة . » ولقد قمت بالعمل في كتابة هذا « الخطاب » على طريقة غريبة اتبعها بعد ذلك في معظم كتاباتى . فلقد خصصت له ساعات أرقى وكنيت أفكار فيه في سريري وعبوى مغمضة . فإذا ما نضجت الفكرة في رأسى ووصلت إلى حد الرضا عنها أودعتها ذاكرتى منتظراً الوقت الذى أضعها فيه على الورق . لكن ما كان يضيع من الزمن في قيامى وفي ارتداء ملابسى كان كافياً لينسبني كل شيء .

فإذا جلست إلى أوداقي لم يبق في رأسي قليل مما كان من قبل فيها . فالتحذت مدام لفاسير سكرتيراً لي وجعلت أمليها حين وصوفها لتوقد ناراً في الصباح ما أتممت في أثناء الليل . ولقد أجدتني هذه الطريقة التي اتبعت زمناً طويلاً من خطر النسيان .

أما الأفكار التي أخبر بها صديقه ديدرو فحضره على استكمالها فهي الأفكار التي نادى بها من بعد ذلك طول أيام حياته وأساسها الطعن على الجمعية المدنية والدعاء للرجوع إلى الحالة الطبيعية واعتبار العلوم والفنون مصائب وأهوالاً انصبت على رأس الإنسانية .

ولسنا نعجب مطلقاً أن نرى روسو بعد الذي عرفناه عنه يختار هذا الطريق طريق الطعن على العلوم والفنون . فإن العلوم والفنون أثر من آثار الاجتماع بل هي زيتته وتاجه . وروسو لم يكن ليصادف أى نجاح في الاجتماع . والفنون ومنها الموسيقى مصدر عظيمة وثروة لكثير من الناس . وقد لاحظنا أن روسو صادفه النحس المستمر فيها . والترف الذي كان من مظاهر الحياة يومئذ كان منظوراً إليه بعين غير طيبة من كثيرين اعتقدوه مصدراً لشقاء بلادهم ، ولكنهم ضعفوا عن إظهار آرائهم أمام رأى عام ميال بكله للترف . ولم يكن روسو وهو الأجنبي عن فرنسا في ذلك الموقف ولا كان يهمه مع ما اشتهر من غرابته ومخالفته للناس في كل أموره ما يظن به الناس عليه . لذلك كان هو الرجل المعين للقيام بالصيحة في وجه الترف وما أنتجه من العلوم والفنون .

هذا هو اعتقادنا وهو اعتقاد كثير من الكتاب . مع ذلك فقد روى ديدرو بعد أن تمت القطيعة بينه وبين جان جاك أنه هو الذي أوحى بالفكرة لروسو حينما جاءه في فانس واستشاره عن الطريق الذي يختار . شارك ديدرو في هذا القول جماعة من خصوم جان جاك .

ولقد عارض روسو الرجل الطبيعي المسترسل مع فطرته السعيد في جهله القانع من حياته بما حوله بالتمدين الترف المدعى لنفسه الترف في العلوم والفنون ، وقرر « أن نفوسنا تقسد بمقدار تقدم علومنا وفنوننا إلى جهة الكمال » والتجاً لإثبات ذلك إلى التاريخ متخذاً المثل من المصريين واليونان والرومان وغيرهم وما كان هؤلاء عليه من الشجاعة والكرم والنجدة والرقى في كل ما يتعلق بأخلاقهم .

ثم استظهر ما عليه أهل زمانه المنغمسين في الشهوات المترعين في دست الملاذ الملوثين في حمدة الله وأدران التمدين . وكذلك كان الترف والانحلال والرقى في كل زمان الجزء الأوفى للمجهودات المتعطسة التي صرفناها للخروج من الجهالة السعيدة التي اختارها لنا العقل الأزل .

والذي لا ريب فيه أن ابن الطبيعة الذي يدعو إليه روسو ويضربه مثلاً أعلى للإنسان إنما هو روسو الفطري الشهواني الأناني الضعيف العاجز عن أن يتبع قانوناً سوى ما يوحى له به قلبه من الإلهام الوقتي . هو ذلك المتشرد القديم القليل المعرفة بالحياة المدنية البالغ من الخجل منتهى درجاته . والجمعية على النظام الطبيعي إنما هي تلك الجمعية التي رآها في قرى سويسرا والتي هي منتهى ما يتصوره خيال رجل من العامة عدو للترف شديد الإعجاب بحياته البسيطة التي يستين بها الرأى العام المدني ويحكم عليها بالانحطاط .

ولقد عزا روسو العلوم في أصولها إلى نقائص الإنسان . « فأصل الفلك الطيرة ، وأصل القضاة الطمع والكراهية والنفاق والكذب ، وأصل الهندسة البخل ، وأصل الطبيعة الطلعة الكاذبة ، وأصل كل العلوم والأخلاق التي ترتبت عليها إنما هو الكبرياء الإنسانية » .

وكذلك كان من أثر العلوم والفنون إضاعة الوقت وزيادة الترف وزيادة نشأ عنها ضياع الفضائل المجيدة التي كانت شائعة بين الأمم القديمة ، كذلك كان من أثرها ضعف النفوس ونحود روح الحرية فيها .

« انظروا إلى مصر مدرسة العالم ذات الجو الخصب والسماء الصافية ، انظروا إلى هذه المملكة المجيدة التي خرج منها سيزوستريس ليحكم العالم . فإنها ما لبثت أن أصبحت أم العلوم والفنون حتى أغار عليها قمييز ثم اليونان ثم الرومان ثم العرب والترك أخيراً » .

« وانظروا إلى اليونان التي كانت من قبل مسكن الأبطال الذين هزوا آسيا مرتين . مرة حين شنت فارس الغارة على طروادة والثانية حين غزا اليونان الآسيويين في عقر دارهم ولم تكن الآداب قد أفسدت بعد نفوس الغزاة . لكن تقدم الفنون وتحلل الأخلاق ونير المقدونيين تعاقبت كلها فلم تكسب اليونان من ثوراتها بعدما تورطت في علمها وشهواتها وعبوديتها إلا تغير المتحكمين في أمرها

وعجزت كل بلاعة ديموستين عن أن تجدد الحياة في جسم هزله الترف وأنهكه
الفنون» .

هذا كان شأن مصر وشأن اليونان . تدركت إلى المذلة والهران على سلم العلم
والفن بعد أن كانت في جهالتها الطبيعية السعيدة جالسة على عرش المجد والألفة .
دب إلى جسمها القوى الصحيح مرض هو أقتل الأمراض للجمعبات . مرض
التفكير . وساقها نحس الطالع أن تشعر بحاجات العقل بعد أن كان كل همها
مقصوراً على حاجات الجسد . ومظهر حاجات العقل العلوم والفنون والآداب .
وهذه وإن تك أقل استبداداً من مظاهر القوة التي تحفظ على الجسم أمنها
وسعادتها فإنها « تنشر باقات الزهر على ما ينقل الناس من أغلال الحديد وتخدع فيهم
عاطفة الحرية التي ولدوا بها وتحجب إليهم رقهم وتجعل منهم ما يسمونه الشعوب
المنظمة » .

وقد أصاب روما وأصاب القسطنطينية وأصاب كل أمة اندست إليها جرائم
العلوم والفنون ما أصاب مصر وما أصاب اليونان . بل لو جاء عظماء رجال هذه الأمم
يوم كانت العظمة الحقة في البقاء في أحضان الطبيعة الجاهلة ورأوا ما لحق بأهل
بلادهم لولوا عنها وجوههم ثم لولوا مدبرين هما ونكدأ .

« إيه فابريسيوس . ماذا كان يحول بروحك العظيمة لو بعثك نكد الطالع مرة
أخرى إلى الحياة ورأيت الصورة البدعية الحاضرة لروما التي أنجأها قديماً
ذراعك وخلد لها وقار اسمك من الفخار أكثر مما أقامت لها كل غزواتها من المجد ؟
إنك كنت لا شك تقول : يا آلهة السماء . ماذا أصاب هذه السقوف وتلك المنازل
الرفيعة التي كانت مستقر التواضع والفضيلة في الماضي . أي فخامة متعوسة
عقبت البساطة الرومانية . ما تلك اللغة الغريبة عنا وما هذه الأخلاق المخنثة .
أي معنى لهذه النصب والتأثيل والصور والقصور . ماذا صنعتم ياهؤلاء المجانين
أصبحتم وأنتم سادة الأمم عبید الرجال الطائشين الذين أخضعتم . أهم التراثون
الذين يحكمونكم . وهل ليثرى البناءون والنقاشون والتحاتون والمهرجون رويتم
بدمائكم اليونان وآسيا . وهل تكون آثار قرطاجنة ملهى لزمانو ؟ ! ألا عجلوا أيها
الرومانيون فاهدموا هذه المسارح وكسروا تلك النصب وحرقوا هذه الصور واطردوا
أولئك العبيد الذين يذلونكم وتفسد نفوسكم فنونهم المتعوسة . ذروا نعب أيديكم

أن تجد في هذه الأمور النقية محلاً لمجد . أما روما فلن يلبق بها إلا أمر واحد . ذلك
أن تحكم العالم وأن تحكم فيه الفضيلة . وليست العظمة الكاذبة ولا التائق والرقه
هي التي بهرت سينياس حين حسب مجداً مجمع ملوك لما رآه . كلا ولا هو سمع
فيه تلك البلاغة التافهة التي يدرسها ويعجب بها سخفاء الرجال . وإنما بهر
سينياس منظر لم يكن لغناكم يا قوم ولا لفنونكم أن تقدم مثله . فقد شهد مجمع
ماتني رجل فاضل جدبرين أن يقودوا روما وأن يحكموا العالم » .

إذن فلم ير العالم في مختلف ممالكه وعصوره إلا خزيًا وانحطاطًا من وراء
العلوم والفنون ولم ينتبه إلى التدهور والخذلان . فهل من دواء شاف هذه الأمراض
والعلل . هنا لا يتردد روسو في الدعوة للرجوع إلى الحالة الطبيعية والنجاة من الترف
الذي أفسد على الناس عيشهم ، وهو يضرب المثل بأسبرطة « تلك المدينة المجيدة
بجهالتها السعيدة في مجدها ، تلك الجمهورية التي بلغ من رفعة فضائل أهلها أن
كانوا أنصاف آلهة أكثر مما كانوا أناساً » . ولا شك عنده في أن علم الفضيلة المرفوع
أمام النفوس البسيطة سهل أن تعرفه من غير حاجة لمشقات العلوم والفنون وآثارها
السيسة . « أليست مبادئ الفضيلة منقوشة في كل القلوب ، وهلا يكتفى لمعرفة
قوانينها أن يرجع الإنسان إلى نفسه ويسمع صوت ضميره حينما تصمت فيه
الشهوات ، تلك هي الفلسفة الحقة لو نعرف كيف نقف عندها : وليست الفلسفة
أن نرغمي في أحضان التفكير المذل وما ينبغي . على أثره من تعاسة وشقاء » .

والقارئ لا شك يرى معنا ما في فكرة روسو من غرابة ، لكن ما سبق وصفه
من حالة جمعية يومئذ وما كان في أسلوب ذلك الخطاب من الحرارة والثورة
غطى على ما نقصه من منطق دقيق وفكر رائق وجعل الناس يستقبلون هذه
الكلمة التي وصفت أدواءهم ولو وصفاً خيالياً بالتهليل والإكبار . وفي لحظة ارتفع
روسو من مركزه كموسيقى مجهول إلى مكانة عظيمة من الشهرة والإعجاب به .
ولقد اعترف له معاصروه بهذا النجاح الباهر . فقال ديدرو إن لم ير نجاحاً
مثله . وقال جرم إن أحدث ثورة في باريس . وقال جارا : حينئذ ارتفع صوت
لم يكن صاحبه شأياً ولكنه كان مجهولاً من الناس تمام الجهل ، وارتفع لا من أعماق
الصحارى والغابات ، ولكن من بين هاته الجمعيات والأكاديميات ومن خلال هذه
الفلسفة التي ولدت أنوارها آمالاً عدة . وباسم الحقيقة وجه هذا الصوت التهمة

أمام الإنسانية ضد الآداب والفنون والعلوم والجمعية نفسها . . ولم يكن الاشتمزاز منه عملاً كما قيل بل الذي كان عاماً هو الإعجاب به وتوغل من الوجع منه .

وإن خطاب روسو جائزة أكاديمية ديجون وأصبح روسو من الرجال الذين يشار إليهم بالبنان . وانتشر خطابه وقراه الناس في جميعياتهم ولقى منهم ما قدمنا من الإعجاب . لكن أصواتاً أخرى ارتفعت ضده مظهرة ما فيه من الدعوة إلى الخراب والدمار وما يترتب على الأخذ به من الرجوع بالإنسانية إلى البربرية والوحشية . ومن النكات الدقيقة التي طعن بها عليه قولته : « لو أن الناس اتبعوا قول هذا الصائح لسرهم أن يمضوا على أربع » . ومن وجهوا إليه الطعن المروءة الشديد ستانلاس ملك سردينيا . والمسيو بورد صديق روسو أيام مقامه بليون . والأستاذ جوتييه وغيرهم . وكان أساس مطالعهم جميعاً تناقض ما في الخطاب مع فكرة التقدم تناقضاً بيناً .

والحقيقة أن روسو لم يقصد الرجوع بالناس إلى ما يشير إليه خطابه . ولكنه رأى الإنسانية الوضيعة من جماعة العمال وأضرابهم تبعث صيحات ألم عرف مضاضتها لكثرة ما أصابه من مثلها ، فخيّل له أن ما يشاهد من ترف الأغنياء وصلفهم إنما هو المصدر الوحيد لكل هذه الآلام ، وإن ذلك الترف والصلف إنما أقامته العلوم والفنون فاندفع منادياً ضدها طالباً زوالها رجاء زوال هذه الآلام والمصائب من غير تفكير في وضع خطة لذلك بل ولا في إمكانه . ولا لم يكن يقصد هذه الرجعة إلى الوراء أحسن بدقة المركز وخرجه حين وجهت إليه انتقادات خصومه . أتراه يصبر على طلب العودة إلى الحالة الطبيعية وإعدام آثار تقدم الإنسانية ؟ ألا لئن فعل ذلك لرماه الناس طراً بالجنون ولحسبوا في صيحاته الأولى ادعاء كاذباً أكبر كثيراً مما تعزوه هي للعلوم والفنون من النقائص أينكص على عقبه ويرجع عن رأيه وينزل إلى حالته الأولى حالة الموسيقى المجهول ؟ وأين ذلك من خلق جان جاك المملوء كبراً وأنانية وغروراً . أيسكت أمام النقد ؟ إن مركزه الجديد يتنافى مع السكوت . فعاد إلى نفسه ورجع يقلب موضوعه وينمّن الفكرة فيه باحثاً عن طريق للخلاص من الورطة التي أرادها له خصومه . ولقد استطاع ذلك بدقة ومهارة فاقت حرارته وثورته في خطابه الأول وتمكن من تخفيف ما كان عنده من غلواء من غير أن يبين ذلك عليه ، كما استطاع الإحاطة بكل

فكرة من أفكاره وتحديدها . قال في رده على ستانلاس : « ثم ماذا . أفيجب علينا أن نلغي من الأشياء كل ما ساء استعماله ؟ أوجب من غير تردد : نعم وبلا شك يجب إلغاء كل ما لم يكن مفيداً وكل ما كان الإغراق فيه أكثر ضرراً مما يأتي به استعماله من الفائدة ، ولكن حذار أن نستنتج مما تقدم ما يوجب علينا حالاً أن نحرق كل المكاتب وأن نخرب كل المدارس الجامعة . الأستديت فإننا إن فعلنا ذلك رددنا أوروبا إلى المهجبة من غير أن تكسب الأخلاق من وراء فعلتنا شيئاً » .

إذن فلتبقى المكاتب والمدارس الجامعة أي فلتبقى العلوم والفنون . وإذن فالطاعن الأولى لم يبق لها مكان . هذا ما يوحى به المنطق ، ولكن روسو لا يستطيع التقهقر إلى هذا الحد ، بل هو يعارض نظريته ويقصد إقامتها وإحياءها ، وما في أسلوبه من الجرأة والقوة يساعده على التغلب على خصومه .

وفيما هو في تفكيراته جاءت أفكار جديدة رسمت أمامه الطريق إلى العظمة الكتابية التي تنتظره . وأعظم هذه الأفكار أثراً في رسم الطريق فكرة وجوب المساواة لإمكان السعادة . قال في ردوده على ستانلاس أيضاً :

« ربما قيل إن الترف والشرف ليس أصلهما العلم ولكنهما يرجعان في كل زمان ومكان إلى الثروة . وما قلت إن أصل الترف العلم ، ولكني قلت إنهما ولدا معاً وإن أحدهما لا يعيش إلا مع الآخر . وإليك كيف رتب المسألة : فالأصل الأول للشر هو عدم المساواة ، وعن عدم المساواة تنشأ الثروة ، والثروة تولد الترف والفراغ ، والترف أصل وجود الفنون والفراغ أصل وجود العلوم » . ودخل في بقيته أن عدم المساواة هي مصدر كل شر فردد الفكرة في ردوده كما وضعها أساساً لخطاب كتبه فيما بعد عنهما . ومن يدعي تردده لما قوله رداً على كلمة بورد : إن الصناعات التي تقدم مواد الترف هي مصدر من مصادر الحياة لكثير من العمال قال روسو :

« بطعم الترف مائة فقير في مدنتنا ويكون سبباً في هلاك مائة ألف في القرى . وما يتداوله الأغنياء والفنانون من المال لوفاء ملاذهم مضيع لما يقيم أود عامل لا يجد رداء لأن غيره يلبس الذهب ، وأما ما يذهب ضياعاً من المواد المستعملة في غذاء هؤلاء الناس فيكنى وحده ليجعل الترف بشعاً أمام الإنسانية . فلكني نأخذ

التوايل في طعامنا لا يجد كثير من المرضى مرقاً . ولكي تكون الخمور على موائدنا لا يشرب الفلاح إلا قراحاً . ولكي نصلح من شعرنا لا يجد الفقير لقمة . وكذلك انتصر روسو على خصومه ، واستطاع أن يضم إليه العدد الأوفى من القراء ، وتربع في دست عظمته ونظر إلى نفسه وفكر في أمره فخيّل له أن من الواجب إدخال التغيير على حاله .

على أن روسو نفسه قد اعترف بأن خطابه لم يكن من المثانة والدقة بحيث يستحق ما ناله من التحييد والإعجاب . وهذا اعتراف حق . فإن الخطاب فضلاً عن تناقضه المنطقي لم يثر مسألة جديدة ولم يخرج إلى عالم الأدب فكرة نادرة . فقد كانت الدعوة للرجوع إلى الحالة الطبيعية وللترؤف عن الترف المفسد منتشرة تناولتها أقلام عدة . فجاء بها مونتسكيو في (مكاتبه الفارسية) واستظهرها ماريغو في (جزيرة الرق وجزيرة العقل) وكتب عنها بوفن وغيره وكان جميع أولئك يتزعجون إلى الطعن على شيوع الترف شيوعاً مضجعاً للنفس مفسداً للأخلاق . على ذلك فلم يكن من الجديد فيما كتب روسو إلا الصيغة الكتابية وإلا الشطط في الاستنتاج . على أن الفكرة إن صحت هي بالغة في التطرف . فإن ما يفسد الترف لا يتعدى طبقة خاصة من أغنياء أهل المدن . أما سكان القرى ومتوسطو الثروة من أهل المدن فلم يفسد عليهم الترف شيئاً لأنه لم يحلّ بين أظهرهم ، وهؤلاء أفادتهم العلوم والفنون أجل الفائدة ويسرت لهم سبيل السعادة بما فتحت لهم من كنوز الأرض وخزائنها ، وبما أوضحت لهم مافي الطبيعة من جمال وإبداع فهل من أجل هذه الأقلية المترفة الفاسدة يقوم إنسان في وجه العلم والفن وكل ما أبدع العقل الإنساني تلك القيامة السوداء .

لكن ما قدمنا من تطلع الوسط لمثل هذه الكتابات وما امتاز به أسلوب روسو من الرنة الخاصة هو الذي استلقت الأنظار إلى خطابه واستقرت النفوس لما نصرت .

وكان روسو في أثناء نظر خطابه أمام أكاديمية دييون مهموماً لما رآه عن (تريزلفاسير) من آثار الحمل . ففكر هذه المرة في طريقة أقرب للمجد بشأن ذلك الابن المنتظر وقد أصبح مركزه الجديد بحيث يسمح له أن يكون أباً وأن يرى أبنائه . لكن الغريب أن تصميمه بعد التفكير الطويل انتهى إلى أن يرسل بالوليد الجديد

أيضاً إلى ملجأ النقطاء . ووجته هذه المرة أن يرسل أبنائه للملاجئ العامة لتخرجهم عمالاً وفلاحين خير لهم من البقاء معه ليناهض في مستقبل حياتهم ما ناله من قبل من الشقاء والتعس . ولتكون غايتهم التشرد والبؤس . ومهما يكن من أمر هذه الحجة أمام نظر الكثيرين فإن ما عرفناه عن حياة روسو وأخلاقه يجعلنا نحيل لتصديقه في إمكان تأثير هذا السبب عليه حتى ليحمله على ارتكاب عمل يعده غيره جناية ولا يعدّه هو شيئاً مذكوراً .

وفي ذلك الحين أراد المسيو فرانكي أن يجد لروسو عملاً معرض عليه أن يشغل كصراف في المالية . وبعد تجارب لم تظهر معها أي كفاية له في هذا العمل تركه منهوكة مريضاً ولزم فراشه . فلما أبل من مرضه راجعته فكرة تغيير حاله ورأى أن يهجر ما يسعى إليه الناس من ثروة وعظمة وأن يرجع إلى ما تقتضيه الحال الطبيعية من الفقر والبساطة ، وتسلمت هذه الفكرة على نفسه واحتلت مخيلته واستولت عليه وكثر ورودها وتحكمها حتى عجز عن مقاومتها . فبدأ بتغيير زيه وترك ما كان يلبسه أهل زمانه وارتدى رداء بسيطاً فازداد بذلك غرابة وازداد القوم به إعجاباً ! « وأراد الناس معرفة ذلك الرجل الغريب الذي لا يبحث عن أحد ولا يهتم لشيء إلا أن يعيش حراً سعيداً على ما يريد فكان ما أرادوا كافياً لينع عليه طريق السعادة . وبقيت غرقى يملؤها جماعة الذين كانوا يجيئون بحجج مختلفة فيغتصبون وقتي مني ، ولجأت السيدات إلى حيل لا آخر لها لأكون على موائدهم في العشاء . . . وهناك أحسست أنه ليس من السهل أن يكون الإنسان فقيراً مستقلاً على نحو ما كنت أتصور . »

ولما ترك الوظيفة التي أراد فرانكي أن يشغله بها وفكر في عمل يعيش منه حراً مستقلاً متبعاً مبادئه لجأ إلى نقل الموسيقى . ولقد عانى هذه الحرفة من قبل وأعانته على الحياة سنين طويلاً فجعل منها شغله من يومه هذا إلى آخر حياته .

فلما عرف الناس عنه ذلك تباروا جميعاً وتبارت السيدات خصوصاً يريدون اقتناء نوت موسيقية من قلمه مما زاد في عمله حتى أصبحت كثرة الزيارات معطلة له عن القيام به وعن إتقانه . ففكر في الابتعاد زمناً عن باريس وذهب إلى مركز رئيس أمضى فيها وقتاً جعله على قصره يحس بما يضيّع عليه من الوقت في العاصمة . لهذا فلما دعاه صديقه وقريبه المسيو (موسار) للذهاب عنده في ضاحية باسي لم يجد من ذلك

بأساً . ولا رأى فيه أية غضاضة . وهناك قضى وقته بين نقل الموسيقى وعملها وترتيبها .

وفيما هو يتحدث مع مضيفه عن الموسيقى التي رآها مآ في إيطاليا خطر له أن يضع (أوبرا) على نسق الموسيقى الإيطالية ، وأمضى ليله في ترتيبها . وعجب أن تطرأ هذه الفكرة على مؤلف الخطاب الطاهر على العلوم والفنون والداعي للرجوع إلى الطبيعة ، والأعجب أن تطرأ له بعد ما بدأ في الخروج على الناس والرجوع في ملبسه إلى وحى فطرته . ولكن رصو لم يكن قد آمن بعد بفكرته . بل كان لا يزال الموسيقى المتطلع للعظمة الروائية الغاطس من ينالون إعجاب المخرجين في مسارح التمثيل ولاهى الموسيقى ، مما منع عليه أن يلاحظ مناقضته نفسه بنفسه . فانكب على عمله وأتمه وأخرجه للناس في قليل من الزمان . وأسمى روايته هذه (آلة القرية) وضمنها مناظر ريفية كلها تدور حول ما يوحى به عجزو يدعى لنفسه السحر إلى بطلقة الرواية التي تستعوى بطلها باستنارة الفيرة عنده . وتتخلل فصول الرواية مرقاض ريفية تهزها موسيقى تسيل رقة وجسالا ، فلما تمت استماع بصديقه (دكلو) لتمثل على مسرح الأوبرا . ومثلت فلفتت أكبر الإعجاب بها والتصفيق لها .

ثم مثلت بعد ذلك أمام البلاط الملكي في فينيسيا . وكان رصو يومئذ هناك في ردهاته الجليد ، وقد أسدل ذقنه وأرغى شعره ولم يرض بتغيير شيء من زيه ليناسب المكان الذي حل فيه . وأجلس بهذا الشكل المستوحش بين سيدات قد لبسن وليس من معهن من الرجال أبهى الحال وأفخرها .

لكن ما نالته روايته من عظيم الإعجاب وكبير الثناء ألماه عن حاله .

وبإلى القارئ كلمة من اعترافاته عما خالجه نفسه في هاته اللحظة :

« سمعت حولي همس نساء تصورن الملائكة وتقول كل منهن لصاحبتها - إن هذا بديع باهر ليست فيه نعمة إلا تصل إلى القلب - فبلغ في السرور أن استشرت شجر كل هاتيك الرققات حتى استهل مدمنى . . وتركت نفسي في هذه اللحظة القصيرة أندوق لذة عظمتي وأندوقها بكامل متاعها . . وإن الذين رأوا تمثيل يومئذ لم لا شك ذكروه فقد ترك من الأثر ما لا مثال له . »

ولم يكن هذا النجاح الباهر مقصوراً على السيدات ، فقد بعث الدوق

(دمون) على أثره يخبر رصو أنه سيقدمه غداه الغد إلى الملك على أمل أن يعمل الملك له في خزانته رزقاً .

« أفطن أحد أن اللبلة التي تلت ذلك اليوم البديع كانت ليلة هم وشجن . ذلك أنه لما عرضت فكرة تقديمي إلى الملك تصورت حاجتي إلى الخروج حاجة آتني في أثناء التمثيل ، وقد يمكن أن تضابقت وأنا في غرف الملك بين العطاء الذين ينتظرون مرور جلالتهم . »

« ثم تصورت نفسي أمام الملك وقد قدمت لجلالته فتنازل فوق وخاطبني ، وهنا نجح الدقة وحضور الذهن للإجابة ، أفتركتني ذلك الخجل التبعس الذي عنى والذي يجعلني أختلط أمام أقل الناس ممن لا أعرف وأنا أمام ملك فرنسا فأفوق لاختيار اللفظ المناسب في تلك اللحظة . »

لهذا رأى من الأصوب أن يرفض المقابلة . وإذا كان في الرفض ما يضيع عليه ذلك الرزق ففيه أيضاً ما يفر عليه حرته ونجته من عبء ربما ناء به وربما اضططر معه لتترك كثير من مبادئه . ورفض فعلاً ورجع إلى باريس مكلاً بالفخار منظوراً إليه بين الإعجاب ممن لا يعرفونه وبين الغبطة من بعض أصحابه وبين الحسد من البعض . فلما استحسن هذا الحسد غلبه طبيعته الأنانية وأبداً يظن الظنون . ومن ثم نشأت عنده فكرة لازمة ببقية عمره ؛ أن أصحابه يريدون الوقوف به ويرومون هلاكه .

ومثلت روايته من بعد ذلك في باريس وكان نجاحها باهراً . هنالك سمح لنفسه أن يشترك مع (جزم) في الطعن على الموسيقى الفرنسية مما أغضب الكثيرين عليه .

ولما أحس بمكانته في عالم الأدب والموسيقى دفع روايته القديمة (ناريسيس) إلى (التاترو الفرنسي) ومثلت من غير أن يظهر عليها اسمه فلم تلق أي نجاح .

وفيما هو يندوق في هذه اللحظات اللذة والألم والانحصار والحزبة طرحت أكاديمية ديجون من جديد لمسابقة الكتاب المسألة الآتية : ما هي أصول عدم المساواة بين الناس ؟ وهل يرضاه القانون الطبيعي ؟

وظاهر أن أكاديمية ديجون إنما وضعت هذه المسألة لرصو صاحبها وبطلها . فقد كانت تدور على سنان سلاسل وبوزد مملوءة حمية وحماسة ضد عدم المساواة .

وروسو هو بطل القانون الطبيعي . فمادام قد أعلی شأن المسألة الأولى فهو الذى ينتظر ليعلى شأن المسألة الثانية .

وأحسن روسو بذلك واقتطع من وقته جوابه . ولكنه يجيب على المسألة من طريق آخر ، ويضع للخطاب الذى يكتبه عنها عنواناً آخر . ويكتبه على ما سبرى القارئ بحرارة وأسلوب ثورى تنطق أمامهما حرارة وقوة الخطاب الأول . ولذلك كنه لم تعطه الأكاديمية جائزتها .

العلوم والفنون مفسد للأخلاق وأثر من آثار نقائص بنى الإنسان ونتيجة لكبريائهم الفارغة . وإنما جاء شقاؤهم بسببها وجبن خرجوا من جهالتهم الطبيعية . ولولاها ولولا ما جاءت به من الثروة وما أنتجت الثروة من عدم المساواة لما كان النعس الذى يتمرغ فيه ألوف بنى الإنسان . فإذا أراد الناس السعادة فليرجعوا إلى جنان الطبيعة .

هذه هى الأفكار التى عرضها روسو فى خطابه الأول . ولقد رأى القارئ غلوه فى طريقة عرضها أول الأمر وتعديله لها فى ردوده على من تعرض لنقده . ونقد جاء فى بعض هذه الردود قوله : إني أعتقد أن الإنسان طيب بطبعه .

والطبع والفطرة والسليقة كلمات طالما عرضت فى مؤلفات روسو . ومع ذلك فلم يجد أحد لها تعريفاً واضحاً على صحائف هذه المؤلفات . وكل ما أمكن استنتاجه أن روسو كان يقصد بالطبيعة أو الفطرة ما جبل عليه الرجل أول خلقه من غرائز وإحساسات . فمعنى أن الإنسان طيب بطبعه وأن السعادة ترجع للناس إذا استمعوا إلى الطبيعة هو أن السعادة ترجع لهم إذا هم تركوا كل نتائج الفكر وما أبدعه من مدنية وحضارة ، ورجعوا إلى وحي الطبيعة الأول واتبعوا ما تدعو إليه من البساطة والسذاجة ، وهذه الفكرة التى كانت غامضة فى خطاب العلوم والفنون ستكون مصدر الإشعاع فى خطابه عن عدم المساواة وأصولها ونتائجها .

عرضت أكاديمية ديجون فى سنة ١٧٥٣ مسألة أصول عدم المساواة بين الناس . وهل يقرها القانون الطبيعي ؟ فلم يكن أحد أسبق من روسو للنظر فيها والكتابة عنها كيف لا وقد أمعن فيها البحث والنظر عند كتابة ردوده عن الخطاب الأول .

قال : « ولأفكر فى هذا الموضوع الكبير مطمئناً ذهبت مع تربية وربة البيت وصاحبة لها إلى سان جرمان وأمضيت فيها سبعة أو ثمانية أيام أعدها من أجمل أيام حياتي . فكان الطقس رائعاً وقامت هاتان السيدتان بأمر النفقة وأمضت تربية وقتها معها مسرورة وكنت أرجع أنا إليهن ساعات الطعام لأتمتع بالسرور

ينين سروراً لا تشوبه شائبة ، أما بقية النهار فكنت أقضيه كاسياً وسط الغابة .
وهناك بحثت ووجدت صورة العصور الأولى فرسمت تاريخها مغضياً عما أحاطها
الناس به من الأكاذيب ، وعمدت إلى رفع الستار عن طبيعة بني آدم وتبعته سير
العصور واستظهرت الأشياء التي أفسدت هذه الطبيعة ، وأظهرت لهم بمقارنة
الإنسان الذي صنعه الإنسان بالإنسان الطبيعي أن الأصل الحقيقي لشقاؤهم إنما هو
ما يدعونه لأنفسهم من الكمال . وارتفعت نفسى وقد حفزتها هذه المشاهدات
العالية حتى كانت على مقربة الألوهية . ومن هناك رأيت أمثالي يسترسلون تدفعهم
عاداتهم العمياء في طريق أغلاطهم ومصائبهم وجرائمهم فناديتهم بصوت ضعيف
غير مسموع قائلاً : (أيها المجانين ، يا من لا تزالون تشكون من الطبيعة .
ألا فاعلموا أن مصائبكم إنما تأتيكم منكم) ؟

وكانت تفكيراته في غاية سان جرمان مصدر خطابه عن عدم المساواة . لذلك
لا تعجب إذا رأيتاه صادفاً عن استقراء التاريخ مسلماً نفسه إلى خياله معتمداً
كل الاعتماد عليه . كما لا تعجب أن نراه يفتتح هذا الخطاب بقوله : « نبدأ
باستبعاد كل الوقائع فإنها لا تمس موضوعنا ، ثم لننظر إلى ما يمكن ممارسته من
الأبحاث فيه . ولننظر إلى ذلك لا كحقائق تاريخية ولكن كتعليلات اقتراضية
أكثر ملاءمة لإيضاح طبيعة المسائل منها لإظهار حقيقة أصلها » : ثم يقول :
« أيها الإنسان إليك تاريخك كما أعتقد أني قرأته لا في بطون الكتب التي وضعها
أمثالك فإنهم كاذبون ولكن على صفحات الطبيعة التي لا تكذب أبداً » .

وأطلق لخياله العنان فتغلغل به في ظلمات الماضي حتى وصل إلى حيث
اعتقد مبدأ الإنسانية جاعلاً رائده في هذا البحث الخيالي الوصول إلى تصور ذلك
الإنسان الأول الذي يعتقد « طيباً بالطبع » . وكما عمد في خطابه الأول حين
أراد أن يستظهر الفرد على ما يجب أن يكون في المستقبل إلى انتزاع صورة من
نفسه . كذلك كان متأثراً هنا عند رجوعه للماضي بما يتمناه لنفسه وشخصه .
وليس ذلك بالغريب منه وقد قضى كل حياته مهتماً بنفسه جاهلاً ما سواها متعلقاً
بها إلى أقصى حدود الأنانية .

الإنسان الأول في خيال روسو هو ما يصوره حين يقول : « أرى عند
تصوري الإنسان كما لا بد قد كان حين أبدعته يد الطبيعة حيواناً أقل في قوته

من البعض وأقل في خفه حركته من الآخرين ، ولكنه مرتب في مجموعه على
شكل أقرب لفائدته من أشكاهه جميعاً . وأراه جالساً يتناول ضده تحت شجرة
بلوط ويشرب من أول غدبر بصادفه ويجد مرقده عند جذع الشجرة التي قدمت له
طعامه . وهناك يكون قد استكمل حوائجه .

« وبما أنه لا يزال في مرتبة الحيوانية فهو بقلد صناعة الحيوانات . . ويرتق
إلى فطرة البهائم . . ويجمع بين مختلف طبائعها . . ويتغذى من أكثر المواد التي
تصلح لمختلف الحيوان ويجد حياته بذلك أسهل مما يجدها أي نوع منها » .
« ولما كان جسم الرجل المستوحش هو الآلة الوحيدة التي يعرف فهو يستعمله
في وسائل شتى تعجز دونها جسمونا لقلة دربتها عليها » .

هذه هي الصورة المادية التي يراها جان جاك لابن الطبيعة أول ما خلقته .
فهو رجل متوسط القوة متوسط الحركة بهم لا يدري أين يذهب ويقضى حوائجه كما
يتاح له . يحل به الجوع فيتناول أيما ما يصادفه لينزله به . ويحس بالعطش فيجد
عند أول غدبر وأول بقعة ماء ما يروى أوامه . فإذا جاءه التعب مال إلى ظل أول
شجرة تقابله ، وإذا جئته الليل نام تحت هذه الشجرة غير متخوف شيئاً . هو
حيوان ككل الحيوانات الضالة الهائمة .

وهو يقضى حوائجه الجنسية بمثل ما يقضى به حوائجه الذاتية من البساطة
فلا يعرف الاختيار في النساء ولا يعرف ما يتبع ذلك الاختيار من عواطف الحب
والهيام ، وهو في ذلك إنما ينصت للفترة التي وهبها إياه الطبيعة لا لذوق لم
يتكون له بعد . فكل امرأة حسنة في نظره . وهو ينتظر بهدوء ومن غير تفكير دفعات
الطبيعة . فإذا جاءت أسلم نفسه لها من غير اختيار وكان سروره بذلك أكثر من
شدته فيه . ومتى انقضت حاجته انطلقت رغبته » .

فإذا تم اللقاح بين الرجل والمرأة على هذه الحال الحيوانية البحتة انفصلا
وبقيت المرأة حتى تضع ولدها ثم تسعى له تسعى أنثى الحيوان لصغارها ،
فإذا شب الصغير وصار في طوقه أن يجد قوته تركته يعمل له . ولا خوف في نظر
روسو على هاته المخلوقات الضعيفة من عدوان غيرها عليها . « فإن الشفقة تحل
في الحالة الطبيعية محل القوانين والأخلاق والفضائل . ولها على هذه النظم من
الفضل أنه لا أحد يفكر في عدم الاستسلام لصوتها الرقيق ، فهي تمنع المستوحش

القوى عن أن يأخذ من الطفل الضعيف أو العجوز المريض ما يقيه أوده مما كسبه يده . ما دام ذلك القوى يأمل في العثور على طعامه من طريق آخر .

في هذه الحالة الطبيعية الأولى وتلك الحيوانية المطلقة كان الناس جميعاً على تمام السعادة . كانوا متمتعين بنعيم الجهل وهناك القناعة لا يشغل بالهم شيء يستثير منهم همّاً أو ألماً . ولا يداخل نفوسهم الطمع فينقص عليهم راحة الحياة السعيدة . كانوا يعيشون كل ساعة لساعتها وكل لحظة لنفسها غير مفكرين للمستقبل ولا ذاكرين الماضي ولا مريدين جديداً .

ولو أن السعادة كتبت للناس في هذه الدنيا لظفروا عند هذه المرتبة الأولى حيث الهناء الأكمل ولما غادروا ما كانوا يرتعون فيه من نعمة المساواة وعدم التنافس . . ولكن أنى لهم سكينه النفس بعدما خرجوا من أحضان الطبيعة ثم لا يفكر أحد منهم في الرجوع إليها أو في تنسم ريحها الجميل . « بل لو أن الطبيعة كتبت للناس أن يكونوا سعداء لحق لي أن أؤكد أن حال التفكير حال مناقضة للطبيعة وأن الرجل الذي يفكر إنما هو حيوان فسد مزاجه . »

كلمة غريبة تلفظ بها روسو . كلمة قال جول لمر إنه ما تطلق بها إلا ليدش فلاسفة عصره وجميلات ذلك الوقت . لكننا نعتقد أنها غريبة صادرة عن إيمان بها ويقين بما تحويه من حقيقة لا يشك جان جاك في صحتها . كلمة نطق بها تحوى كل ما يخامر من الألم لما ارتكست فيه جمعية ذلك العصر من رذائل الترف عند قوم وبؤس الفاقة عند آخرين . وإنه في تقريره هذه الفكرة الغريبة إنما يريد أن يقول : هاهى ذى آثار العقل الإنساني بادية أمامنا بعظمتها وجلبتها . هاهى ذى المدنية التى أبدعها بنو آدم ملأى بالتعس والنقص وهاهى أولاء الناس يضجون تحت نيرها ويحز الألم رقابهم . فماذا كسبوا ؟ ثم ما هى الغاية التى يرمون إليها ؟ ألبست غايتهم جميعاً الفناء . وهل سعادتهم فى شيء غير العيش فى ظلال الحرية ؟ فإذا كانت المدنية التى أنتج الفكر هى أصل عدم المساواة ومصدر فناء الحرية وسبب الشقاوة والتعس فهلا يكون الفكر الذى أبدعها جميعاً أصل كل بلاء . وما دامت الطبيعة لا تريد بالناس إلا الخير فحالة التفكير حالة غير طبيعية .

وليس غريباً صدور هذه الفكرة عن روسو مع عظم ولعه بالسكون والطمأنينة .

ولكن الغريب إغراقه فيها وغلوه . وكأنما كانت هذه غريزة به . يدفع وراءها حتى يجد من يرد له صوابه . فهو لا يقول باستنفاد المكتوب وإنما لا يعد . يرد عليه سانسلاس ويورد قائلين له إن خطابه عن العدم والعدم رجعة إلى الإنسانية إلى البربرية والوحشية . وهنا كذلك يقول بعد أن يقرر أن من خصائص الإنسان التى يمتاز بها قدرته على الكمال قدرة مصدره الفكر . وبذلك التردد مع عظم الأسف مضطرين للتسليم بأن هذه القوة المميزة التى لا حد لها - قوة استطاعة الكمال - هى مصدر تعاسات الإنسان كلها وهى التى تخرجه من زمان من نشت الحال الأولى التى كان يمضى فيها أياماً هادئة بريئة .

واضح عنده إذن أن كل خروج على الطبيعة تدرك بالشفاء : « واضح أن أول من خاط لنفسه ملابس أو أقام لنفسه مسكناً إنما قنى أشياء قليلة حاجته إليها بدليل أنه تمكن من الاستغناء عنها إلى يوم عملها . فليس ثمة ما يظهر لنا السبب الذى جعله عاجزاً عن أن يحتمل في رجولته نوعاً من الحياة استطاع احتمالها صغيراً . »

لكن الحيوانات نفسها تلجأ إلى أكنان تقبها البرد والريح وعاديات الطبيعة وينزين بعضها بما يكاد يشبه لباس الإنسان الأول . فهل هى بذلك تدرك إلى التعس أو تعمل على نقبض ما تريده الطبيعة ؟ ليس في مقدور أحد ولا روسو نفسه أن يجيب عن ذلك إيجاباً . فإن الحيوان هو المثل الأعلى للمخلوق الحى الطبيعى وإليه « ارتقت فطرة » الإنسان الأول فى رأى روسو . كما أن القدرة على الكمال وهى التى تميز الإنسان عما سواه إنما هى ميزة وهبتها إياه الطبيعة فلا يمكن والحالة هذه أن تكون ضد الطبيعة .

ولكن روسو يحس بذلك بعض الإحساس ويرى ما فى فكرته من غلو وإغراق . لذلك سمح لهذه القدرة الفطرية أن ترتقى إلى حال يجد الناس عندها السعادة هى حال القبائل البادية التى لم تعرف الملكية . ذلك بأن الناس عندها وإن كانوا قد أصبحوا أقل احتياجاً وكانت الشفقة الطبيعية المعروسة فيهم قد عانت بعض التغيير فإن هذا العصر من عصور رقى القوى الإنسانية . وقد قام وسطاً بين كسل الأيام القديمة وتراخيها والنشاط المفرط الذى امتدنت به أنانيتنا . يجب أن يكون أسعد العصور وأهنأها . وكلما فكر الإنسان تحلى به أن هذه الحال كانت

قل الحالات تعرضاً للثورات وأحسنها وأسعدها لبني الإنسان فلم تخرجهم منها إلا بمصادفة منحوسة . وجماعة المتوحشين الذين وجدوا . ولا يزالون . يعيشون هذا النوع من أنواع الحياة . هم خير مثال يثبت أن النوع الإنساني إنما أعد ليبقى فيه . وإن تلك الحال هي حال شباب العالم الحقيقي ، وكل تقدم حصل بعدها إنما كان تقدماً نحو كمال الفرد بمقدار ما كان اقتراباً من فساد النوع .

إذن « فالحياة البسيطة المشابهة المنفردة التي قدرت لنا الطبيعة » ليست هي أحسن أنواع الحياة . وإنما يجب أن تتخطاها إلى حياة القبيلة وقبل أن توجد الملكية حتى يجد الناس المساواة ونعم الجهالة وركود العقل ونعمة القناعة بما تحت يدهم وعدم التفكير لغدهم . فإذا هم ابتدءوا يفكرون للغد ابتدأت أعراض عدم المساواة تظهر وابتدأ يظهر معها البؤس والشقاء .

ولعل روسو رأى ما يكون من غلو غير معقول في القول بأن الإنسان المستوحش المنفرد الذي يعيش عيشة الحيوان أفضل من الإنسان الممتاز بقدرة الكمال ، المستعمل لهذه القدرة . وخشى من يفاجئه بمثل الردود التي رجعت لخطابه عن العلوم والفنون . على أن الفكرة المعدلة نفسها بالغة في الغلو وقائمة على أساس خاطئ . فليس للمستوحش ذلك القسط من الشفقة الذي يريد روسو أن يعزوه إليه . كلا ولا هو أرق أخلاقاً من المتمدنين . وإنما كانت فكرة « الطبيعة الطبيعية » أو « الطبيعة الوحشية » شائعة يومئذ ، وكانت فطرة روسو تدفعه ليؤمن بها . وخياله وتحمسه لعقيدته ضمناً له القوة في استظهارها على شكل خطائي ثوري شديد . وبعد أن أظهر أن عدم المساواة لم يكن موجوداً في الحالة الطبيعية وفي الجمعيات الأولى غير المفكرة ، استطرد ليرى ما جاءت به المدنية من المصائب والأرزاء فظهر له أن أساس المدنية وأهوالها إنما هي فكرة الملكية .

« وأول من فكر حين أحاط قطعة أرض في أن يقول - هذه لي - ووجد قوماً بلغ بهم العشى يصدقونه هو الواضع الحقيقي للجمعية المدنية . وكم من الجرائم والحروب والدماء . وكم من التعس والبؤس كان يوفره على الإنسانية ذلك الذي يتقدم ساعته فيقتلع الأعلام أو يردم الخندق المحيط ويصبح في قومه : إياكم والاستماع لهذا الكذاب . »

وتلك الصبغة من روسو هي من الصيحات الأولى التي ارتفعت ضد

الملكية والتي تقدمت الآراء الاشتراكية . ولئن تقدم روسو كتاب آخرون نادوا بالمساواة وقرروا أو كادوا مبدأ (الكميترزم) فإن أثر روسو بخطابه عن عدم المساواة وبعبقده الاجتماعي طمس على ما كتبوا وظهر للأجيال التي تلته نبزاً ورفقاً . كانت كتابات هذا اليائس المشتد على ما فيها من فسطة غير قليلة تميز القرن الثامن عشر والأيام الأولى من القرن التاسع عشر هزات لم يطمع فيها فولتير ولا فكر في شيء منها مونتسكيو حين وضع مكاتيبه الفارسية وكتابه روح الشرائع . وكيف لا تهزم الفكرة الجديدة وقد كانوا جميعاً يشعرون في أعماق صدورهم بشيء من القلق أمام نظام أساسه التمتع بالملكية الواسعة من أقلية تنفق عن سعة وسخاء لإرضاء ملاذها إرضاء لا يتم إلا بإذلال الأكرية الفقيرة المحرومة من الملك والقضاء على حريتها . وقد كانت صيحات روسو الحارة الصادرة من أعماق نفسه الدالة على شديد إيمانه بما تحتويه قميئة أن تنبه هؤلاء الفقراء المستقلين إلى ما هم فيه من هم وحرمان وذل وأن تدفعهم للثورة عليه . وما كان أشدهم استعداداً يومئذ لذلك أمام ما رأوه من صلف الأغنياء وكبريائهم الفارغة واستمتاعهم بمذلة إخوانهم من بني الإنسان وعدم اعترافهم بما لغبرهم من حق في ثروة أقامها هذا الغير بعرق الجبين ويتمتعون هم بها من غير عمل وبلا عناء .

« بل لو رأيت جماعة من الأغنياء والأقوياء ممتعين بما بلغوا من مراعى العظمة والثروة وإن تردى المجموع في الظلمة والتعس فذلك لتقدير الأولين متاعهم بالأشياء على نسبة حرمان سواهم منها ، ولو بقي لهم ما يتمتعهم وزايل المجموع بؤسه وتعهس لانقطع عليهم سبيل السعادة . »

ولا دواء لهذه الحال إلا باستئصال أسبابها ، والسبب الأول هو هذه المدنية المترفة القاسية التي تحكم الإنسانية بنيرها الثقيل . ومهما قيل عن ذلك التقدم الموهوم فإن المتاع بالحرية الصحيحة المطلقة خير ألف مرة من هوان دائم نكره عليه باسم النظام والتمدن . والحرية لا تكون مع عدم المساواة ومع قيام شخص بالعمل يستمتع غيره بنتائجه . فإذا لم يكن من سبيل هذه المساواة إلا العودة لما يسمونه الوحشية فلنعد إليها فهي خير وأبقى ما دامت الحرية فيها محترمة مصونة . وهل الرجل المستوحش وكل حيوان مستوحش إلا مثال الموجود الحر الكريم .

على أن أغرب ما فيها هو صيغتها المسلوقة قوة وحرارة وإيماناً . فاما الأفكار التي فيها فكانت متداولة بين كبار كتاب ذلك العصر .

وروح الفكرة في هذا الخطاب عند إميل فاجيه هي : الإيمان بأن الإنسان هو على أقل تقدير مدني أكثر مما يجب . فيجب - على الأقل - تحديد المدنية في أضيق حدودها ، والرجوع بها إن لم يكن لدائرة الأسرة فللقبيلة أو العشيرة أو المدينة الصغيرة حتى يقل جمل الواجب وعظم المجهود ويهول ما بين الناس من الفروق . وبذلك تقل الحاجات المختلفة من مجد وثرف وحياة مدنية وتفتن في التنازع ويرجع الإنسان إلى نصف حيوانية مفكرة ولكنها صحيحة مطمئنة هادئة متحابية هي حالته الطبيعية والحال التي يجد فيها السعادة .

ومع أن هذا الخطاب أقوى وأشد من خطابه الأول فإنه لم يبل جائزة أكاديمية ديجون .

بعد نشر هذا الخطاب بزمن غير طويل سافر روسو مع صديقه جوفكور إلى جنيف واستصحب معه ترويضات لاسير . فلما كانوا في الطريق حدث ما استوجب القطيعة بينه وبين صديقه . فتركه عند ليون وعاد إلى طريق السافوا ، وخطر في باله أن يمر بـ ميدام دافرانس ومر بها ورآها . قال :

« رأيتها . ولكن . في أي حال يا إله السماء وفي أي هون ؟ ماذا بقي لما من فضيلتها الأولى ؟ هل هي هاته مدام دافرانس البديعة التي بعث في إليها المسير بونفير ؟ ألا كم شق على حالها ساعته ؟ . . . ولم أر من وسيلة لما إلا هجر بلادها . فكثرت لما على غير جدوى ما طالما طلبته إليها في خطاباتي لتحضرن وتعيش مطمئنة معي فأكرس أيامي وأيام ترويض لإسماعدها . لكن تعلقها برزقها الذي كان يصرف لها من غير أن تستفيد منه جعلها لا تسمع إلي » . ثم تركها وتترك لها بعضاً مما عنده . فلما التقيا بعد ذلك وعلم بخلو جيبها أرسل بنقد إليها على يد ترويض : « وكانت هذه هي اللحظة التي يجب أن أقضى فيها ديني بأن أتترك كل شيء لأتبعها وأن أبقى معها حتى ساعته الأخيرة وأن أقاسمها حظها أبداً يكون . . . لكنني لم أصعل من ذلك شيئاً . وأحسست أن ما كان بيننا من رابطة قد انقطع فلا يقيدها لأن رابطة أخرى أغنتني عنها » .

هذا هو روسو الأناثي المحب لذاته . وقد تغزى عن فعلته هذه بما يتغزى

قال روسو :

« وكما أن الحصان غير المهذب ينش شعره ويضرب الأرض برجله ويشد جبهه لمجرد إثناء اللجام من فمه في حين يحتل الحصان المدرب السوط وانحس يصبر وجلد . كذلك لا يطاق في الرجل المستوحش رأسه للثير الذي يحتله المتدلين من غير ضجر بل يفضل الحرية مهما خالطها على الاستعداد وإن صحبه السكون والهدوء » .

ولكن الناس مع الأسف يصبرون على حرمتهم المقدودة من غير ضجر ويرتضون الخضوع للرق وعدم المساواة في الأرزاق والدرجات . بل ترى كل منهم يطمع في الحصول على قسط من الترف الذي يتبرغ فيه غيره ، وهو يرى لذلك لازماً أن يقبل تمسف من هم أرقى منه في الدرجة كي يستطيع العيش والعمل إلى جانبهم بعض السكينة والهدوء وإن يرى حرمة يتقلص ظلها ثم لا يستطيع التمسك بها مخالفة أن يزيد بها تمسكاً بها ضياعاً . كما أنه يتدفع بدافع الأمل والطمع رجاء الحصول على شيء مما يميز حياته الأغنياء والأشراف . متى داخله الطمع رضى أن يتزل عن كثير من ألفة قد تقف في سبيل أغراضه كما دخل نفسه قلبه ثم غده . وفي أهم المروغده ، فقد أهم أركان السعادة .

وظل الناس ، بما يدعونه لأنفسهم من التقدم ، يتورطون في فوضى عدم المساواة ويقاسون أهوالها . فإذا فكر فريق منهم في الخروج على النظام القائم لم تقدم حركتهم إلا إيماناً في الألم وتورطاً . « ومن أعياق هذه الفوضى وتلك التورطات يرفع الاستبداد رأسه الشيع رويداً رويداً ويلتهم كل ما تقع عليه عينه من طيب أو سحيج في أجزاء الحكومة ثم يصل أخيراً ليطلقاً تحت قدميه القوانين والشعب وليقوم على أنقاض الجمهورية » . فإذا قام قائم ضد هذا الاستبداد لم يكن همه إلا تخفيف بعض ويلاته من غير تفكير في الرجوع إلى حال المساواة الطبيعية . وبذلك تبقى الفروق ويبقى هم التفكير للعد ويبقى ما يبقى معها من المصائب والويلات . هاته هي الأفكار التي عرضها روسو في هذا الخطاب . ومع ما هي عليه من الحرارة والقوة فإن أثرها لم يظهر بعد نشرها بل بقيت زمناً حتى إذا قامت الثورة الفرنسية خامرت كل النفوس وأصبحت بعض قرآن ذلك العصر الملطخ بالدماء في طلب الحقوق المفضومة . وتلخيصها الذي قدمناه ينم عن غرائها .

به دائماً من أنه طيب القلب وأنه لا يستطيع أن ينحى بنكر ولا أن يرتكب سيئة . على أن لديه شقياً يغفر له هذه الخطيئة ويغفر له كثيراً من مثلها . إنه نابغة وللتواضع هفوات إذا هم دققوا في محاسبة أنفسهم على كل واحدة منها ضاع نبوغهم وضاعت فائدة العالم منهم . والقوة الكمية في نفس روسو والتي دفعته لارتكاب أغلاطه - هذه القوة القائمة على أساس من الغرور وحجب الذات - هي عينها تلك العبقورية التي دفعته ليخرج للناس خطابه عن عدم المساواة والتي استدفعه في المستقبل ليقبّل الأدب الفرنسي في ذلك العهد رأساً على عقب ، وهي أيضاً التي ستجعله الرسول الذي يجهز للثورة الفرنسية إنجيلها ويمهد لها السبل العظيم الشنيع الذي تختطه .

وفيما هو في (شمبري) كتب إهداء خطابه عن عدم المساواة إلى جمهورية جنيف مسقط رأسه ومهد صباه . فلما وصلها استقبله أهلها أحسن استقبال واحتفوا به وأكرموا . فأحدث ذلك في نفسه أثراً بلغ حتى جعله يفكر في استرجاع حق انتسابه لهذه الجمهورية . لكن ذلك لم يكن بالأمر الهين وهو على دينه الجديد . فلم ير من بأس أن يرتد إلى البروتستانتية دين آبائه : « وما دام الإنجيل هو الإنجيل لجميع المسيحيين . فإن تفسير آياته هو في كل بلاد من حق سلطانها . » ولا لم يكن لعامل أن يرى طريقين للمسيحية فكل ما يتعلق بالشكل والنظام يدخل في دائرة القانون .

وفي أوائل أكتوبر سنة ١٧٥٤ ارتحل عن جنيف راضياً كل الرضا عن مقامه فيها منتظراً عودة الربيع وزخرف الطبيعة ليعود إليها فيرتب طريق الحياة الذي يسلكه بقية عمره بين جناتها الناضرة وحول البحيرة البديعة الساحرة التي لم ينس أن يأخذ من مناظرها بنصيب مدة الأشهر القليلة التي قضها حولها . ووصل إلى باريس مبتدأ الخريف وياشر طبع خطابه الجديد مصدراً إياه بالإهداء إلى حكومة الجمهورية وانتظر ما سيجره هذا الإهداء من عطف عليه وإعجاب به . ولكنه سقط في يده حين علم أن ظهور الكتاب زاد في عدد أعدائه بين أعضاء حكومة جنيف ولم يخلق له صديقاً جديداً . وقد انقلب بعد ذلك بنظر إلى هذا البلد المحبوب بعين الريبة والشك .

ولما جاء الربيع لم تتمكن الفرصة من إنفاذ فكرته في العودة إلى جنيف .

ولم يكن سوء استقبال كتابه هو كل السبب في عدوله بل جاء إلى جانبه سبب جديد . ذلك أن مدام دبناي أقامت له منزلاً إلى جانب قصرها بالشرف ولم يستطع هو أن يمتضى في عزمه ويرفض قبول هبة صديقه .

وهذا السبب الأخير وحده هو الذي يقدمه روسو ليعلل به بقاءه بفرنسا وامتناعه عن الذهاب إلى جنيف ، ولعله الغرور هو الذي يجعله يغفل ذكر السبب الآخر .

وهنا تترك روسو يفكر في منزله الجديد لتفكر نحن في طريق تفكيره يومئذ . ونحسب القارئ قد وصل معنا ليرى أن روسو لا يزال شاعراً أكثر منه مفكراً . فهو يريد أن يتبع المعلول بعلة ويصل النتيجة بسببها فيجىء بمقدمات خطائية يملؤها من روحه حماسة وقوة ، ويحسب قارئه قد اقتنع متى اقتنع خياله هو بالصورة التي دارت فيه ومثلت نفسه أمامها . وهو يتترع من مخيلته صوراً يسميها تاريخ الإنسانية ويرسم أمامك الحيوان الذي يحلو له لسمية الإنسان على ما فطرته الطبيعة . لكنه إلى جانب ذلك موقف الخيال مرتب الحواس إلى حد تكاد تظهر صوره معه حقائق ناطقة تحاطب القلب والعقل عصباً متتالية وتبقى آخذة بها برغم ثقل الأزمان وتطور الأفكار .

فصيحته ضد الظلم ، وندائه ضد الترف ، لم يكنا مبنيين على فكرة اجتماعية مخنونة في رأسه تكون مع غيرها طريقاً خاصاً في البحث والنظر . بل كانا أثر تلك الحياة المشتردة التي أنقضت ظهره أيام شببته . وطعنه على الملكية وإظهاره ما تورثه من التمس لم يكن نتيجة فكرة اشتراكية متدبرة . ولكنه نتيجة ما كان فيه هو وأمثاله من الفقر والفاقة وما قاسى من الجوع أيام صباه . ولهذا كله كنت تراه كثيراً ما يناقض نفسه وتتضارب أقواله تضارباً كانت تخفيه القوة الهائلة التي امتاز بها أسلوبه الناثر المملوء خيالاً وقوة .

وكانت هذه القوة في الأسلوب تخفى كل عيب آخر . وهي التي رفعت روسو برغم كل المعارضات التي وجهت إلى خطابه إلى مقام أعظم أدباء عصره وجعلته موضع إعجاب الأكثرين والفضالة المنشودة في صالونات الجميلات والأدبيات .

وهي هذه القوة التي حببته إلى مدام دبناي حتى جعلتها تسعى لتختصه لنفسها

فنال بذلك حظاً بحسدها عليه غيرها .

وستزداد هذه القوة حتى تبلغ أوجها حين يخط جان جاك روايته « لانوفل هلويز » فيجني بها الرومانزم ويحضر بها أول حفرة في قبر الكلاسيكيزم ثم تبدأ ليحل محلها تفكير أدق وأعمق يضمن للناس ترتيب روسو لنظرياته في كتابيه الكبيرين « التربية » و « العقد الاجتماعي » .

أقام روسو جنيف حوالي أربعة أشهر كان فيها معزلاً مكرماً بين أهل بلده وموضع إعجاب الكثيرين منهم . ولقد جعلته غربة زيه وفردته في أخلاقه وفي طريق تفكيره ونظيره للأشياء محلاً لعطف البعض ولقضاء شهوة الطلعة عند الآخرين ، وما كان ليضن على هؤلاء بنفسه وقد كان يقضى معظم وقته في العابات وعلى شواطئ بحيرة ليمان . بل لقد مد لنفسه في متاعها فطاف حول البحيرة تصحبه تريز وجماعة من أصدقائها .

ورجع إلى باريس على عزم العودة إلى جنيف أول الربيع . لكن جو جنيف تغير عليه بعدما نشر كتابه كما أن صديقه مدام دلالييف دبناي تعلقت به ولم ترض فراقه وأضافت إلى قصرها بالشفيرت عند منتهى حدائقه على مقربة من غابة (مونترنسي) بيتاً صغيراً مؤلفاً من خمس غرف وما يلزمها أجسنت نظامه وتنسيقه وذهبت بعد تمامه ومعه جان جاك وعرضته عليه قائلة : « إنها الصداقة تهبك إياه .. وأمل أن يبعد عنك تلك الفكرة القاسية فكرة ابتعادك عني » . ولقد كان هذا البيت أكثر ما يكون ملائمة لمزاج روسو . صومعة منفردة وسط الغابات والحدائق يحدها فيها كل ما يرجوه من لذائذ الوحدة والسكون والطبيعة في أجمل مظاهرها . لذلك فلقد كفى هذا العرض وبعض الرجاء لتكسب مدام دبناي موافقة على البقاء إلى جانبها .

« وما ساعد على تكوين هذا العزم عندي إقامة فولتير على مقربة من جنيف . فلقد وقر في نفسي أن هذا الرجل سيثير البلد ضدي وأنى متى ذهبت وجدت في وطني العادات والأفكار والأخلاق التي أخرجتني من باريس فاضطرر لمناضلة ذلك كله نضالاً دائماً » . ولا يعجبني القارئ من ورود هذه الكلمة على لسان روسو متى عرف ما كان بينه وبين فولتير وعرف أن كل واحد منهما كان يمثل الطرف المناقض للآخر في كل شيء . فقد كان فولتير مثل الحياة الاجتماعية في أشد مظاهرها صناعة وأكثرها إفساداً : التحكم والإلحاد . في حين كان

روسو داعية الطبيعة ومحب الدين . وكان فولتير رقيقاً وسيئاً في حين كان روسو خشياً وطيباً ، وكان فولتير غنياً ومن طائفة الأمراء في حين كان روسو فقيراً ومن عامة الشعب . وكان فولتير محققاً في السياسة في حين كان روسو خيالياً فيها . وكان فولتير استبدادياً في حين كان روسو جمهورياً ، وكان فولتير ملحداً في حين كان روسو متديناً ، وكذلك كان كل منهما نقيفض صاحبه على خط مستقيم .

وكانت مدام ديباني من سيدات ذلك العصر اللامى أولمن بالكتابة وادعين التفكير وعملن على أن يضممن إليهن كبار الفكرين والكتاب ، وقد تعلقت بروسو ووجدت في شخصه في حديثه ما حبه إليها حتى قالت في بعض مذكراتها : « إنك لا تتصور مبلغ ما كنت أجاهد من اللذة في محادثته » . وقالت واصفة شخصه وخلقه : « إنه لمداح من غير أن يكون ملقاً ، أو بالأقل من غير أن يظهر عليه ذلك . ولكأنه لا يعرف عادات الجمعيات الراقية . لكن من السهل أن ترى ما هو عليه من عظم العقل ، وهو أسود الشعر ذو عينين تتقدان فضحيان صورته . فإذا تكلم ونظر إليه الإنسان رآه جميلاً ، أما إن ذكره فيها بعد فإنه يراه قبيحاً . » ولقد كتبت هذه المذكرات بعد أن تمت بينه وبينها القطيعة .

وهذا التعلق به هو الذى جعلها تقيم له صومعة وتضع له فيها أثاثاً جميلاً . وفيما كانت هي في ترتيبها كان روسو يعد نفسه للانتقال إليها لأولى عامها . وساعده إذ ذاك أنه لم يكن في حال من الفقر تقعد به عن كل عمل . وانتقل إليها في التاسع من أبريل سنة ١٧٥٦ ومعه تريتير وأميها . وكان أول همه أن ترك نفسه تأخذ مما حوطا من المناظر الريفية . فبدل أن يبدأ بترتيب مسفره بدأ بترتيب رياضته وتزده فلم يترك من غده طريقاً ولا مجمع أشجار ولا حزاناً ولا بطناً مما حول مسكنه إلا اكتشفه . فلما قضى شهرته من ذلك رجوع يرتب كتبه وأوراقه ويفكر فيها يريد تأليفه .

وجعل يعيش مما معه وما كان يكسبه من نقل الموسيقى : قال : « ولقد كان في طوق أن أتجه إلى الناحية الأكثر كسباً فأنزاع بقلبي - بدل قصره على النقل - لتحرير كتابات تضمن لي إذا جمعت بين حسن اختيار الكتب وبتناورات المؤلفين عيش سعة بل عيش رخاء خصوصاً بعد الذى نلت من شهرة لم يكن من الصعب على أن أحفظ بها ، لكنني أحسست أن الكتابة لكسب العيش من شأنها أن

تحمده نيونى وتقتل ملكة كان محلها قلبي أكثر مما كانت متعلقة بقلبي . ويرجع وجودها إلى طريقة في التفكير راقية أتوقه هي وحدها التي تغذيها ، وليس للقلم النخبه أن يخرج للناس شيئاً قوياً ولا شيئاً عظيماً . أما الحاجة والطبع فيلجآن للإكتثار من الكتابة لا لإجاحتها » . وبنى مشغلاً ينقل الموسيقى وبعض كتابات غير ذات شأن كما اشتغل بالقراءة وبتلخيص بعض كتب كلفه أصحابه بتلخيصها . وجمعت له وحدته وبراجياته نفسه ومناقشته أفكار من يلخص له بتدقيق فكري لم تكن كتاباته الأولى لثمن عنه . لكن ذلك التدقيق لم يخرجها عن الطريق الذى رسمه لنفسه من قبل بل زاده إيماناً فيه وثوقاً منه . ويحل له من جديد : « إن المبادئ التي وضعها حكمائنا ليست إلا الخطأ والجورن ، وإن نظامنا الاجتماعى ليس إلا الضغطة والتعس » . وانتقل ذلك الاعتبار من فكره لإحساسه كما هي عادته . وقوى في نفسه وتحكم فيه حتى ملكه ودفعه ليطالب تغييراً يتفق مع مبادئه . فأراد أن يغير زيه على نحو ما فعل قبل ذلك لولا أن رأى أصحابه في المسألة ما يشينه فسمعوهم عن أن يتمها .

« ولقد كنت طيباً إلى يومئذ ، أما من ذلك الحين فقد تملكني الفضيلة . نو على الأقل سكوت بجمرتها ، وإبتدأت النبوة في رأسى وسرعان ما انتقلت إلى قلبي واحتلت الأنفة الشريفة نفسى قاضية على أنقاض الغرور والذهاب . ولم أظهر للناس من ذلك شيئاً ولا ادعيته . بل بدوت على حقيقتي وظللت السنين الأربع التي كانت هذه النبوة خلالها في ريعان قوتها ولا بمعزنى ما يمكن أن يحتويه قلب الإنسان من عظم أو جميل » .

في هذه السنوات الأربع ابتداً يفكر في الكتب التي وضعها تفكيراً جدياً ، وكتب منها قسماً غير قليل ظهرت فيه روحه المذنبية وبلاغته البديعة مظهرها غريباً . وفيما ابتداً يعلم ويرتفع ويعرفه الناس جميعاً « فلم أد ذلك الرجل الخجول تواضعاً ، والذى لا يجوز أن يظهر أو أن يتكلم . فإذا وجهت إليه نكتة ضارفته وإن نظرت إليه امرأة احمر وجهه خجلاً ، بل كنت أسير جريئاً أنرفاً غير مهمم لشئ . وأذهب إلى حيث أشاء بنبات يزيد قوة ما كان عليه من البساطة ، ولأنه كان محتلاً روحى أكثر مما كان في مظهرى » .

ولقد يظهر هذا التغير في أخلاق جان جاك غريباً في بابه . رجل على

غرويه لكثير كثير الخجل محب للوحدة مبتعد عن الناس يخرج فجأة من وكرة ويخضع لحكمه من كانوا ذوي سلطان عليه لابد أن يكون قد طرأ عليه جديد غير من حله . فماذا عساه يكون ذلك الجديد وكيف كان تأثير روسو به ؟

الجديد فيه نعتقد هو أن الفكرة التي دخلت إلى ذهنه ودفعته إلى تصور أن الناس جميعاً يعادونه ويريدون إلحاق الأذى به . قد ابتدأت تفوى في نفسه وتأخذ منها محل العقيدة . فأدت إلى حصول تطور عنده يلائم فكرته ليجعله يقوه للدفاع عن نفسه ولصد الأذى الذي يتوقع . ولما كان قد أقام نفسه لمنصرة الفضيلة ومحاربة الترف ولدعوة الناس إلى الرجوع إلى حالتهم الطبيعية التي تضمن سعادتهم كان طريق التطور ونوع الدفاع مرسومين أمامه مقدماً . فاحتقار للعادات والعقائد السائرة وانتقاص من حكم غيره وطريق نظره .

وفي هذه الحال الجديدة أقام في صومعته بحوار (الشيفرت) ممتعاً نفسه بمناظر الطبيعة . معتقداً نفسه الملك على هذه المجاورات الرائعة مما حوله . تاركاً لخياله ولا إحساسه ولعقله العنان يتخيل ويحس ويفكر على ما يشاء وكما يحلو له غير مهتم بحكم الناس عليه ولا بما يريدون من الشر به . . وكان لم يكن في عالم جان جاك يومئذ غير شخصه وغير تربيته وأهمها . وإنك لتراه في اعترافاته عن ذلك الوقت مكرباً صحائف عديدة يصف فيها تربيته وطبيعته قلباً وعبادة عقلها وانقيادها الأعمى لأمرها وفساد نفس هذه الأم وتناقض مع خصومه على الوقعة به وما يقاسيه هو لذلك من شقاء . أما ما سوى هذا من التفاصيل والوقائع التي يذكرها عادة فهو هنا يمر عليها مرأ كأن لم تكن في حياته شيئاً مذكوراً . قال :

« ودفعني تذكرى لمختلف أيام حياتي أن أفكر في الحال التي وصلت إليها فرأيت نفسي في منحدر العمر فريسة آلام قاتلة وخيل لي أنني أقتررب من ختام أيامي ولم أتذوق تذوقاً كاملاً أياماً من الملمات التي يريدتها قبلي .
وإنما كان يقص عليه سبيل خيالاته وأحلامه شخص له عليه كل السلطان فلا يستطيع له رداً . تلك هي مدام دبناي . فلطالما أفسدت عليه تربيته للراحة أو للعمل ولطالما دعت من صومعته إلى قصرها بالشيفرت وهو أقل الناس ميلاً للخروج من وكرة . لكنه كان يحبس دائماً بيدها عليه . كما أنه كان يميل إليها بعض الميل

وإن لم يبلغ ميله أخوى . لذلك تراه لا يذكر تحكمها بشيء من الثورة كما هي عادته حيناً يكتب عما لا يحلو له .

وهون عليه هذا التحكم من جانبها أو أنساه إياه ما كان في نفسه يومئذ من خيالات الحب والهو والهيام . ولكأنه بعد إذ بلغ الخامسة والأربعين يريد أن يستعيد أيام الشباب الأولى . وليس ذلك عليه غريباً . فلقد ظل طول عمره شاب القلب مهتاج العواطف . ولما لم يجد يومئذ شخصاً يديه قلبه جعل يسطر ما يحول به في صورة خطابات متبادلة بين عاشقين فيرضى بذلك شهوة نفسه حيث يتسمع على ما يحول في حنايا فؤاده ثم يتترع من خياله شخصاً موهوماً يتبادل وإياه نجوى الغرام .

هذه الخطابات الأولى هي مبتدأ روايته (جولي) أساس الرومانيزم الذي حكم بسلطانه بعد ذلك على أدب القرن التاسع عشر . وعجيب ذلك وقد كان روسو يوم كتبها أبعد ما يكون عن التفكير في وضعها رواية وإبرازها لتحدث ما أحدثته (الهلويز) من الأثر فتقلب أدب أمة بأسرها وتخرجها عن الطريق التي كان يسير فيها طريق التعقل الفنى لتدفع به إلى لجج الإحساس والتخيل ، وإنما أراد بها إرضاء شهوة وقتية قامت بنفسه ونحكت في فؤاده . ولكن هذا هو الشأن في أحوال العالم : تنقله شهوات التواضع والعقيرين إلى أطوار مختلفة أكثر مما ينقله عمل العاديين أجيالاً متعاقبة .

ولقد حدث لروسو يومئذ حادث لم يكن يتوقعه عن له طريق الرواية . وذلك الحادث وما مر بحياة روسو إبان مقامه بالشيفرت هو ما يعيننا الآن ، أما الرواية وشأنها فستعود إليها فيما بعد مفردين لها فصلاً مستقلاً .

ذلك الحادث هو تفضل مدام « دودتو » بزيارة روسو في صومعته . ومام « دودتو » هي زوج أخى مدام دبناي ورفيقة « سان لامبير » صديق روسو الحميم . وكانت يومئذ في الثلاثين من عمرها . ولم تكن جميلة إذ أتلف الجدرى وجهها ولا كانت عيناها ذواتي جاذبية أو نفاذ لكنها كانت جميلة القوام حلوة الابتسامة جذابة الحديث لطيفة العشرة . فما رآها روسو لأول مرة حتى أخذ حلو حديثها فجمع قلبه . فلما زارته للمرة الثانية أولع بها حباً ووجد منها الشخص الذي ملا

قلبه ويعطيه في منحدر أيام حياته بعض اللذائذ التي يجن بها فؤاده . وإلى القارئ ما تركته هذه السيدة في نفس روسو . قال :

« رجعت فرأيتها فانتشيت بسكرة الحب التي لم تقف عند شخص معين بادئ الأمر ثم وقفت عندها ورأيت جويل - وهو الشخص الخيالي الذي بكتابه - ممثلة في مدام دودتو ثم نسيت كل شيء إلا مدام دودتو لابساً كل معاني الكمال التي كان قلبي يتوق لها في تلك اللحظة » .

ولست أدري إذا كان حب جان جاك لمدام دودتو هو حب رجل لامرأة أو هو حب مؤلف لمن يراها المثل الأعلى للشخص الذي يريد تمثيله في روايته والتي تصلح بذلك لتقدم له أغزر مادة للتأليف ممكنة . فكثيراً ما يأخذ المثل (الموديل) بمجماع قلب المؤلف أو الرسام أو النحات ، بل كثيراً ما يكون أساساً لصداقة غرامية هي مهما خالطها من معنى الغرام لا تتعدى حدود الصداقة . ويخيل لي أن ميل روسو لصاحبه كان من هذا النوع أن كان حلو حديثها يوحى لهذا المعتزل في صومعته من بديع المعاني ما يكفي لمادة خطاباته العاشقة التي كان يكتب . ومنهما قال لنا في اعترافاته أن هذا الحب بلغ به الهيام بل إنه جن بدمام دودتو جنوناً فإن حالة روسو النفسية وميوله كمؤلف كانت أشد على عواطفه أثراً من مدام دودتو وقوامها وحديثها وعشرتها . وإن ما في روايته عن تذكارات اجتماعاتها لما يؤيد هذه الفكرة بما هو عليه من الصورة الروائية التي لا نستطيع توهمها في الواقع والتي لم يرد مثلها في كل صداقات روسو النسائية قبلها ولا بعدها والتي لا يجد لها الإنسان مثيلاً إلا في الصور التي وضعها روسو في روايته (جويل) قال :

« كان ما بين الصومعة (وأوبون) - مقام مدام دودتو - مسافة فرسخ . وكنت في كثير من سياحاتي أمضي الليل بأوبون . ولقد ذهبت ليلة معها بعد أن تناولنا طعام العشاء في خلوة وانحدرنا إلى الحديقة يكلوننا نور القمر البديع ، وسرنا حتى وصلنا إلى تبع ماء تحيطه شجيرات أقامته هي بمشورة مني وأقامته ذكرأ خالداً للطهر واللذة . وهناك بين الشجيرات وعلى مقعد من الحشائش تحت شجرة ليخ محملة بالزهور جلست إليها أناجيبها بالكلمات التي تستطيع أن تعبر عن تموجات فؤادي . وكانت هذه هي المرة الأولى والوحيدة من نوعها في حياتي . فكأنني كنت بديعاً لو صح أن نسمي بديعاً ما يجيء به أرق الحب

وأقواه من كل لطيف جذاب إلى قلب المدنف الواله . ألا كم دعة نشوانة أرقّت عند أقدامها . وكما أراقت هي الأخرى من دمعات بالرغم منها ، ثم إذ بها صاحت فجأة برغم إرادتها : كلا ! ما بلغ إنسان مثل هذه الرقة ولا أحب محب كما أحبيت أنت . ولكن صدقك سان لامير يستمع علينا وليس لقلبي أن يحب مرتين . فوجمت في تنهد ثم قبلتها آخر قبلة وكان هذا آخر ما وصلنا إليه . وهي إذا كانت قد عاشت ستة أشهر منفردة بعيدة عن رفيقها وعن زوجها ، وكانت قد قضت ثلاثة أشهر وأنا أراها كل يوم أو أكاد فقد كان حب سوى قائماً دائماً بيني وبينها . وإذا كنا قد أكلنا في خلوة بين الأشجار وفي ضوء القمر وقضينا ساعتين في حديث ما أشده حرارة وأكثره رقة فهي قد خرجت جوف الليل من بين الأشجار ومن ذراعي صاحبها كما دخلت فلم يمس قلبها ولا جسمها بسوء » .

وبعد ثلاثة أشهر من هذا الحب العذري البريء العاجز أبلغت هذه السيدة محبها أن حديث حبهما شاع وانتشر وأن رفيقها سان لامير قد وقف عليه من مصادر غير صادقة الرواية وأنها تخشى مغبة ذلك كله وإن اطمأنت بعض الشيء أن كانت في مكاتبتها رفيقها لا تفتأ تذكر روسو ومقابلاتها المتكررة إياه . وإنما كان يزعرع هذه الطمأنينة إلى حد يرسل الرجل إلى نفسها ما كانت تحس به من حياثل تنصب لها . فقد كان جرم في الجنديّة ويتقابل الحين بعد الحين مع سان لامير . وكان بين جرم وبينها أنها صده يوماً حين أراد التودد إليها . وبين جرم ودمام دودتو مكاتبات لا تنقطع تمكنه من الوقوف على دقائق ما بين روسو وصاحبه من العلاقات .

ولم تكن مدام « دبناي » بالهينة اللينة في النظر إلى تلك العلاقات التي ألهمت قلبها غيرة وحركت في جوفها تلك الفطرة النسائية القائمة على أساس من سلاح الضعيف : الخديعة والمكر ، فاندفعت وراءها ولم تترك سبيلاً تمكنها من الحصول على أدلة مادية تقيم بها الحجة عند (جرم) وبالتالي عند (سان لامير) على هذا الحب إلا سلكتها . ولقد وصلت من ذلك حتى أغرت (تريز) لكي تقدم لها الخطابات المرسلة من مدام دودتو . ولولا إخلاص تريز وادعائها أن روسو يمزق هذه الخطابات بعد قراءتها للكت مدام دبناي

سلاحاً ماضياً ولا امتنعت عن أن تقيم به حرباً شعواء على ضيفها وعلى زوج أخيها . وكذلك وقتت تريز في هذا الظرف الدقيق موقف الأمانة لصاحبها ولم تترك ذاته السيدة الغيور سبيلاً لدرك غايتها ، ولم تخبر روسو بشيء من ذلك إلا بعد أن ضاقت بما حملت ذرعاً . هنالك أفضت له بكل شيء وأوقفته على ما كلفها به مضيقها وتركت له اختيار السبل للملاقة ما قد يكون من سيئ العواقب . فلما استأذن كلامها على سمعه دهش لأنه لم يلاحظ مع ذلك أي تغيير من مدام دبناي عليه . وبقى في اختلاطه حتى إذا وصلته كلمة من مضيفة تسأله عن شأنه انفجر انفجار البركان ورد عليها قائلاً : « ليس في طوق أن أقول شيئاً قبل الحصول على معلومات أوفى ، وسأحصل على هذه المعلومات عاجلاً أو آجلاً . على كل حال تأكدني أن المغاف المتهم سيجد مدافعاً عنه عنده من القوة ما يلزم القاذفين التوبة أيّاً كانوا » .

هنالك رأت مدام دبناي أن تمكر به وتلاعب بطيبة قلبه . فكثبت إليه مظهرة أنها لم تفهم مراده ثم استمرت من ناحية أخرى تسعى للحصول من تريز على بعض المكائيب التي تريد التمسك بها ، ولئن كان قد صادفها بعض النجاح عند تريز لشدة إلحاحها وبما استعملته من الحيلة وما أوغرت به صدر امرأة لم تعد ترى في روسو أكثر من معين لها على الحياة فإن ذلك لم يقدمها عند روسو إلا تشبهاً منه بالشدة والجفاء عزمًا على القطيعة مما أنفد صبرها وحفظ قلبها . ولقد زاد في حفيظتها إن لم تبت عودة سان لامبير ما بين روسو ومام دودنو من علاقة ولم يحصل إلا بعض جفاء شكاً منه روسو لسان لامبير نفسه . على أن مدام دبناي كتمت غيظها ولم يبد منها ما يدل على التغير على روسو أو الثور منه ، ولكنها دفعت حزب جرم لتخبره والنيل منه ، ثم عرض لها بعد ذلك أن تذهب إلى سويسرا لزيارة الدكتور (ترنتون) واستشارته في بعض شئون سرية يغلب أن تكون متعلقة بحمل أو نحوه . فطلبت إلى جان جاك أن يصحبها لتبعده عن باريس وعن مدام دودنو . فتردد بادئ الأمر وتلكأ لعلمه أن الدعوة لم تكن صادرة عن إخلاص . وبرغم نصيحة ديدرو إياه أن يتبعها فقد انتهى روسو بأن اعتذر عن جابة طلبها اعتذاراً فيه بعض الجفاء . وهنا انتهزت مدام دبناي الفرصة لتشهر به وتظهر إنكاره لجميلها في أبشع مظاهره . وناصرها في ذلك ديدرو وجرم وغيرها

ولقد كان من أثر هذه المعاملة أن مكنت من نفس روسو ولي أعماقها عقيدة أن أصحابه جديعاً يريدون الوقعة به وبلغ من ذلك حتى لم يبق لديه محل لسماح كلمة أو الأخذ بشيء يصدر عنهم . بل إنه . ولا يزال في قلبه من اليد مدام دودنو ما لم يغير تصرف سان لامبير من مظهره . ليرفض مشورة هذه السيدة نفسها حين تشارك غيرها في النصيح له بمرافقة مدام دبناي في سياحتها إلى جنيف برغم ما كان يجده من الوجهة في الأسباب التي تقدمت بها إليه .

ولما سافرت مدام دبناي ازداد روسو وحدة وازداد أنخصامه عليه شدة . فأرسل له جرم كلمة يخبره فيها بنها القطيعة بينهما وذلك على الرغم مما تقدم به روسو إليه قصد استئمان مودتهما القديمة . وبعثت مدام دبناي إليه بخطاب يحوى غير ما اعتاد أن يسمعه منها . ولا أرسل لها يخبرها أنه يرى مع اعترافه بسابق جميلها وجوب تركه الصومعة ولولا مشورة أصدقائه عليه بالبقاء حتى آخر الشتاء لأسرع إلى ذلك ودت عليه رداً كان من القسوة بحيث لم يدع له محلاً للفكر فقد بعثت إليه بما نصه : «

(ما دمت قد أردت ترك صومعتك ورأيت ذلك واجباً عليك فإن حجب أصحابك إياك ليدعشني . وإني لا أستشير أصدقائي في أمر واجباتي ولا أرى محلاً أن أزيدك على ذلك فيما يتعلق بواجباتك)

هنالك لم يبق لروسو محل اختيار وأقسم ألا يبق بالصومعة بعد اليوم الثامن من وصول هذه الورقة له . وما لبث أن عرض عليه المسير ما تأس مدير أموال البرنس دكوندي بيتاً صغيراً في طرف حديقته بمونترنسي حتى أسرع إلى الانتقال إليه . لقد أطلنا في استقصاء حوادث مقام روسو بالصومعة (الارتاج) أن كان هذا الزمن من أزمنة حياة روسو وتلك الحوادث التي مر بها القارئ أثر مباشر على كتابته في الهلوي وفي كتاب التربية . كذلك فقد دعانا لاستقصاء كل هاته الجزئيات أنها صورة من صور الجمعية الباريسية في ذلك العصر الذي ترك في التاريخ الأثر الخالد وكان مقدمة مباشرة للثورة الفرنسية . وتدل هاته الصورة أبلغ الدلالة على حال ذلك الوقت الاعتقادية والنفسية والخلقية . فهو إيمان غر السوس في قوائمه ولكنه لا يزال قائماً . إيمان ضعيف بضطرب لدى كل ربح يهب عليه وينبئ عن أن السلطة الظاهرة الباقية للكنيسة ليست هي تلك السلطة

التي كانت في عصر لويس الرابع عشر أيام القرن العظيم حين كان الناس جميعاً في عبوديتهم للملك متثلثة قلوبهم إيماناً بدين الملك. ولكنها سلطة موضع مناقشات وأخذ ورد : فإنكار عند فولتير . وتحوير عند روسو ، وإثبات عند غيرهما . وقد أدى ذلك إلى تفكك كل الواجبات التي يحتمها الدين في نفوس الرجال والنساء وجعلهم جميعاً بعد الذي أكرهوا عليه من القسر ينغمسون في حمأة الترف ويتذوقون متلهفين لذائذ الشهوات . . . ونفوس رأيت في هذا التفكك من قيود الدين القاسية فرجة ينفذ إليها من خلالها نور الحرية فارتفعت نحو هذا الشعاع وتريد أن تطل من هذه الفرجة إلى المتسع العظيم وراءها وتتصور في خيالها ما يمكن أن يكون هنالك . وتقع هذه الفرجة لدى خيال روسو في حائط سميك هو المدنية يحجب عن الناس الضياء ويكاد ينهار فوقهم كما يحجب القضاء الذي وراءها : تلك الحال الطبيعية الجميلة المملوءة بالسعادة والنعم والتي لا تعرف فوارق الدرجات ولا حمأة الشهوات ، بل يعيش أهلها في نعمة المساواة متمعين بلذائذ طاهرة وأخلاق أرسلت تلك الفوضى الدينية والنفسية إليها اضطراباً سمح للناس أن يعيشوا أبقوريين لا مطمع لهم في الحياة غير اللذة ، يتخذ النساء خللاً يعيشون معهن تحت سقف أزواجهن ويتخذ الأزواج خليلات تعرفهن الزوجات ويحتملنهن ويسير المجموع ولا ضابط له .

والآن فإننا ننتقل مع روسو إلى مونمرنسي حيث قضى شطراً لذيلاً من حياته وإن لم يسلم فيه من لواذع أمراضه المختلفة وما كان يخيل إليه من تجمع أصحابه الأقدمين لإسقاطه . ننتقل معه بعد أن ترك الصومعة وتمت يته وبين الرقيقين جرم ومدام دبناي القطيعة .

٨

خرج روسو من صومعته عند مدام دبناي في ١٥ ديسمبر سنة ١٧٥٧ بعدما بقي فيها مدة بدأها وانتهى منها على أسوأ حال وسار في ثنائها مرضه العقلي في طريقه شوطاً غير قليل حتى أصبح ما كان يشعر به من قبل من حب غيره الوقعة به ، وكأنه حقيقة مجسمة يرونها ويؤمن بها وينادي الناس معلناً إياهم أن عصبه تروم الفتك بسمعته وبصحته وبحياته . على أن هذا المرض لم يقطع عليه طريق عمله . بل لقد كان في تلك الفترة أكثر ما يكون إنتاجاً من الوجهة الأدبية . فكتب قسماً عظيماً من هلويز الجديدة وكتب رده على دالمير وهو ما سنعرضه في هذا الفصل . وكتب جزءاً من كتابه العقد الاجتماعي وقرأ وبحث كتب القسيس سان بيير ونشر منها جزءاً وفي هذه الفترة كانت العلاقة بينه وبين فولتير على أحسن ما يود أن تكون . وتبدلت بينهما خطابات كلها التلطف من جانب فولتير والإعجاب من جانب روسو ، وربما يكون ذلك بعض ما عزى روسو عن أصحابه الذين رآهم يتقلصون من حوله واحداً فواحداً .

وخرج من الصومعة إلى بيت عرضه عليه المسيو ماناس في أحد أركان حديقته مونلدى بمونمرنسي وقضى أول أيام مقامه بهذا المنزل مثقلاً بالأمراض والمتاعب . وكان ما مر به وما أصابه في الزمن الأخير من احتياجات وآلام جدد عنده الأمراض الكثيرة التي كان يعانها . قال : « ولا رجعت من خيالات الصداقة وأوهامها وانقطعت عن كل ما حجب إلى الحياة فلم يبق لي فيها ما يهونها على نفسي لم أر أماناً إلا الشرور والتعاسات التي قطعت على كل سبيل المتاع وتمتبت تلك اللحظة التي أكون فيها حراً طليق أعدائي » .

وحسب روسو بخروجه من الصومعة إلى مونمرنسي أن أعداءه قد أسقط في يدهم لقلة ما كانوا يتوقعون منه مثل هذه الحركة . وهو يستند في ذلك إلى خطاب مؤرخ من جنيف في ١٧ يناير سنة ١٧٥٧ ومرسل إليه من مدام دبناي هذه ترجمته (لم يصلني خطابك المؤرخ ١٧ ديسمبر إلا أمس يا سيدي . ولقد وصلتني ضمن

صندوقه تحوى شتى الأشياء وظلت فى الطريق كل هذه المدة . وإنما أجيبك الآن عن حاشية الخطاب فإني لا أجيد فهم الخطاب . ولو أن للتفاهم موضعاً بيننا لسنرى أن أحمل كل ما مضى على شئ من سوء التفاهم . أما عن الحاشية فلعلك تذكر يا سيدى أننا اتفقنا على أن ينقد البستاني أجره من مالى متناولة يدك أنت حتى يكون أكثر شعوراً بتابعيته لك اتقاء مثل ما حدث من سلفه من شحنا وسخافة . يذكر بهذا القسم الأول من أجره إليك واتفاقنا قبل سفرى بأيام على أن أرد لك ما دفعته أنت بعد ذلك . فرفضك قبول هذا المبلغ كما أشار به إلى (شويه) يقطع عندي بأن فى الأمر شيئاً . ولست أرى ما يبرر دفعك أجر بستانى برغم اتفاقنا ودفعك إياه حتى بعد خروجك من الصومعة . لهذا أمرت برد مبلغك إليك وأرى يا سيدى بعد تذكيرك بكل ما سبق ألا ترفض مبلغاً تكرمت بدفعه لحسابى .

كان المنتظر أن يرتد جان جاك على أثر الخطاب عن عناده وأن يراجعه سابق ضعفه ويستعطف مدام دبنائ عما قدم . ولكن مدام دبنائ كانت بعيدة عنه ولم يكن عنده من أصحابها من يتسلط عليه فيرده إليها كما كانت لا تزال دامية فى قواده تلك الجراح التى خيل له أن عصابة مدام دبنائ - جرم وديدرو ودلباخ وغيرهم - كانت عملت على إبقائها . لهذا لم يرد عليها ولم يقبل درهماً مما قدمت وكان ذلك آخر العهد بينهما .

واستمر فى بيته الجديد وقد استقرت نفسه وهذا خاطره واعتزم الابتعاد عن تلك التبعية للأغنياء والسيدات مما جر عليه البأساء كل أيامه . على أنه لم يبق عند عزبه هذا طويلاً . ولكنه فى هذه اللحظة الحاضرة كان فى حال نفسية كرهت إليه الناس ومعاشرتهم وزادت فى فعل مرضه الفتاك الذى سبقت الإشارة إليه ، فرجع إلى أعماله واستمر يكتب خطابات هلويز الجديدة بذلك القلم الموسيقى العذب تدفعه روح مملوءة حرارة وإحساس متقد وشهوانية مريضة ، وتدعم تلك العواطف التى كانت وبقيت فى نفسه بالنسبة لمدام دودتو . وسمحت له حريته الجديدة بالاستمرار فى ذلك على طريقة منتظمة . فلم يكن ثمة مدام دبنائ لتدعوه وهو فى ساعة عمله لتسلى به ضيقها ، ولا كانت تلك الجمعيات الطويلة العريضة التى كانت تشغل القسم الكبير من وقته ، بل أصدقاء من الشبان والشيوخ من أوسط الناس الذين لا يطالبوننا أن نعطيهم من أنفسنا أكثر مما نأخذ منهم .

وإنه لى حياته الجديدة يقضى كل يوم ساعتين فى صباحة ومنتهما بعد الزوال فى مقصورة معرضة لبرد الشتاء القارس مشغلاً بروايته ^{المحزنة} فرحاً بحريته إذ جاء جزء (الانسيكلوبديا) حاوياً مقالا عن جنيف كتبه دالمبير بمشورة من فولتير ، ويقترح ضمن معلومات أخرى إنشاء مسرح فى جنيف تمثل فيه الروايات والقطع الهزلية . وكان فولتير وقد أقام فى (الدليس) على مقربة من مدينة كالفن لم ير مشهداً لروايته أقرب من جنيف ، فعمل على تحريض أهلها على إقامة هذا المسرح حتى يرضى بذلك شهواته وأغراضه .

فلما وقع نظر روسو على هذا الاقتراح احتاجت أعصابه وتمثل له رأى فولتير متقدماً بيد مجرمة لإتعاث موطنه . لهذا لم يلبث أن أسرع إلى ترك عمله واقتطع كل وقته للرد على هذا الاقتراح . ولم تمض أسابيع ثلاثة حتى كان قد أتم الرد وهياه للنشر ثم نشره وأسماء « خطاب إلى دالمبير عن المناظر » .

ولقد حاز هذا الكتاب نجاحاً عظيماً . فما لبث أن نشر حتى تخاطفته الأيدي وتتابع من مختلف الطبقات ، وانبرى للرد عليه كثيرون ، وظهر أكثر من أربعمئة مكتوب فى هذا الباب . وبسبب هذا النجاح انبت ما بين روسو وفولتير وقامت العداوة بينهما عداوة لا هوادة فيها .

جاء فى الفقرة الخاصة بجنيف فى الانسيكلوبديا والمشير بإنشاء مسرح للتمثيل بها ما يأتى « إن الناس يصدفون عن الكوميديا فى جنيف لأنهم يتكرونها للملاهى لذاتها ولكن خشية ما تنشره فرق الممثلين بين الشيبية من الميل للتبرج والترف والتورط فى الشهوات . على أن فى الإمكان مداواة هذا الفساد بسن قوانين صارمة ترتب سير الممثلين وبمراعاة الدقة فى تنفيذها وبذلك تجمع جنيف بين المناظر والأخلاق وتتمتع بما فى كل منهما من الفائدة . فيكون التمثيل ذوق أهل المدينة ويعودهم رقة التعامل ودقة الإحساس مما لا سبيل إليه بغير هذه الوسيلة ، وتستفيد الآداب من غير أن ينتشر الفساد وتجمع جنيف بذلك بين حكمة القدمون وتأدب أثينا . ولدينا اعتبار آخر جدير بما عرف عن هذه الجمهورية من الروية والتدبير يدفعها لإباحة المناظر . ذلك أن ما فى النفوس من إساءة النظر إلى حرفة التمثيل وما تكيهه من الاحتقار هؤلاء الرجال الذين يحتاج إليهم التقدم ويعتمد عليهم الفن الجميل هو من أهم أسباب ما تلومهم عليه من فساد فهم يريدون أن يعتاضوا

بالمسرات والملاذ عما ينقصهم بداعي مهنتهم من الاحترام والكرامة . ولكن لو أن
الممثلين أدخلوا إلى جنيف وأحيطوا بأنظمة حكيمة وأدى لهم من الاحترام والحماية
ما يكونون له يومئذ أهلاً ووضعوا مع باقي الناس على مستوى واحد من الاعتبار إذن
لأنبح هذه المدينة ما لم يتبع لغيرها ، ولجمعت فرق ممثلين موضع التكرام والإجلال .
ثم تصبح هذه الفرقة أحسن فرق أوروبا وأرقاها حيث بلجاً إليها من ممثلين يعوزهم
الاحترام بينما فيرفعون بملكاتهم شأن فن دقيق . ويصبح المقام في هذه المدينة التي
يراها كثير من الفرنسيين قطوبة عابسة لعدم وجود مناظر فيها مقام المسرات الشريفة
كما أنه اليوم مقام الفلسفة والحريّة . ويومئذ لا يجد الأجانب غريباً ما يرونه من
إباحة السخريات السخيفة البخالية من كل ذوق أو أدب في مدينة لا يتاح فيها المناظر
المهذبة المنظمة . وفوق هذا فإن المثل الذي تتقدم به فرقة جنيف في رقي أخلاقها
وما ينشأ عن ذلك من احترام الممثلين أفرادها يكون درساً للممثلين في الممالك الأخرى
ولغيرهم ممن يعاملهم إلى اليوم معاملة القسوة والشدة . وتكون هذه الجمهورية الصغيرة
قد عملت بذلك لإصلاح هام في أوروبا أكثر بكثير مما يحل اليوم بخاطر إنسان .
هذا الدالير يتقدم تحت تأثير فولتير يريد إنشاء مسرح للتمثيل الهزلي في جنيف
مدينة روسو ومسقط رأسه . وروسو هو صاحب خطاب الطعن على العلوم والفنون
واعتبارهما أساس تعاسة الناس وشقاوتهم وعليه انبثت شهرته فلم يكن معقولاً إذن
أن يترك كلمة كهذه تمر وهو صلد جامد . فرد رداً مطولاً نسج فيه على السؤال
الذي نسج عليه في الخطابين الأولين من الخطابة واستشهد التاريخ ولكن على
طريقة أقل حدة وأكثر تفكيراً . ولا عجب في ذلك . فقد بدأ روسو بالطعن على
العلوم والفنون ولما تختمر الفكرة في رأسه وإنما كانت نزعة شعرية دفعته إليها أقدار
المصادفات وأغلت أمره فيها عواطفه البدوية الجواله ونزعاته المتشردة المستوحشة . وميله
للوحدة النفسانية . فلما رده عليه ستانلاس وبوربد أيبحث وينقب يريد تعزيز الفكرة
وأعلاء شأنها . وعلى أساس بحثه بنى خطابه في عدم المساواة وأسبابها وآثارها .
وفي كل هذه الأدوار والأطوار كانت نظرية الحالة الطبيعية أو بالحري ذلك الخيال
الذي صور هو به هذه الحالة يتجسم في نفسه ويحتل مخيلته الشعرية وبملاً وجوده
الأدبي ويصبح النواة تزداد كل يوم صلابة وقوة وتنبئ عليها كل يوم غلف وألياف
وتستمر في طريقها إلى النضج . ولم تكن روايته التي أقوت قدم الرومانتزم في فرنسا

وفي أوروبا ولا كتابه في التربية ولا مبداءه السياسي الذي وضعه في العقد الاجتماعي
إلا آثاراً من تطور هذه الفكرة في نفسه . وكان هذا التطور نزاعاً دائماً إلى الجهة
الشعرية مستنداً إلى المحيطات الخطابية ميالاً به إلى الإغراب حتى أخذ كثير من
الكتاب على روسو تناقضاً في الآراء كان يؤدي به أحياناً إلى ضد ما قال . وربما
صح هذا المأخذ في بعض التفاصيل مما كتبه روسو . وأما مبدؤه هو ، الصادر عن
نفسه فقد كان مبدأ واحداً . وإن ظهرت فيه بعض علائم القلق فما ذلك إلا لأن
القلق كان بعض علائم هذه النفس المضطربة السطح أشد اضطراب .
رأى القارئ من الكلمة التي كتبها الدالير أنه لا يرى صعوبة تحول دون إنشاء
مسرح في جنيف غير تخوف أهل المدينة ما يتقدم به الممثلون للشبان من سعي المثل
ورأى ما طب هو به لهذا الداء وكيف اعتبره من السهولة بحيث لا يحتاج إلى أي
عناء . فكان أول ما رده عليه روسو قوله : « ما أكثر ما أجد من مواضع للمناقشة
فيما أراك بكلمة قد حلتته . فهل المناظر (الملاحى) حسنة أو سيئة لذاتها . وهل هي
تتفق مع الآداب . وهل يمكن إباحتها في مدينة صغيرة . وهل يمكن أن تكون حرفة
الممثل شريفة . وهل تستطيع الممثلات أن تكن على جانب من العقل مثل سائر
النساء . وهل تكفي القوانين لقطع دابر المفساد . وهل يمكن مراعاة هذه القوانين
مراعاة دقيقة . إلخ . . وهذه يا سيدى كلها أبحاث قد لا يكون قلمك غير جدير
بها .

ثم أخذ يرد على هذه المسائل مسألة بعد أخرى جاعلاً رجل الطبيعة الساذج
المثل الأعلى الذي يجب السير على مثله والتزوع إلى مثل حاله مقررأ أن المدينة
بأذبالها من علوم وفنون واكتشافات واختراعات ليست إلا تدركاً إلى الشقاء والربذلة .
ولعل القارئ لم ينس أن روسو نسب العلوم على مختلف أنواعها من هندسة وفلك
ومنطق وسواها إلى المفساد المختلفة وإلى الميل للبطالة . وظاهر تغاليه في ذلك وإغراقه .
ولكنه أقل إغراقاً في خطابه الجديد بل هو أميل إلى الصواب حين ينسب أصل
الملاحى إلى ما تورثه البطالة من الملل وحين يعتبرها لذلك أثراً سيئاً لشر بحره المدنية . ولو
أن الناس اعتادوا العمل وصرفوا ما زاد من وقتهم في القيام بواجباتهم نحو عائلاتهم
وأولادهم لما أخذت يوماً فكرة اللهو بنفوسهم : « فإن اعتياد العمل يجعل البطالة
غير ممكنة الاحتمال والضمير الحي يطفى في النفس الميل إلى نافة المسرات ،

ولكن ملال الإنسان من نفسه وثقل حمل البطالة ونسيان الأميال البسيطة الطبيعية هي التي نحتاجنا إلى المسرات الشاذة .

ولما كانت فكرة التخلص من الملل هي أصل الملاهي والداعية إليها كان صنف المناظر إنما يعنيه منه ما يبعثه للنفس من لذة لا ما يقدمه لها من فائدة . فإن وجدت فيها الفائدة فمرحباً . ولكن مسرة خاطر هي غرضها الرئيسي فمادام الشعب يبتهج بها فقد أدت هذا الغرض : وطبيعي أن الشخص الذي يريد إدخال السرور إلى نفوس الناس مضطر أن يميل مع ميولهم وأن يجاريهم في أهوائهم فإذا نزعته به نزعاً للطن على شيء عندهم بلغ من التلطف في ذلك حتى لا يترك طعنه أثراً يزعجهم . وكل مؤلف للسلاهي يتعد عن انتاج هذه الخطة محكوم عليه في رأى روسو بالسقوط وعلى عمله بالبوار . « ومن ثم فلا يصح أن تنسب للمسرح أية قدرة على تغيير العواطف أو الأخلاق المألوم هو أن يسير وراءها ويزيدها رواء وبهجة . ومن كتب لبواحه الذوق ويصادمه كان يكتب لنفسه لا لغيره » .

« ومن هذه الملاحظات البدئية يتضح أن الأثر الذي تتركه الملاهي إنما يقتصر على تقوية الأخلاق الموجودة كما أنه يزيد الميل القطرية ويجدد في النفس نشاط كل الشهوات » . ويزيد هذا الاستنتاج قوة أن المؤلف التمثيلي يمتدح غالب الأمر لتبرير مركز أبطاله وإظهار أعمالهم طبيعية قدر الممكن . ولو أنه جعلهم جميعاً موضع طعن وتفرز لانصرف الأكثرون عن روايته لأنهم إنما يطلبون في التمثيل ملهى لقتل وقتهم . . . وهذا النوع من عناية المؤلفين غير خاف على أحد . فما من رواية كان البطل فيها ميالاً لأفزع النقائص بل الجرائم لا جاهد المؤلف ليجعل من نقائصه وجرائمه بعض موضع للعطف عليه والميل له . ولو أن جرائم فلدرو ميديا عرضت على الناس لكانت كراهم لذين الشخصين شد لدى سماعهم قصصها منها بعد إذ برونها على المسرح » .

وأما ما يقال من أن التمثيل مدرسة يُعَلَّم فيها فاضل الأخلاق بتحبيذه ويُنشئ فيه عن المذكر بتفكيحه فهراء لا محل له . لأن الناس أسرع ما يكونون سامة للتعبئة جافة . بل تراهم يميلون غالب الأمر إلى عدم التصديق بإخلاصها . وهمهم الأكبر أن يروا على المسرح صورة ما في الحياة الحقيقية مما يستخر منهم عاطفة الغضب أو لرضا وانحب أو الكراهية والاستحسان أو الاشتمزاز أو غيرها . ويميل كل منهم

لذلك معتبراً فيه موضعاً للهوى لا محلاً لإصلاح عوج نفسه . ولو أن أحداً استطاع هذا الإصلاح لكان له من مناظر الحياة الحقيقية ومشاهدها ما يدعو إليه . ولكن الناس يسرون في الحياة بغرائز وأخلاق ولدت معهم أو كسبوها من الصغر وقواها فيهم الوسط الذي يعيشون فيه ، ولن يهدم ممثل في سريعة ما بني الوجود في زمان طويل . وإنما يشجع الممثل فينا آميالن ويدفعنا إلى الإغراق فيها بما يملق به قلوبنا أو مصالحنا .

وهذه الفكرة أبداه روسو في كلمته لد المبير حين قال : (قلب الإنسان مستقيم فيما لا يتعلق بشخصه . فكل منا يؤازر العدل إذا اقتصر موقفه على مشاهدة خلاف يقع أمامه . وليس من سيئ الأعمال مالا يستثير سخطنا ما دمنا لا نفيد لأنفسنا من هذه الأعمال شيئاً . ولكن عواطفنا تفسد متى كان لصالح لنا في الأمر مدخل . حينذاك ترانا نفضل الشر الذي يفيدنا على الخير الذي يصبو إليه طبعنا . وبذلك يعين الوجود الشرير على أن ينال فائدين . واحدة يفيدنا من ظلمه غيره والأخرى يستفيدنا من عدل سواه . وأي فائدة له أكبر من أن يطالب الناس كلهم أن يكونوا عدولا إلا هو فيرد كل منهم إليه ما هو من حقه من غير أن يرد هو لأحد منهم حقاً . والشرير لا شك يحب الفضيلة . ولكنه يحبها صادرة عن سواه ليستفيد هو منها ولا يرغب فيها لنفسه لما يكلفه إتيانها من المشقة . مثل هذا الشخص يرى في التمثيل ما يمكن أن يراه في أي موضع آخر . يرى دروس فضيلة تلقى للشعب على أنه ليس منه وإناساً يضحون كل شيء من أجل واجبه على ألا يطلب أحد منه شيئاً) .

وهل ترى الواحد منا إذا ذهب إلى التمثيل فتأثر بمنظر من مناظره يبق تحت هذا الأثر زمناً طويلاً ؟ أتراه إذا بكى لمصاب محزون أو حتى على شرير كثير الجرائم أو أولع حباً برجل فاضل أو بامرأة عفيفة يبق في حزنه أو حقه أو ولعه أكثر من سبعة خروجه من باب الملهى ؟ بل لو أنه عرضت له مصلحة لحظة يكون التأثير بالغاً منه أشده مستنداً منه مدمعه أفتراه باقياً على تأثره حتى ليضحى مصلحته بسبب هذا التأثير ؟ كلا ! « وقد ذكر تاسيت أن فالريوس الآسيوى دافع عن نفسه لما اتهمته مسالين في نفسها وأرادت به الهلاك عند الإمبراطور دفاعاً تأثر له هذا الأمير واستمطر عبرات مسالين نفسها . فانهطفت هي إلى غرفة مجاورة حتى يزول ما بها ولكنها لم تذهب قبل أن تسر في بكائها إلى فتليوس ألا يطلق سراح المتهم . وما وقع

نظري على متفرجة أبكاها التمثيل إلا ذكرت دموع مسالين وهذا البائس فالربوس الآسوي .

يضاف إلى ما سبق أن التمثيل لا يمثل صورة الحياة الحقيقية أبداً : إنما هو فكرة المؤلف بلبسها صور أشخاص بيدعهم خياله وينطقون بلسانه الداخلي الذي يعبر عن شخصية الفرد وفكرته في كيفية السلوك بين الناس ليكون مقبولاً بينهم ويتمتعاً بنعم حياته الاجتماعية .

« وكذلك نرى كل شيء بضطرننا لإطراح هذه الفكرة السخيفة فكرة إمكان توجيه المسرح وجهة الكمال باستخدامه للمصلحة العامة » فهو لا يهذب الخلق ولا يناصر الفضيلة ولا يمثل الحقيقة ولا يزيد على سخرية أبدعها الناس لإضاعة الوقت . قال ميرالت : « من فاضح الخطأ أن يغرينا الوهم لنحسب ممكناً أن نرى على المسرح ما بين الأشياء من صلة حقيقية . ذلك أن الشاعر يلجأ غالب الأمر لتحويل هذه الصلات حتى توافق ذوق الشعب . فهو يحقر من شأنها في (الكوميك) ويضعها دون المتعارف . ويكبر أمرها في (التراجيك) لتحمل ما يريد من بطولة فتصير بذلك فوق مطمع الإنسانية . وما كان فوق مثالنا يله مطمعنا لاستدعى منا أكثر من التحديق إعجاباً به أو عطفاً عليه أو تفرزاً منه . فإذا اتينا من التحديق رجعنا إلى عالم الحقيقة مغتبطين أن أمضينا من الحياة وقتاً غير مملول . وما كان دون متعارفنا كان موضع استهزائنا وسرورنا بعظمتنا الكاذبة .

لم يقف روسو من نقد التمثيل عند هذا الحد . بل لقد وجه إلى (التراجيديا) مذمة أنها تستنزف من دموع المتفرج وشفته بما لا يبقى عنده محلا لدمع يراق أو شفقة تبدو أمام آلام الحياة الواقعة . أما الكوميديا فترمي لغرض تعيس . ذلك أنها لا تطلب من الإنسان أن يكون فاضلاً أو غير شرير ، بل أن يكون بعيداً عن موضع سخرية الناس وانتقاصهم وذلك بأن يندمج في سلوكهم ويسير على متعارفهم . وأكثر متعارف الناس الكذب والأصائل .

وهذا مولير شيخ كتاب الكوميديا الفرنسيين . « اقرأه ثم انظر كيف يسخر من غير مبالاة بتعكير صفاء النظام القائم عليه الجمعية لغير سبب إلا ليضاعف أماريحه وسخرياته . انظر بأى جرأة مخزية يعث بأقدس الصلات وبهزأ بأوجب الحقوق احتراماً : حقوق الآباء على أبنائهم والرجال على نساءهم والسادة على

خدمهم . هو بلا شك يصل من ذلك ليضحكنا . ولكن مهارته في هذا تجعله أكثر مسئولية حيث يجذب العقلاء أنفسهم ليشهدوا من غير حق سخريات كان من الواجب أن تستثير غضبهم واشمئزازهم . قد يقال إنه يظعن النقائص . وإن أَدْعُو من شاء ليقارن بين النقائص التي يحاربها والنقائص التي بناصرها ثم ليحكم أى أصحابها أجدر بالملامة : فهل هو ذلك الرجل من أواسط الناس يدعوه بله وغروره ليحسب نفسه بين الأكابر أو هو ذلك الكبير اللص الذي يسرقه . ألم تمثل الرواية التي أشير إليها هذا الأخير الرجل الشريف وموضع الإعجاب . وهلا يصفق الناس طرباً بكل نكتة يؤذى بها الشخص الآخر - وهل هو ذلك الفلاح يبلغ منه الحق فيتزوج من آسة رقيقة مهذبة أو هي تلك الزوجة التي تسعى لتلوث شرف زوجها . فما بالك برواية يصفق فيها الحضور لخيانة وكذب وتبجح هذه الأخيرة ، ويضحك ساخراً من زوجها الذي لم يلق في نظرهم إلا الجزء الذي يستحقه - والبخل نقيصة لا شك كبرى - لكن أليست سرقة الابن أباه نقيصة أكبر منها - ثم ترى هذا الابن لا يحترم أباه ولا يأبى أن يوجه إليه ألف مسبة . فإذا غاظ الأب ذلك وبلغ منه الغضب حتى استمطر على ابنه اللعنات أجابه الابن في سخرية : إنه في غنى عن أعطيائه . قد تكون النكتة ظريفة رائعة ، لكنها ليست لذلك أقل استيجاباً للوم ، والرواية التي تجعل الابن الوقح الذي قالها موضع العطف إنما هي مدرسة لفساد الأخلاق .

على أن أهم روايات مولير - (الميزانتر أو الطيرة) - تحتل من هذا النقد الذي وجهه روسو إلى رواياته عامة القسم الأكبر والأهم . فهذه الرواية تكشف لنا أكثر من كل رواية سواها عن الغرض الذي وضعه مولير نصب عينيه في تأليف رواياته وتسمح لنا أن نقدر نتائج هذا الغرض تقديراً دقيقاً . فإنه وقد أراد أن يمتدحه الشعب قصد إلى ما يتذوقه الأكثر من منه من صفات وخلق من صاحب هذه الصفات بطلاً ثم جعل من مضادات هذه الصفات شخوصه المضحكة . ومن ثم يتضح أنه لم يكن يرمى إلى حسن تصوير الرجل الفاضل . وإنما كان مرموا مدح رجل

الجمعية الظريف Homme du monde

وهو إذن لم يكن يقصد تقويم النقائص ولكن ستر العوج الظاهر . ولقد وجد من الالتجاء للنقائص نفسها آلة لدرك هذا الغرض . لذلك فإنه لما أراد أن يجعل

ما ناقض صفات الرجل الطريف ، رجل الجمعية ، موضع المزو العام إختار الدور الذى يمحجه الناس : دور عوج الفضيلة بالنشبت بها . وذلك ماعمله فى (الميزانترى) . والميزانترى كما يعلم القارئ هى تلك الرواية البديعة التى وصف بها مولير الرجل الذى لا يعرف فى الحق والفضيلة مداجاة ولا مواربة والذى يقول للأعور فى عينه إنه أعور غير مهتم بصياغة ذلك فى قوالب الرقة والنظرف والتكئة الخلابة التى اعتادها القرن التاسع عشر فى فرنسا - والنساء والرجال عنده فى ذلك سبان . فهو لا يعرف كيف يطعن عند سيدة على قبة تلبسها سيدة أخرى فإذا ليست الأولى مثلها امتدحها قائلاً إنما جمال القبة بحمال لا بسنها . ولا يتم وقد عرض عليه (أورنت) الشاب منظوماً شعرياً وضعه ويريد أخذ رأيه فيه أن يقول له آخر الأمر : إن الأولى بهذا المقطوع أن يطرح فى المرحاض . ويصل به التشبث للفضيلة ليعلم كراهيته للناس جميعاً (لأن بعضهم شريرين والبعض فى الشر متساحون) . هذا الرجل هو أليست . وقد قابل به مولير فى الرواية فليست الطريف المنحب صديق كل الناس والحلو اللسان لكل من حضر منهم . قابله به ليجعل أليست موضع ضحك الحاضرين . وهذا هو ما هاج روسو ضد مولير وجعله يعتز به أليماً أيماً إثم .

فإذا كان هذا هو شأن مولير فما بالك بغيره . وهل يعشى أحد فلا يرى ما يثيره هؤلاء فى رواياتهم من السموم الفاتكة بالأخلاق المضعفة للهمم اجتلاباً لمسرة الجمهور ولرضاه . وإنك لترى أكثر ما ترى النساء على المسرح أخذت بنواصى العرفان مدبرات حكيما وما أبعد هذه الصفات عنهن ، وإنما يضع المؤلف الحكمة التى اختص بها هو وجنسه فى أفواههن وفى تصرفاتهن وفى حركاتهن فيبعث إلى نفوس النساء غروراً وتنبهاً ويضعف الرجال أمامهن . وكيف لا يضعفون وهم يرون فى فم تلك المستدقة على المسرح بدائع الأمثال وروائع الحكم فيحسبون للنساء فوق سلاحهن الطبيعى يتسلطن به على الرجال - سلاح التناسل - قوة أخرى من عقل راجح وذكاء متقد وفكر ثاقب . والحقيقة أن هذه القوة إنما هى قوة المؤلف وليس للنساء فيها أى نصيب . وتسلط النساء وضعف الرجال أمامهن فيه على الأخلاق العامة وعلى الملكات والقوى الإنسانية خطر ودمار كبير . لا يعجب القارئ من هذه اللهجة فى الكلام عن المرأة . فقد كان روسو قليل

الثقة بها قليل التقدير للمكاتبا . بحسب فيها مثلاً للشر ومغناطيساً يجذب الرجال على رقبهم عنها فى الجنس إلى الضعة والحقارة . ولذا نصح فى آخر الخطاب الذى نحن بصددته ألا يختلط الرجال بالنساء إلا فى ظروف خاصة . كما أن ما رسمه لثريتها فى كتاب (أميل) لا يدل على احترامه لجنسها . ويخيل لنا أن هذا الخلاف بين المفكرين فى شأن النساء لا يمكن أن ينتهى إلا إذا تمكن النساء أنفسهن من وضع حد له يعملن . وأما مادم من مقصورات على القيام بالوظيفة الطبيعية اللاتى يشابهن فيها إناث كل أنواع الحيوان قاصرات دون بلوغ أعلى المراتب الفكرية التى اختص بها الجنس الإنسانى فسيبقى من بين الرجال رحماء بهن وسيبقى إلى جانب هؤلاء الرحماء عدول قساة فى عدلهم مستمسكون بأن حقوق الأجناس وحقوق الأمم لا تتعلق بسوادها الأعظم ولكن بعقوبة النابغين فيها وقوتهم واستطاعتهم رفع هذا الجنس أو بعث الأمة إلى صف الاحترام والاعتبار . فما لم تخرج من بين النساء نابغة تقودهن جيشاً لتقرير حقوقهن فستبقى هاته الحقوق منحاً تحت رحمت المانحين إن شاءوا أفاضوا فى الكرم أو شاءوا ضيقوا الخناق .

ولسنا الآن بمعرض مناقشة هاته النظريات فلمناقشتها مكان آخر . وإنما يحسن بنا وقد وصلنا إلى ما وصلنا إليه من معرفة روسو أن نتساءل عن السبب الذى يجعله أميل إلى القسوة فى الكلام عن النساء مع ما كان له من الولع بهن . لقد كانت حياته كلها سلسلة تودد إلى السيدات وتعشق إياهن . فكان تشابه مشتركاً بين مدام دفارانس ومدموازيل دبرى ومدام بازيل ومدام دى لارناج . ثم انتقل بعد ذلك ليتجنب إلى مدام دبنائى ومدام دودنو وسينتقل من بعدهما إلى مدام دلكسمبور وإلى من سواها . فكيف به وهذه حاله وذلك تصرفه ميالاً للانتقام منهن . . . أو - على الأقل - لتطبيق مبادئ العدالة القاسية عليهن ؟

يقول أخصام روسو : إن هذه إلا نزعته من نزعاته المتهوسة التى كانت تجعله يتناقض مع نفسه فى كل شئ . فينادى بالمساواة والحرية ويطعن على الاستبداد وعلى امتياز الأشراف وهو فى كل حياته عائش فى كنف العظماء والعظيمات مطأطأ لهم رأسه ، ويطعن على العلوم والفنون وقد أمضى حياته كلها ينقل نوت الموسيقى ، ويكتب الروايات الغرامية وينقد التمثيل هذا النقد المروء هو كاتب (الميزجالانت . وملاك القرية) وغيرهما من الروايات التمثيلية ، ويكتب فى التربية ليودع أبناءه ملجأ

اللقطاء . قطعته على النساء لم يكن إلا متابعة للسب في طريق مناقضة نفسه بنفسه .

ولسا نذكر على روسو بعض التناقض بل الكثير منه . كلا ولا نحن نقول إن أعماله كانت تسير على مقتضى ما تدفع إليه أفكاره . ولكن هل من بين المفكرين من يسير في حياته العملية على آرائه ومبادئه النظرية . إنا جميعاً مكرهون على أن نعيش تحت حكم الوسط ولو خالف ذلك ميولنا وأهواءنا ، لأن الوسط هو الجو المستطاع فيه الحياة على ما يملؤه من مكروبات وجراثيم فاسدة . ولكننا غير مكرهين على أن نفكر كما يفكر الوسط . ذلك بأن الإنسانية استطاعت بجهداتها العظيمة أن تحل قيود الفكر وأن تترك للمفكر أن يخرج في جو غير عالم المادة المحيط به وأن يرتب في ذهنه صورة الحياة على نحو ما يريد ، وأن يخلق لهذه الصور منطقاً يثبت إمكان بقائها في ظروف سعيدة . لكن المفكر ملزم أن يعيش في حياته المادية عيش سواء أو دون هذا العيش بالقناعة بما دون الكفاف . ولو كانت القناعة من شأن رجال الأدب في القرن الثامن عشر لثبت تناقض روسو مع نفسه . ولكن هؤلاء كانوا جميعاً يعيشون عيش ترف حرم روسو منه شهوته ، ومنعه عليه غروره وغلواؤه الكاذبان .

فانتقاص روسو من النساء إذن لم يكن مجرد اندفاع في تيار التناقض ولا ميلا منه للإغراب . ولكن روسو كان من الأشخاص العاكفين على أنفسهم الميالين لتحليل ما يدور حولهم . وكان تقديره الأكبر للفكر والنظر . فلما رأى النساء أميل في هذا الباب للتأفف والضعف بطبعهن لم يلبث أن حكم عليهن حكمه القاسي غير مهتم بقيمة الأمومة ولا بشدة العاطفة ولا بقوة الضعف النسائي . وزاده قوة في يقينه ما كان عليه أكثر سيدات الطبقة التي أخذته في كفها من ادعاء الأدب . ولا شيء أتعس من دعوى النساء الأدب بله الفلسفة .

هذا هو أساس رأى روسو . وهذا هو ما جعله يرفع عقبرته ضد الحكم التي يضعها المؤلفون الروائيون في أفواه الممثلات لما في ذلك من استخضاع الرجال لجنسهن .

والمسرح يجر ضرراً آخر حينما يمثل العواطف وبالأخص عاطفة الحب على شكل يضعف النفوس ويلها حتى لا تمتنع عن الانقياد وراء هذه العاطفة

ولو على حساب الفضيلة . وقد بلغ المؤلفون أقصى مدى التفتن في ذلك ولم يعدوا يوماً أن يجدوا من الأعذار ما يبرر للمحب تضحية الواجب تحت أقدام عاطفته وعشقه . وهذا راسين أحد كبار مشايخ كتاب القرن السابع عشر الروائي يقدم لنا في جل رواياته المثل عن ذلك . ولعلك تذكر يا سيدي رواية أظننا حضرناها معاً من بضع سنين وأحسننا لمشهداها بسرور لم نكن نتوقعه . تلك رواية (برينيس) من روايات راسين . فلقد كان ميل من حضر هذه الرواية في بدايتها ميل تحقير لهذا الإمبراطور الروماني الذي يتردد كأخس الأخصاء بين معشوقته وواجبه وازدراء لما يصحب به هذا التردد المخجل السافل من توجعات مخيفة تحط من مقامه الذي يعطيه التاريخ شيئاً من شبه القداسة . أما آخر الرواية فقد انقلب الأمر وصار الجمهور يشكر حال ذلك الرجل الذي كان يحتقره . ويهتم لأمر عاطفة كان يجعله من قبل أثيراً بسببها ويتأوه في دخيلة نفسه لما سيكره هذا الملك عليه من تضحية شرف بلاده . هذا هو الإحساس الذي كان يدور بنفس الحضور جميعاً . فلقد كان لدور (تينس) أن يحدث في النفوس أثره المرجو لو أن هذا الملك ليس الثوب الذي يليق به . لكن الناس جميعاً شغروا إنما كانت كل الأهمية لبرينيس لأن حبها هو الذي استدعى الحادث الحاسم وحدد نوعه . وليس ذلك لأن توجعاتها وتأوهات المستمرة كانت ذات أثر مؤلم في أثناء الرواية ، ولكن لأنها في الفصل الخامس سكنت عن التأوه ونطق مظهرها المحزون وعينها الجامدة وصوتها المختنق عن ألم مستسلم مجاور لليأس فاستدرت عيون الحاضرين حين حبست هي عينها عن البكاء . فهل معنى ذلك إلا أنهم تخوفوا ما قد ينالها من طرد وما يصيب به ذلك قلبها من ألم . وهل لم يتمنوا جميعاً أن يطايط (تينس) رأسه ولو دعا ذلك للمبالغة في عدم احترامه . أفليست هذه رواية قامت بالغرض الذي وضعت من أجله وعلمت الناس كيف يجتازون محن الحب ويحاربون ضعفه .

وكما يضعف المسرح الرجال أمام النساء فإنه بما يمثل فيه ينقص من احترام الشباب للكهولة وللشيخوخة ويضطر العجائز إلى التشبه بالشبان في مرحهم وفوهم ويتزلفن بذلك إلى درك ما كان أغناهم عنه .

ليس إذن للتمثيل فائدة من أي جهة نظرنا إليه بل هو في عجزه عن تقويم الأخلاق يستطيع كثيراً إفسادها . فهو يزيد شهواتنا تحكماً فينا ، ويفسد أعصابنا ،

ويضعفنا عن مقاومة أهوائنا ، ولا يكون لما يُحبذ فيه من الفضيلة أثر إلا بمقدار ما يرضى أنفسنا رضى مؤقتاً .

أما المثلون فلا يستطيعون أن يكونوا مثال الفضيلة لأن وظيفتهم تقضى لهم شئ من الإباحية المبرجة يلزمهم نوعاً من الحياة لا يتفق مع مبادئ الصراحة والإخلاص . وكيف يرسى من شخص يقضى أهم وقته وأكثره ليكون غير نفسه أن يكون مثال الصدق والعدالة أم كيف نطالبه بالامتناع عن سلوك سبيل الإباحة في أعماله وحياته بينما يقتضى منه ووسطه الإباحة التامة ؟

« ثم ما هي براعة الممثل ؟ هي أن يقلد سواه ويلبس خلقاً غير خلقه ويظهر غير نفسه ويحتاج ودمه هادئ بارد ويقول ما لا يجول بخاطره بهوادة طبيعية ، كأن ما يقوله هو من بنات أفكاره ، وينسى مركزه لكثرة ما يقف في مركز سواه . وما هي حرفة الممثل ؟ هي حرفة يعرض بها الشخص نفسه أمام الجمهور بشئ معين ويعطيهم حق تحقيره والاستهانة به مقابل الأجر الذى يدفعونه ويبيعهم شخصه بيع السلع المعروضة في السوق . وإنى أستحلف كل مخلص هلا يشعر في أعماقه أن بيع الشخص نفسه على هذا الشكل أمر دنى سافل ، وأنتم أيها الفلاسفة يا من تدعون أنكم فوق الخزعبات المتداولة . أفلا تموتون خجلاً إذا ألستم لياب الملوك وقدمتم لتقوموا أمام الجمهور بدور غير دوركم ولتعرضوا لجلالكم لآزواجته وصحبه . فالممثل إذن لا يفيد في الحقيقة من حرفته إلا الدناءة والكذب وباطل الغرور والعبودية السافلة التى تجعله صالحاً لأن يكون كل الأشخاص إلا أشرفهم وأكرمهم - إلا أن يكون رجلاً » .

لكن التمثيل والمثلين هم خلق مدنية معينة وعصر معين فلا يمكن أن يكونوا خوارج على حياة بلاد وعصر أنبتاهما . إنما هم قسم من الحياة في ذلك الزمان والمكان ومكروب من مكروبات جو المدن الكبرى أصبح جزءاً منه لا يمكن انفصاله عنه ، ولكن الجريمة كل الجريمة تلقيج جو المدن الصغيرة الصحيح الصافي بهذا المكروب الفتاك .

وهذا هو ما ينادى به روسو حين يقول : « في مدينة كبيرة ملأى بالدسائين والعاطلين ومن لا دين لهم ولا مبدأ ممن أفسد خيالهم الكسل والبطالة وجب الشهوات وكثرة الحاجات ، في مدينة كبيرة لا قيمة فيها للأخلاق ولا للشرف . وحيث

يسهل على كل إنسان أن يبطن على الناس حقيقة أمره وألا يظهر لهم إلا ما يفيد مركزه ثم هو لا ينال من الاحترام إلا على مقدار ثروته . في مثل هذه المدينة يتعين على أولى الأمر أن يستكثروا من الملاذ المباحة وأن يسعوا لجعل كل ما يوجد منها رقيقاً جذاباً إلى حد يبعد عن الأفراد ما يستهويهم إلى « واهها بما هو أشد منها خطراً » . ومادام عمل الناس ثبت شر كله ، ومنعهم عن العمل منعاً لهم عن مفارقة الآثام ، فإن إضاعة ساعتين تخمد فيهما حركة الشر هو بمثابة منح جزء من اثني عشر جزءاً من الجرائم التى ترتكب . فإن ما يقع في الملاهي وملاجئ العاطلين من تنمية وغيبة وما هو شر منهما إنما هو كسب للآباء في شرف بناتهم أو زوجاتهم وفي مالهم أو مال أبنائهم .

« أما في المدن الصغيرة القليلة السكان حيث كل فرد رقيب بطبعه على كل من سواه لأن كل فرد واقع تحت النظر العام وحيث يسهل على الشرطة وأولى الأمر المراقبة والتدقيق فيجب اتباع مبادئ مخالفة لتلك كل المخالفة . فإما إن كان في المدينة صناعات ومهن وفنون فالواجب اتخاذ الحيطة حتى لا يكون لدى الأهلى من دواعى اللهو ما يضعف في نفوسهم الاغتياب بهذه المهن والتلذذ بالعمل فيها بما يزيد في ثروة الأمير وتقدير الرعية . وأما إذا كان الناس يعيشون عيش البطالة ولا تجارة لهم فيجب ألا يحجب إليهم الخمول الذى هو أصل فيهم بطبيعة العيش البسيط الذى يعيشونه . بل يجب على العكس من ذلك أن يكونوا بحيث لا يطبقون البطالة بالتزامهم خلق أعمال مفيدة يضعون فيها ما فاض من وقته .

« وإنى أرى الناس في باريس - وشأنهم في الحكم على الأشياء أن يأخذوا بظواهرها لعدم وجود فراغ لديهم يسمح بالإمعان في بحثها - يحسبون أن سكان مدائن الريف التى يوههم ظاهرها لصاحب النظرة الأولى بالهمود والبطالة هم قوم غرقى في سكينتهم المتبدلة ليس لهم من الحياة إلا عيش الاستنبات المميت أو الشحاء والخصومة ، وهذا خطأ سرعان ما يرجع الإنسان عنه متى ذكر أن الأكثرين من رجال الأدب المشهورين في باريس وأن معظم الاكتشافات المفيدة والاختراعات الجديدة إنما نجى إليها من هذه الأرياف الحقيرة في نظر أهلها . . ولو أنك بقيت زمناً في إحدى هذه المدن الصغيرة ، لم تحسب فيها بادئ الأمر إلا مكنت لا إرادة

لها ، لرأيت ، فضلاً عن أن الناس أكثر تعقلاً من القردة أهل المدن الكبرى ، أنك لن تعدم أن تجد في بعض أركانها رجلاً دقيقاً يدهشك بمواهبه وأعماره ويدهشه منك أن تعجب به ، ويربك معجزاته في العمل وفي الصبر والصناعة معتقداً أنه إنما يربك أشياء معتاداً نظيرها في باريس . تلك هي بساطة العبقرية الحقبة . وليس هذا الرجل دسائساً ولا كثير الحركة إذ هو يجهل طريق الألقاب والثروة ولا يفكر في البحث عنهما ولا يقارن نفسه بأحد . كل ما يصدر عنه راجع إلى ذاته . لا تهزه مطاعن الغير وقل أن تسره مدائحهم . فإذا قدر نفسه لم يهتم بالسعي ليعضها في المركز الواجب لها بل يبقى ممتعاً بذاته من غير اغترار .

فحين الجريمة إذن تحويل أنظار أهل هذه المدن الصغيرة ، حيث العمل الجلد والنواضع الجميل ، عن أعمالهم إلى اللهو يخلق مسارح يضيعون وقتهم فيها ويعتادون البطالة بها ، وتكون حملاً عليهم في نفقاتها ومثلاً سيئاً لهم بمثلها الذين لا يستطيعون أن يكونوا صالحى الأخلاق . وليس معنى هذا أن يحرم هؤلاء الناس من كل متاع ، بل يمكن أن تكون لديهم أنواع المتاع البرية التي عرفوا كل أيام حياتهم والتي تليق دون سواها بهم . وقد عرف روسو قوماً يقيمون في جبل على مقربة من نيوشابل ويعيشون ممتعين بالحياة أجمل متاع لأنهم يشتغلون معظم وقتهم ويقضون ساعات الراحة في لهو برى . فكل منهم يعرف الموسيقى وكلهم يغنى ويجب الغناء وكلهم يسر أكبر السرور بتمضية وقته مع الآخرين يتحدثون ويتناجون مبتهجين فرحين .

وهنا يذكر روسو مطلوا ما يدعوه للاعتقاد بأن المثلة لا يمكن أن تكون امرأة فاضلة وبضرورة عكوف المرأة على منزلها واشتغالها بالوظائف التي أعدتها الطبيعة لها ، ويرد بشدة على الكتاب الإباحيين الذين يقولون لم لا تتمتع المرأة بما يتمتع به الرجل ، وهل يعطى لنصف الإنسانية حق يسلبه الآخر قال : « يقولون وكيف يكون مزرعياً بالمرأة ما لا يكون مزرعياً بالرجل ولم يعد جريمة لأحد الجنسين ما يباح للآخر ، كأن كانت نتائج عمل الطرفين واحدة أو كان أدق واجبات المرأة لا ترجع إلى وجوب أن يكون لكل طفل أباً » .

ومن الجريمة إذن أيضاً خلق مسرح في جنيف وهي مدينة صغيرة بقطنها عشرون ألفاً يعيشون عيش الفضيلة ويتمتعون بأنواع برية من اللهو تسلى وقتهم

ولا تصيب مدينتهم بسوء . . . وسين ارتاح الأجانب للمقام بها أم هم لم يستريحوا فليس من العدل ولا من حسن السياسة إفساد أهل الدار على أنفسهم لإدخال المسرة على الغرب النازح . كفى الباريسى الذي يحضر إلى مدينة كلفن أن يرى ما فيها من جميل المناظر وفاضل الأخلاق . وربما كان له في الابتعاد عن موبقات تلك المدينة المضطربة ما يهدئ أعصابه ويبعد إليه بعض سكينته .

أما المناظر البرية التي يرى روسو ضرورة الاستكثار منها في المدن الصغيرة استبعاداً للسمامة والقلق من النفوس فيجب أن تكون على حد عظيم من البساطة والمقاربة للحال الطبيعية . ولو أن أهل جنيف كانوا على الفطرة الأولى وكانت مجاورتهم للمدينة الفاسدة لم تفسد عليهم بعض فضائلهم لفضل لهم روسو قصر الشابات العاريات كما كان يحدث في إسبرطة . ولكن ذلك قد أصبح للأسف غير ممكن بفضل هذا الفساد فلم يبق إلا أن يستزيد أهل جنيف مما عندهم من أنواع الرياضة وأن يقيموا أعياداً عدة للسباحة والرماية وغيرها : « أما أن تنقل إليها هذه الملاهي التي تشتمل عدداً قليلاً في قاعة مظلمة يبقون فيها سكوتاً مبهوتين لا ترى أعينهم إلا المعازل والسيوف والعساكر والصور المفزعة صور الاستعباد وعدم المساواة فلا . . . بل أى هذا الشعب السعيد . ليست تلك أعيادكم . إنما أعيادكم أن تجتمعوا في الهواء الطلق تحت السماء الحرة تمتعون بهناء تكتم وسعادتكم . . . ولا تكونن مسراتكم مخننة ولا ممثلوكم سلماً . ثم فلا يرسل ثمت إليها أي شيء مما يشعر بالخوف أو المنفعة . بل لتكون حرة كريمة مثلكم . ثم لتضيء الشمس ملاعبكم البرية تكن قد أضاعت أكرم ما يمكن أن يسقط عليه نورها » .

أما في الشتاء حيث يحول الطقس دون مثل هذه الملاعب والأعياد فليجتمع الشبان والفتيات في بهو متسع تحت نظر ورقابة الأكابر والعجائز - لأن روسو لا يميل إلى اجتماعهم عادة أحراراً - وليكن أهم غرض من ذلك أن يقع كل شاب على الفتاة التي يعد منها للمستقبل زوجاً . . . وقد رتب روسو هذه الاجتماعات ترتيباً دقيقاً وأراد أن يجعل لرئاستها حكماً ينظر في كل ما يحدث فيها .

هذا هو خطاب روسو إلى دالمبير عن المناظر . قال جول لمر (وكما قدم روسو للثورة لغتها في خطابه الأولين فهو بخطابه هذا يعين لها أعيادها - وكذلك فسيين لها في عقده الاجتماعى فكرتها عن الحكومة) .

وأنا تشارك روسو عقيدته في أن المسرح لا يمكن أن يكون موضع درس أو تفهيم للأخلاق ، ذلك لأن الأخلاق تتكون بالزمان وفي سنين طويلة وتحت آثار قوية شتى فلا يمكن أن يغيرها مؤلف أو ممثل في سوية . ثم إن اتجاه الإنسان ساعة ذهبه للمسرح يختلف عن اتجاهه ساعة ذهابه لقاعة الدرس بل هو يعاكس هذا الاتجاه الأخير ويناقضه . فالواحد يذهب إلى المسرح بفكرة اللهو وإضاعة الوقت في إمتاع العين والأذن وفي إراحة النفس من عناء عمل الحياة . ولا شك في أن الاتجاه والفكرة التي تحركنا نحو شيء من الأشياء هي التي تعين الأثر الذي يتركه هذا الشيء في نفوسنا ، كما لا شك في أننا حين نذهب بفكرة إضاعة الوقت نكون أبعد ما نكون عن فكرة الدرس والاستفادة .

ثم إن ما نراه على المسرح من الصور والمناظر وما نسمعه من مختلف الآراء ليس من شأنه أن يدفع إلى نفوسنا عقيدة تستقر عندها وتتطبع فيها ، بل هي لذة ساعة نلهم فيها بهذه الصور والمناظر والأفكار ثم ننساها وتبقى عندنا في حيز الرواية والحكاية لا في حيز العقيدة والاقتناع . وربما استشهدنا بها يوماً حين نقص خبراً أو نؤيد رأياً ولكننا لا نرجع إليها حين نرتبك في أدق أمورنا الخاصة . والأخلاق والفضائل عقائد تتكون في نفوسنا وتثبت فيها فسير عليها في حياتنا من غير بحث ولا تفكير .

أما أن المسرح يستطيع إفساد الأخلاق ففيه من روسو إغراق كثير ، ولكنه يحتوى أيضاً جانباً من الحقيقة . وما علينا إلا أن نرى ما تتركه الهزليات في النفوس والأذهان والحافظات من الأثر ثم نقرنه إلى ما يبقى بعد الروايات الجدية لنرى أن السخف والسخرية أقرب للتعليق بالنفوس ، خصوصاً نفوس هذه الأجيال المادية الإباحية ، كما أن ما يسعى وراءه المؤلفون التمثيليين من تحليل الأخلاق وعرضها للنقد العام والاستخفاف ببعض منها من شأنه أن يهدم بعض أركان الأخلاق المرتكزة على مجرد العقيدة من غير استناد إلى العقل والبحث . ومن هذه الأخلاق الاعتقادية ما هو كبير الفائدة .

ولخطاب روسو هذا روعة تحبب إلى النفس قراءته وفيه أفكار وصور تجعله لذيذاً جذاباً . وهو أكثر سكينه ورزاقاً من الخطابين السابقين خطاب العلوم والفنون وخطاب عدم المساواة ، وبدل على أن روسو ساعة كتبه كان في أهدأ

وأهناً أيامه . وما لبث أن ظهر في عالم المطبوعات حتى تخاطفته الأيدي وتعددت منه الطباعات .

وقد استثار هذا الخطاب حوالى أربعمائة رد عليه . على أن أهم الردود هما رد مارمونتيل ورد دالمبير نفسه . ولم يمنع فولتير أن يعاون مركز (زيمن) في الرد على روسو بعد ما اعتقد أن كلمة روسو موجهة إليه خاصة . فأما رد مارمونتيل فسطحي ضعيف . وأما رد دالمبير فدقيق حشو النكات البالغة والتفريع المر . وحسبنا منه هذه العبارة لنرى كم كاد فيه لروسو : قال : « إن الأكثرين من خطباء المسيحية يحكمون على ما لا يعرفون حينما يتكلمون عن الكوميديا . أما أنت فقد درست وحللت ووضعت بنفسك هذا السم القاتل الذي تسعى لزيادة اليوم عنا . ثم نراك تطعن على رواياتنا وقد ألقت فيها بله ما شاهدت منها . قد أعلم رأيتك في أن الملاحى لازمة في مدينة بلغت من الفساد ما بلغت تلك المدينة التي أقمت فيها زمناً طويلاً . وإنما لأهلها الضالين لا لأهل وطنك ألقت رواياتك . أى أنك يا سيدى قد عاملتنا معاملة تلك الحيوانات المريضة يقضى عليها قتلاً مخافة أن يمتد بها الألم . وقد كان لسواك أن يهتم بهذا الأمر ويوفر على حسن ذوقك مثل هذا الطعن بعد الذى كان بيننا لما ألقت من نجاح وإقبال أعلاك كشاعر وكموسيقى وجعل للتمثيل من الأنصار مبلغ ما صرفت عنه بلاغتك . لهذا قلن يضر الابتهاج بقراءتك الابتهاج بسماحك وستبقى طويلاً تعاني الألم أن نرى روايتك (ملاك القرية) تفسد كل ما استطاعت كتاباتك ضد المسرح أن تنجي به » .

وأما فولتير فقد رأى في روسو العدو اللدود والعقبة الكؤود بعد نشر هذا الكتاب فجعل يطعن عليه بكل لسان ويرميه بكل مسبة ويفسد عليه كل سبيل ، ولا عجب فقد كان هم فولتير أن تمثل رواياته على مقربة من مقامه (الدليس) بخفيف فإذا هذا الصائح ينفر عنه الناس ويخيفهم من أذى عمله ويقول لهم : « إياكم والروايات فهي مبعدة لكم عن الطبيعة مقربة إياكم من الفساد لأنها أبعد ما وصل الإنسان إليه في التصنع والكذب والظهور بغير مظهره » . وأنا تنقل للقارئ هنا شيئاً من الخطابات المتفرقة التي أرسل بها فولتير لبعض أصدقائه بهذه المناسبة ليرى كم كان أبو السخرية مهتاجاً مضطرباً :

فقد كتب إلى دالمير : « أصبح أن روسو كتب ضدك ووجدت شحنة مقال جنيف . (وهى الشحنة الدينية التى سبقت الإشارة إليها) بل لقد بلغنى فضلاً عن هذا أن المسخف بلغ منه حتى قام فى وجه التمثيل . وإنه فى هذا ليرتكب خطيئتين : فهو يطعن على فن عالجه ويكتب ضدك وقد أثقلته بالمدايح » .
وكتب بعد ذلك إلى (تيريو) : « أما عن جان جاك فإن جنيف كلها تهرع إلى التمثيل من كل صوب وحذب بالرغم مما كتبه هو ضده وكذلك أصبحت مدينة كلفن مدينة المسرات والتسامح » .

ثم كتب إلى دالمير : أترك تجيب حقاً على هذا المجنون روسو . هذا اللقيط ابن كلب ديوجانوس . . ثم كتب إليه أيضاً : أنتازلت لترضى فتقارع هذا المجنون جان جاك بالحجة والدليل .

وفى هذا الحين نشر خطاب عن التفاؤل كان روسو قد بعث به إلى فولتير ولم يسمح له بنشره . فلما رآه منشوراً طار صوابه وكتب إلى فولتير يحاسبه على نشره ويعاتبه ويلومه . ثم ما أسرع ما انتقل من لهجة اللوم والعتاب إلى المصارحة بالعدوان قال : « إننى لا أحبك يا سيدى حيث أذيتنى وأنا تلميذك والمعجب بك أذى بلغ منى . فقد أضعت جنيف حين آوتك وأبعدت عنى أهل وطنى جزاءى على ما قمت به من تحييدك والتصفيق لك بينهم . وأنت الذى تجعل مقامى فى بلادى غير محتمل وأنت الذى سنجعلنى أموت فى أرض غريبة محروماً من كل ما يعزى به الماثنون ، وملقى فى الثرى من غير أى تشريف فى حين أراك تلقى فى بلادى كل أنواع التكريم والتشريف التى يطمع فيها إنسان . . بل . فأنا أكرهك وأنت الذى أردت ذلك . لكنى أكرهك كراهية رجل كان أجدر به أن يحبك لو أنك أردت محبته . ولم يبق فى قلبى من العواطف التى كانت فيه لك إلا إعجاباً لا يستطيع أحد أن يمنعه عن عبقريتك وإلا محبة مكروباتك . وليس ذنبى أنى لا أستطيع أن أحترم إلا كفاءتك . ولكنى سأحترمها دائماً وأقدم ما يجب لها من الفرائض . وداعاً يا سيدى » .

وكان هذا الخطاب آخر العهد بين فولتير وروسو . فلم يرد عليه فولتير . ثم لم يفتأ بعد ذلك أن ينتقص من روسو كلما عرضت الفرصة بل كلما عرض اسمه . ولم يكتف بأن ينسب إليه الجنون والغرور والنقصان طراً بل ادعى عليه أنه انضم

إلى أخصامه فى جنيف وأراد الإضرار به . قال أميل فاجيه : « وكل ما هناك فى مكاتبات روسو أن روسو به غيرة من فولتير وأنه يتعمد انحطاط الأخلاق فى مسقط رأسه ويعتقد أن لفولتير بدأ فى المعاونة على هذا الانحطاط . أما ما سوى ذلك فمحمض وهم من فولتير ، وهو المتظن فى كل شئ تظن روسو وإن يك على شكل آخر . وإن تبادل العداوة بين هذين المصايين بحمق معاداة الناس طراً أمر يستحق النظر . وسنجدهما متواجهين عما قريب » .

وفى هذه الأثناء ظل روسو محتفظاً بما كان قد اعترمه من الابتعاد عن الكبراء والعظماء . أو بالأحرى لم تسمح فرصة جديدة تخضعه لهم . فقد كان زواره (بمونلوى) جماعة من محبيه والمعجبين به من سواد الناس ومن ليس لهم دالة الشرف والثروة . ولهذا رأيناه أتم خطابه إلى دالمير فى ثلاثة أسابيع واستمر فى كتابة روايته هلويز الجديدة . وقد كان أشد الناس التصاقاً به شاب اسمه (دلير) من المولعين بالأدب وعلى شئ غير قليل من الغفلة بلغ به حتى اقتاد رفيقته وصاحبتان لها إلى منزل روسو الذى انسل من الدار حينما علم بالأمر وتركها لهم . وقد أغضبه تصرف صديقه حتى ذكر له رفيقته بلفظ التحقير . وبعد تبادل الخطابات بينهما فى هذا الباب تنوسيت المسألة ورجعا لما كان عليه من حسن العلاقة .

غير أن روسو لا يمكن أن يعيش طويلاً على هذه الطريقة . إنه رجل ولد صغيراً وطعن على الكبراء بنغمة استلفتت الأنظار واستدعت الإعجاب فجعلته موضع عطف هؤلاء الكبراء أنفسهم بما ركب فى النفس الإنسانية من التناقض ، وجعلته وهو الداعى إلى الحرية المحب للمساواة المنادى بالبساطة الطبيعية ينتقل من ظل كابر إلى ظل كابر آخر . لهذا فلم يطل به المقام فى « مونلوى » حتى تعرف بالمركيزة فردلن وبالبيرنس دوكونتى وبالمارشال دلكمسيور وزوجته . ولم يمض بعد ذلك زمن طويل حتى انطوى تحت جناحهم وإن احتفظ بشئ من حريته التى كان قد فقدوها تماماً فى كنف مدام دبنائى ومدام دودتو وأصحابها .

وكذلك رجع العصفور إلى القفص من جديد .

بقى جان جاك في منزله بمونلوي حرّاً من قيود الكبراء مكثفياً بصداقة رجال ونساء كانوا جميعاً يودونه ولا يطلبون منه أكثر من مجرد الصداقة . ولقد ذكر في اعترافاته أسماء الكثيرين منهم أمثال كونديه ومالتور والأب برتبييه وغيرهم . وكان كلما أوغل في وحدته وانقطاعه ازداد عقيدة أن أصدقاء الأقدمين يعملون جميعاً بدءاً واحدة على الوقيعة به والقضاء على سمعته وشهرته . وكان أهم ما بلغه أنهم ينعون عليه انقطاعه عن باريس إلى الخلاء وعلاقته بمدام دودتو ورفضه مصاحبة مدام دبناي إلى جنيف وتركه الصومعة . فلما بلغته هذه الطاعن زادت انكماشاً بل جعلته يفكر في ترك التأليف والأدب ويتعد عن الناس إلى الأرياف فلا يعرف عنه أحد شيئاً . وزاده تمسكاً باعتقاده أن زاره سان لميير في مسكنه الجديد وقص عليه أشياء عن مدام دودتو لم يفض رسو بها إلا لصديقه الحميم ديدرو. فلما استأذن كلام سان لميير على سمعه أيقن أن ديدرو نفسه انقلب عليه وأنه أصبح ولا صديق له . قدس في مقدمة كتابه إلى دالمير عن المناظر كلمة استعارها من (الأكليزيستيك) أشار بها إلى انقطاع الصلة بينه وبين صديقه مقلداً في ذلك (مونتي) حين أعلن للملأ على أثر انقطاع الصداقة بينه وبين الأب تورنمين خير هذه الحادثة قائلاً : (لا تسمعوا لما يقوله الأب تورنمين عني ولا ما أقوله عنه فقد انبت جبل صداقتنا) . لكن هذا التصرف الذي لاقى من الناس إعجاباً بمونتي انقلب على رسو وأعتبر مأخذاً جديداً عليه . فقد رد إليه سان لميير هذا الكتاب حيناً أهده إياه وشفع رده بخطاب قدح به في تصرف رسو أشد القدح ، وبلغ من ذلك أن أعلنه بانقطاع كل صلة بينهما. وكذلك خيل لروسو أن لم يبق له حتى ولا من القدر نصير . وظل وكل عزائه عن هذه المصائب المتتابعة أنه لم يقصد بإنسان سوءاً وأن قلبه أطيب القلوب .

وأنه ليلظن أن قد تم انقطاع أصدقائه الأقدمين طراً عنه إذ وصله خطاب من المسيو (دبناس) يشكر له فيه إهداءه كتابه عن المناظر ويعتذر بكثرة أشغاله

عن عدم ذهابه إليه ويدعوه لتناول العشاء معه عند مدام (دوين) حيث يكون سان لميير وفرانكي ومدام دودتو ويخبره أنهم جميعاً يودون أن يكون رسو من جماعتهم . فقبل رسو الدعوة بعد تردد . ولما ذهب في الموعد المعين أحسن الحضور جميعاً استقباله فأصلح ذلك بعض الشيء من علاقته بسان لميير ، وإن لم بعدها إلى سابق شأنها . وكذلك كان الأمر فيما يتعلق بمدام دودتو ، كان من نتيجة ذلك أن أعاد إلى رسو سابق هدوئه .

وفي شتاء سنة ١٧٥٨ انتهى من كتابة الهلويز وفكر في طبعها ونشرها وبعث بها إلى الناشر (رى) في أمستردام . ولقد كان تصحيح مثل هذا الكتاب وطبعه مما يكلفه كبير عناء لولا أنه عرف في ذلك الحين المسيو لا مونيون دى مالرب رئيس المكتبة المالوكية معرفة زادت توطداً مع الأيام وجبت كل واحد منهما إلى صاحبه وجعلت مالرب يستعين بمركزه لاستيراد (بروفات) الكتاب من أمستردام مع بريده هو من غير أجر ويرسلها لروسو كذلك ليعنى بتصحيحها وردها عن الطريق عينه مما وفر على رسو كثيراً قد كان يثقله لو أنه اضطر أن يدفع كل هذه النفقات من جيبه .

وفوق تفضله باستيراد (بروفات) الهلويز من أمستردام وردها إليها فقد أخذ المسيو مالرب على نفسه النظر في الرواية وإجراء التصحيحات اللازمة لإمكان طبعها ونشرها في فرنسا . ذلك أن حرية النشر لم تكن مبدأ مقررأ في ذلك العصر كما هي اليوم ، بل كان من الواجب عرض أى كتاب قبل طبعه حتى لا يصادر أو يلقى القبض على صاحبه . ولقد كان دالمير نفسه هو الذي قام بالنظر في خطاب رسو عن المناظر ورأى أن لا مانع من طبعه . كذلك أخذ المسيو مالرب على عاتقه النظر في الهلويز لهذه الغاية . وقد فصل عنها بعضاً مما في النسخة الأصلية مما رأى أنه قد يمس إحساسات بعض أشخاص في البلاط وبالأخص مدام دى بمبادور .

وكان من أفضال مالرب على رسو فوق ما سبق أن عرض عليه عن طريق المسيو مارجنسى وظيفة التحرير في جريدة العلماء . وبعد تردد بين قبول ذلك المركز أو رفضه . فضل رسو الرفض ، قال : « لقد كنت أعلم أن امتيازى في الكتابة راجع إلى حرارة في النفس تمس ما أعالجه من الموضوعات ، وأنه حب

العظيم والحق والجميل هو الذي يحرك عقربتي ... لكنهم ظنوا أنني أستطيع الكتابة بالحرقة كما يكتب كل من سواي من الأدباء . والحق أنني ما كتبت إلا تحت دافع شهوة الكتابة والفكرة .»

وما زاد روسو تشبهاً بالرفض أنه كان قد اعتزم في نفسه ترك الأدب والتأليف تفرّداً من رجال الأدب ومن الكبراء وعجزاً عن السير على منوال هؤلاء في تفقّات كانوا يكلفونه إياها وهم يحسبون أنهم يسدون إليه النعمة ويتقدمون إليه بالبد والجميل . وثبته في عزومه ما أفاده من طبع خطاب الناظر وهلويز الجديدة التي لم تكن قد ظهرت بعد ، وما كان ينتظره من الكتب الأخرى ككتاب التربية وكالعقد الاجتماعي وكان لا يقدماً للطبع . لكن الأقدار قضت على روسو أن يعيش دائماً في تناقض مع نفسه وفي نقض لإرادته . وإنه لعند عزومه هذا ورفضه مركز التحرير في جريدة العلماء إذ عرضت فرصة رده عن عزومه وأنه سائق نصيبه ألا يكون له كبار أو شريف علاقة واستدرجته من جديد لينفض لئير الكبراء والمعلماء .

قلد كان في مونتني قصر بديع بناه (كروازا) لأسرة مونتني ثم آل بعد ذلك إلى دوق لكسمبور أحد مارشالات فرنسا . وكان للارشال وزوجه يميثان إلى هذا القصر مرتين في كل عام فيمضيان فيه خمسة أسابيع أوتية . فلما جاءوا إلى مونتني بعد أن أقام روسو بها أرسلوا إليه رسلاً من عندهم يهديه تحيتهم ويدعوه لتناول المشاء بالقصر كلما طاب له ذلك . وكان مدام دلكسمبور عثرت من روسو على ما كانت تطمع فيه كل سيدات ذلك العصر : أديب من الأدباء الظاهرين تحلى به دارها وتجعله زينة صالونها ويقيم عند الضرورة بجملتها . لكن روسو وقد ذاق الأمرين من الاتصال بالكبراء اكتفى بشكر الرسول عن حسن عطف الدوق والدوقة عليه . وكان ذلك شأنه دائماً في المرات التي تردد فيها الرسول ، ثابتاً عند عزومه ألا يكون بينه وبين كبار تجارة بعد الذي رآه منهم . وإنه كذلك في بعض أيام ربيع سنة ١٧٥٩ إذ أقبل عليه دوق لكسمبور بنفسه ومعه بعض أصحاب له : « فلم يكن لي بعد ذلك من وسيلة للتخلص من رد زيارته والتقدم للسيدة زوجته بريق النخبة مقابل ما أبلغني من تعلقها إلا أن أكون غراً وقصاً . وكذلك بدأت تحت هذه الطوالع المنحومة علاقات لم يكن في مقصودي التخلص منها

برغم إحساس في نفسي كان يجعلني أخشاهما أشد خشية .»
وكان أشد ما يتخوفه روسو مدام دلكسمبور من حيث الطبع
برغم ما كانت عليه في شبابه من جمال ورقة . وإنه ليعلم ذلك من زمن طويل
مضى حيث كان قد رآها قبل هذه المرة بنحو اثني عشرة سنة حين كانت لا تزال
تدعى ديوفليه باسم زوجها الأول . وقد وصفها مدام دوقان يومئذ بقولها :

« إن دوقه ديوفليه جميلة جداً لا تحتاج أن تحجر به . محلقها (وجهها)
كله الحياة والقوة ونظراتها تعبر عما يدور بدخيلة نفسها حتى ليسل على قليل
الملاحظة معرفة ما تفكر فيه من غير أن تقول هي . وحركاتها بديعة وطبيعية وتتفق
مع كل ما تقول بحيث يصعب على سامعها أن يمنع نفسه فلا يساق للتفكير
والإحساس على مثالها ، وطا السلطان حيث تكون . وجب تكون تحدث الأثر
الذي تريد إحداثه ، وهي تتفق من فضائلها وأفضالها على طريقة الآلة حيث
تتركنا نفل أنفسنا أحراراً أمامها في حين أنها تصرفنا كما تشاء ، وطا من قوة النفاذ
إلى دخيلة النفس ما يجعلنا نضطرب أمامها ، ومن ثم كانت مدام ديوفليه مخوفة
أكثر منها محبوبة . وهي تعلم ذلك ولا تسعى لتغيير رأي أعدائها فيها بالتودد
أو بملابقتهم بما يختلف مع شدة خلقها ، وإنما تنعزى بحسن رأي أصدقائها فيها
وتما توحى به إليهم من المواطن الطيبة . وهي ذكية الفؤاد سليمة الذوق ودية
لمهودها مخلصه لصديقاتها صريحة كتوبة خدومة كريمة . ولو أنها كانت أقل
بعد نظر أو أن الرجال كانوا أحسن نية لرأوا فيها مثلي الكمال .» وقال وليول عنها
وكان ذلك أيام عرفها جان جاك :

« لقد كانت غاية في الجمال إباحية شريرة . واليوم ذهب جمالها وانقض
من حواف عشاقها وصارت تحب أن الشيطان يحوم بها ويقدم نحوها ، لكن
تضعفها هذا سكن من حدتها حتى صارت تداق بماذا من نافذ الدهن وحسن
الخلق .»

لكن خشية روسو إياها تطايرت كلها لأول ما قابلها . قال : « وما كدت
أراها حتى خضعت لها أن وحدتها جذابة بديعة ذلك الإبداع الذي لا يعمل
فيه الزمن ويعمل هو في قلبي . وكنت أنتظر أن أجد حديثها ملوفاً بالوخزات والمغاز
فلم يك شيء من ذلك . وكان حديثها أحسن مما توقعت كثيراً ، فهو ليس ممتازاً

... ولا بالمفاجآت بل ولا بالدقة وإنما هي رقة لذيدة تسر دائماً ولا تنصر

أما تعلقها فأبلغ من السحر؛ لأنه أكثر بساطة حتى ليظن الإنسان أنها تقول
صمته من غير أن تفكر فيها، وأن قلبها يفيض بهذه الكلمات لا سبب إلا
شدة امتلائه بها. وإنما بقي لديه من أثر هذه الخشية شيء بعث به إلى نفسه دوقه
... تسمى زوج ابن دوقه لكسمبور التي لم تمتنع عن العتب به بعض الشيء مما
... شكوكه المتحفرة دائماً أن تثور.

على أن هذه الشكوك ما لبثت أن زالت هي الأخرى بما أبداه له دوق لكسمبور
من حسن العطف والعناية حتى لحسب روسو ذلك صداقة نزل معها الدوق عن
كل اعتبارات الألقاب ليضع نفسه ك مساو لصاحب خطاب المساواة. وأحسن
رؤسولذلك بسعادة عظيمة، وبلغ من عناية الدوق به أن دعه ليكون في الأكاديمية
الفرنسية فتعمل بديانته البروتستانتية. فلما أظهرت له أن كل شيء ممكن إزالته
بفضل الدوق وصداقته للملك أصر على الرفض قائلاً إن الأكاديميات التي ترفض
أن يكون من بين أعضائها أفاضل أمثال تريسان وملك بولونيا ليس من كبير
الشرف الانتساب إليها.

ولما زار الدوق منزله أول مرة وجده مهتماً غير صالح حتى اضطرب روسو يومئذ
أن يجلسه هو وحاشيته في البرج الذي يشتغل فيه معرضين لقارس البرد ولا فح
الزمهرير. فلما عاد وحادث الدوق واتصل ما بينهم وبين روسو عرضاً عليه أن
يقوما بإصلاح بيته وأن يقيم هو في أثناء ذلك في القصر عندهم، وله الخيار ما بين
غرف القصر نفسه أو الإقامة في القصر الصغير. وهو بناء متعزل قائم وسط حديقة
القصر المتسعة البديعة ينتشر فوق مرتفعاتها ومنخفضاتها وبين بطونها وهادها أنواع
الزهر والشجر وبرك الماء ويتوج أرفع بقاعها بناء القصر القخم. أما القصر
الصغير فقام بين أشجار البرتقال من ناحية وبرك الماء من ناحية أخرى فوق عمد
عديدة نظمت بحيث يتخللها الهواء ويذهب عنها الرطوبة. فإذا أنت نظرت
إلى هذا البناء من الجهة المقابلة للماء خيل لك أنه جزيرة مسحورة أشبه الأشياء
بالجزيرة الجميلة (Isola Bella) في البحيرة الكبرى من البحيرات الإيطالية.
في هذا السكن البديع كتب روسو قسماً غير قليل من كتاباته وبالأخص

من كتاب التربية. ولقد كان لهذه المناظر البالغة أقصى حدود الجمال أثر عظيم
على ما كتب. ولبت شعري هل ينكر كاتب ما للوسط الطبيعي الذي يحيط به
من الأثر العظيم عليه.

وحتى لا يقص من أطراف سعادته بما قد تحدثه كلماته المضطربة غالباً
من سوء الأثر في نفس مدام ذلكسمبور لجأ إلى وسيلة زادت عندها مقاماً وزادت
به تعلقاً. فقد جعل يقرأ لها رواية الهلويو وكانت يومئذ لا تزال تحت الطبع.
ولم يحتج روسو لأكثر من ذلك حتى بلغ إعجاب مدام ذلكسمبور به أقصى
الحدود وحتى أصبح عندها الكل في الكل: «فكانت لا تتكلم إلا عني ولا تشغل
إلاني وتدلني النهار كله بأحلى الألفاظ وتقبلني كل يوم عشر مرات، وجعلت مكانى
على المائدة إلى جانبها ولم تسمح لسواى حتى من الكبراء بالجلوس فيه بل كانت
تخبرهم أنه لي يجلسهم في غيره». وكذلك أحاطت السعادة والسكينة بروسو
وجعل ينهل منها ما استطاع. يقضى معظم نهاره في القراءة لدوقه لكسمبور وفي
صحبة الدوق في رياضيات وسط الحداث البديعة التي كانت تحيط بالقصر.
ويقضى بعض الأوقات أحياناً مع تريز وينقطع أخرى لكتاباته وتصويراته.
ولما انتهى من قراءة (الهلويو) طلبت مدام ذلكسمبور إليه أن ينقل لها نسخة من
خط يده أسوة بـمدام (دودوتو) وعرضت عليه أجراً مشها. فكتب إليها يشكرها
وردت عليه مقتبسة العبارة الآتية من كتابه: «أنت وإن كنت لا شك من خير
الزبائن إلا أنني أجد بعض الغضاضة في اقتضاء النقد منك بل أرى واجباً أن
أدفع مقابل ما أناله من السرور بالكتابة إليك» ثم أضافت: «ولا أزيد أنا
على ما تقوله شيئاً وإني ليلوئى ألا تخبرني بشيء عن أمر صحتك ولا شيء يهمني
أكثر منها فإني أحبك من كل قلبي إلخ». ومع خلو هذا الخطاب من كل مغمز
فلقد قضى الوقت الطويل يفكر فيما تريده باقتباس عبارته. بل إنه ليذكر في
اعترافاته أنه وقد كتبها بعد عشر سنين من هذه الحادثة لم يزل عاجزاً عن فهم
ما أرادت مراسلته. وأدى به الاضطراب لغير سبب إلى أن كتب إليها كلمة تكاد
تكون جراحة العبارة يلومها فيها كأن شيئاً فرط منها. واكتفت هي بأن تعتذر في
خطاب لها - على الماشي - من غير تعليق على الحادثة بأكثر من إظهار عواطفها
الطيبة بالنسبة له وعظيم حنوها عليه.

به ما بين حال ومركز من تحويل هذه اللغة . وإن احترامى لشخصك لا يعنى
ما يجب من ذلك لمركز اليع اليع . وأيضاً : « نعم ياسيدى الدوق . أنت
لا يدور بخاطرك مبلغ ما يجد الإنسان من اللذة أن يرى أن عدم المساواة قد تنشق
مع الصداقة وأن الإنسان قد يكون له صديق أكبر منه »

وكان لروسو صديق أو بالأحرى معجب من مواطنيه يدعى كوانديه - عرفة
يمولوى ويحل يتردد عليه ثم اتخذ اسمه وسيلة يتقدم بها في كل الصالونات التي
يعشاها روسو . فلما كان هذا الأخير يكتب نسخة (الخلويز) لدام دلكسمبور
تقدم كوانديه بعمل النقوش اللازمة فيها . وفيما كانوا يوماً في القصر يطلع
كوانديه الدوق على هذه النقوش وحن موعده انصراف كوانديه قال الدوق : (للذهب
راجلين تنتزه على طريق سان دينس ونصحب المسيو كوانديه) قال روسو : « أما
أنا فقد تأثر قلبي لهذه العبارة حتى لم أستطع دون تقبيل مواطني قدم هذا السيد
الطيب القلب » .

هذا هو الإحساس الدخيل الذي يخلق في صدر كاتب خطاب عدم
المساواة . ولعل شديد ما كان يعانيه من آلام هذا الموقف ، الذي يشعر به كل مفكر
تجاه أبواب الألقاب والثروة شعوراً مختلف درجاته وقوته ، هو الذي أثار نفسه وهاج
عواطفه ودفعه ليكتب بقلم من نار هذا الخطاب المملوء قوة وحساسية .

ولكن هذه الثورة نهر قلب صاحبها وترعش قلبه ما دام مطلق عنان الفكر
الإحساس في وحدته وفي أثناء كتابته . فإذا هو خرج للناس وجلس إليهم حكمه
الوسط بقوانينه القاسية وقواعده الثابتة فراجعهم ضعف الخضوع لحكمه والانحناء
لما على به من وجوب الزنى للبعض ومصافحة الآخرين . لكن روسو كان أكثر
المفكرين ثورة بسبب جنونه الخاص الذي كان يدفعه للاعتقاد بأن كل الناس
يحدونه ويفطرونه حقاً ، ويعمله شاعراً لذلك أنه في حرب دائمة معهم جميعاً .
وهذا الشعور هو الذي كان يظهر كدين ثورته حتى حين يجب إحتاؤها ، وهو الذي
دفعه لتحرير خطابه لدوق لكسمبور وردوده على الدوقة . ولولاه لاستطاع أن
يعيش مع العظاما وبعيداً عنهم في وقت معا وأن يستفيد من عبقرية احترامهم
إياه احتراماً يجعله مطمئن النفس غير مهمم بحركاتهم هذا الاهتمام الأحسن .

جزء من هذه الصلة الجديدة بالكبراء بعد
... فكان يحتاج لكل حركة يشعر ولو من
... وهذا واضح في تصرفه في الزو
... مسألة بسيطة أقام الدنيا وقعد لها من
... بعض الهدايا للموزيل القاسير (تريبز)
... كرسبها هدايا . فكذب روسو بأنها ما يأتي
... سبباً وإنما تهدين تابعي . يا للحيله .
... من تلحين معه إلى مثل هذه الوسيلة ؟
... من تذكيري من أنا . ولقد كدت أنسى
... مساوياً لكم أن يخفى على الارتفاع إلى
... الاعتراف بأفضالك ومن الواجب السعي
... دلكسمبور بما يأتي : « أفيكسر ألا
... الذي سمعت في أن أعطى للموزيل
... قبيحاً . ولم يك إلا ما أمرت به ثم أراك
... غيرة القسوة وتهدق أنك لا تحبني بعد .
... كثير ما يدور بخاطري ، ولكن أفضل

... يمكن يفارقة . وقد كتب إلى دوق
... سلام وأخيه لاشي . إلا لأن الدوق
... يشعر بذلك الترقق الذي كان يهوله
... ما يأتي : « إن أفضالك أوقعتني في
... ست على غير أهل . إنني أفهم كيف
... منهم هو من الكبراء . ولكن كيف
... حل من قلبي مكافة الشرف . وأنت
... كنت مسافر وظفيري . اللهم إلا
... زائماً من العيش إلا مع الأصدقاء
... سعة البسط . ولست أجهل ما يقضي

يزده إلا جهلاً وغفارة . ويقدر أن الوجود وما فيه مقصور على المادة المحسوسة الخبيثة به والتي يتوهم أنه يستطيع حكمها فيحبب نفسه ملكاً قديراً بل إليها فاطش وسلطان . أما النبوغ العقل فينشر أمام ذهن صاحبه لتوليم كلها بما فيها من محسوسات ومعنويات ويدعوه للظفر فيها جميعاً ولتعريف قوانينها وللحكم على مقتضاها فتراه يعرف مبلغ حجارة الفرة وصبره في الكون المافى العظيم . كما تراه يندبش أمام نجاح أولئك الماديين المحدودى العقول . لكن تدهاشه هذا لا يمنعه من احتقارهم لتفريق أفعالهم وإن حكمت عليه ضرورات الحياة في أحيان كثيرة بمعاشرتهم والعيش معهم .

ولم يقصر روسو علاقاته الجديدة على المارشال والدوقة دلكسمبور بل اتصل بجميع أصحابهم وأصدقائهم من الكبراء . وكان يشعر لهذه الصلة بشيء من السرور الداخلي الذي كان منبته الوضع يكبرها في عينه . وهذه العبارة من اعترافاته بذلك على مبلغ نجلى هذا الشعور عنده . قال : « وكنت أستقبل في هذه الشرفة مسيو ودمام دلكسمبور ودوق فليرى والبرنس دتنجرى ومركيزا وستير ودوقة مومرنسى ودوقة بوفليه والكونتيس دفالنتيا والكونتس ديوفليه وأشخاصاً غيرهم من أهل هذا المقام . وقد كانوا لا يابون أن يحجوا عن طريق مرتفع متعب من القصر إلى مولوى » . وكان لا يفتأ يعلق دوق لكسمبور لعلبه أن الفضل في نواله هذا الشرف العظيم راجع إليه . وهذه بعض عباراته إليه : « لقد كنت يا سيدى المارشال أكره الكبراء قبل معرفتى لك . وإنى لأشد كراهية لهم من يوم علمتى كم هو سهل عليهم أن يجعلوا أنفسهم موضع كل محبة ونجدة » .

في ذلك الوقت الذى اتزع فيه بأنواع المناء عرف مدام دوفردان . وعلى الرغم من أنه كان في ظروف لا تسمح له بالعلق بها ، فإنها اتصلت به أشد الاتصال مضحية عن خطباته القاسية التي كان يرسل بها إليها . على أن علاقتهما لم تزد على حد المعرفة في ذلك الحين ، ولذلك تركها للكلام عنها في الوقت الذى تركت فيه غير قليل من الأثر في نفس روسو .

ولما تم إصلاح بيته مولوى عاد إليه مع الاحتفاظ بالعرف التي كان يقطنها في القصر الصغير . وجعل يتردد على هذه الغرف منفرداً أحياناً . ومع تزايد أخرى يتناولان قصة العصر . فإذا قابل مدام دلكسمبور قضى معظم وقته في إتمام

منه فالتقى ، وبه بعض ما يروى من الحقيق ، كان يعيش بين الأمراء والسادة من أحد منهم وله عليهم جميعاً الدالة حتى كانوا هم الذين يتولون إليه . حتى إذا نرى في نفس الأكثرين من الكتاب والفكرين ضعفاً لا تشاهده عند العمل . وكان ما يحيى به التفكير من إضعاف الإرادة يستتبع إضعاف الذاتية فيصرون لستضعفهم بأنفة مصطنعة وغرور مخلوق من عاطفتين متناقضتين : لاستسلام والثورة ، استسلام للبيئة وثورة داخلية ضد البيئة . هذا ترى الكاتب لا يخفى يعذب نفسه بالأمان والأوهام . وتراه يتناهى عن قصر من آماله وكيف العالم . يشاء خياله ويرتب المستقبل على حسب منطقته ويبنى ويهدم ويخلق ويعدم . هو لدعته لاذعة من لواذع الحياة مما قد لا يتأثر له إنسان سواء فاهتاج واضطرب فيه تمت الصروح التي بنى ولعن الإنسانية وصمم على العزلة وعلى ترك الناس وقد يتلف للتفكير في الانتحار . يؤمر هذا العاصف ثم تراجعته أحلامه ويراجعه مع تشييد المستقبل أو التحكم في الحاضر أو نحو ذلك من أوهام رجال القلم . وهكذا تنقضى حياته بين الهم والحلم والخنوع والمرة حتى يدخل طى الماضي وينظري ما كتب ليبقى مطوياً أبد الدهر أو لينشره مستقبل قريب أو بعيد فيحكم العالم ويحقق أحلام صاحبه وقد صار صاحبه تراجيحاً .

ذلك كان شأن روسو . دفعته عقبرته إلى مراقاة المنظمة وأمسك به مولاه وعلقت به ثروته بين الأصاغر والضعفين . والعقبرية تحيط بالماضى والحاضر وتقتد إلى خفايا المستقبل فلا ينسى الشخص ما كان ولا من هو إلى جانب غيره ، بل هو أميل إلى الانتفاص من نفسه لأنه أكثر شعوراً بتفاهة الحياة وضعف الإنسان . ولم أن نبوغ روسو كان من نوع النبوغ العمل الذى يسير بصاحبه في طريق تحزين الثروة وتقوية المركز المادى إذن لأربى بدل هذا الخيول الكثير التفكير في نفسه وغيره وقها من أولئك المشجحين بالمال البالغين في تبجحهم حد السهابة . يعتبر من هذه السهابة من بعض مستلزمات حياتهم لحفظ ما يسمونه مركزهم . إن لعمر الحق لم أر في حياتى منظرًا تنفّز منه النفس وتشتمر الحواس . من منظر أولئك الذين يصلون للثروة فيتبعجون . بكلكك الواحد منهم مع بحسب أنك بعد هنية مستعديه وأنت سيده نفساً . وأبعد الناس عن الحاجة . ويبقى رأيه في الشيء وهو يظن أن ما عنده من مال أفاده علماً فإذا هو لم

رأيه افسوز وهي به معجبة وبروايته مجنونة . فلما أتمها خشي أن يقع في أغلاطه
وله ذوقه في الكلام فبدأ قراءة كتابه عن التربية - أمل - ومع أن الدوقة لم تظهر
رأيه لسامعه فإنها لم تظهر من السرور به ما كانت تظهر لدى سماع الرواية .
ذلك من طبعي عند معظم الناس وبالأخص عند السيدات . فإن سماع خطابات
دوق متبادل وتوقع حوادثه أكثر تشويقاً من سماع الكلام الجدى في مسألة
منه كالتربية . مع ذلك فقد أخذ روسو على الدوقة عدم إعجابها وظن أنها بدأت
بتر صحتها وكتب إليها بعد سفرها بعض خطابات مملوءة بالعتاب المر .

على أن الدوقة لم تتغير على روسو حينئذ ولا تغيرت عليه بعده وإنما هو تجسم
لضعف وفعل مرضه النفسي ، هو الذى أدخل هذا الزعم إلى وهمه . بل لقد دفعها
هناهما بروسو أن رأته أن من الخطأ طبع كتاب التربية في هولاندا دون أن
يطبع في الوقت عينه في فرنسا . وكان هو على غير هذا الرأي لأن بعض المبادئ التى
قررها في « الأمل » وبالأخص مبدأه عن حرية العقيدة والديانة الطبيعية - مما
ستكلم عنه عند الكلام على كتاب التربية - قد تصادم الرأي السائد المقرر لدى
الحكومة في ذلك الحين . ولما لم تكن حرية إبداء الرأي معترفاً بها يومئذ فقد كان من
محتمل أن يقبض على طابع الكتاب وعلى روسو نفسه . لكن هذه المخاوف التى
حفظها للمستقبل لم ترد الدوقة عن رأيها الذى أبداه فيه المسيو مالمرب .
بالمسيو مالمرب كما يعلم القارئ عالم مسموع الكلمة . فلم يكن من روسو إلا أن
دعى لرأيها وسلمهما نسخة الكتاب الخطية بتصرفان في طبعها كما يشاءان .

ولا يعجب القارئ من مخاوف روسو في هذا الباب . فقد كان كل
كتب معرضاً للنفي والاعتقال في الباستيل إذا نشر أى عبارة يشتم منها التعرض لمبدأ
بست أو الطعن على شخص دى مركز في الحكومة أو على رجل أو امرأة من ذوى
سطة في البلاط .

ولا أقرب من مثل يضربه روسو نفسه ، فقد طعن القسيس مورليه على مدام
دوت في رواية نشرها فلم يكن بأسرع من أن اعتقل في الباستيل وأحوج الأمر
مراجعة منه توسط ديدرو لدى روسو وروسو لدى مدام دلكسمبور ورجاؤها
وزير سان فلورنتان وتوسط هذا الأخير لدى زملائه ومن يدهم أزمة الحكومة
رجال والسيدات . وكان هذا العصر كان في حالة حرب مستمرة كالتى

ألفت عاتق العالم من سنة ١٩١٤ ومنعت على كل مفكر حرية الفكر وعلى كل
كتب حرية الرأي والقول .

وفيما هم جميعاً في اهتمامهم بترتيب طبع كتاب التربية ظهرت رواية الهلوز
في أواخر سنة ١٧٦٠ وأوائل سنة ١٧٦١ والناس جميعاً أشد ما يكونون تشوقاً لها
لما نشرته عنها مدام دلكسمبور في البلاط ومدام دونو في باريس . وما لبثت
أن ظهرت حتى تناولتها الأبدى وأعجب بها الناس إلى إعجاب وصادفت أعظم
النجاح . لكن بعض حساد روسو لم يمتنعوا عن الطعن عنها . وحرص فولتير المركز
دى زيمين أحد المحيطين به فكتب أربعة خطابات ضدها . ولكن نجاحها كان
حاسماً وناماً بحيث سخر الناس من هذه الخطابات ومن غيرها ولم يعيروها التفاتاً .
وفي هذا الوقت أيضاً ظهرت رسالة من قلم روسو بعنوان (السلام الدائم)
رد عليها فولتير : بدأ يعتبره روسو سخيلاً مضحكاً .

يقول روسو إنه في هذا الظرف الذى علا فيه بحمه وضحك له فيه طالع
السعد بدأت مدام دلكسمبور تمله وتقضيه ، ويعزو ذلك إلى تقرب بعض
معارفه منها ونوالهم الزلى لديها وانتقاصهم منه عندها . على أن مراسلات الدوقة
تدلنا قاطع الدلالة على أنها كانت له كما كانت من قبل تعمل لرضاه وتسكن
برقيق قولها غضبه وتنظر في مصالحه بقدر ما تستطيع . أما المظاهر التى يشكو منها
روسو كعدم الاحتفاء به كسابق عاداتها وعدم الاهتمام بأن يكون دائماً إلى جانبها على
المائدة والاتجاه لغيره من الزوار فلم يكن إلا أثراً طبعياً من آثار طول العشرة ونتيجة
للأغلاط التى كان روسو لا ينفك يقع فيها الوقت بعد الوقت تجاه الدوقة . صحيح
أن كثيراً من هذه الأغلاط بل كلها كانت غير مقصودة من جانب روسو بل لقد
كان يرمى في بعضها لإرضائها فينقلب الأمر عليه . ولكن ما عرفه القارئ من
صفات الدوقة وأخلاقها يجعله يرى أنها كانت تود في عظمتها لو تصلح هذا
الأخرق ولو بإظهار شيء من الجفاء له .

ومن بين الأغلاط التى ارتكبها روسو غلطة مضحكة . ذلك أنه كان
له كلب اسمه (دوق) . فلما نزل بين أظهر اللكسمبور رأى من اللياقة أن يغير
اسم الكلب فيجعله (ترك) . وفيما هم على المائدة يوماً سأله أحد الحاضرين على سبيل
لسخريه عن سبب تغييره لاسم كلبه فكان جوابه : حتى لا يكون له مثل لقب

المارشال . وكان في تفسيره هذا أكثر خرقاً مما لو ترك للكلب اسمه الأول من غير تغيير .

ولما جسم الوهم لروسو أن الدوقة بدأت تتغير عليه فكر في تركها وترك مونلوي والانقطاع عن الأدب والآنزواء في الأرياف . لكن ماله كانت مضعضعة في ذلك الحين ولا تسمح له بمثل هذه الحركة . ولم يكن قد أفاد شيئاً بعد من كتابه الأمل . فأرسل بكتابه (العقد الاجتماعي) إلى الناشر (رى) في أمستردام وقبض في مقابله ثلاثة آلاف فرنك . وقام الناشر المذكور بطبع الكتاب بسرعة حتى ظهر قبل أن يظهر كتاب التربية سواء في فرنسا أو في هولندا بشهرين . ثم ظهر كتاب التربية أخيراً وكان ظهوره بدء المصائب التي انتزعت روسو من طمأنينته وأرسلته يجوب الأقطار والممالك بقية عمره وعجلت سير مرضه حتى أوقفته على حافة الجنون إن لم تكن دفعت به إلى دركاته .

ظهر كتاب التربية فلم يقابله الناس بالضجة التي قابلوها بها الملويز بل قابله بشيء من التخوف والمهابة . وإن روسو ليستظر الأثر الذي سيحدثه كتابه ويسأل معارفه وأصدقائه عن رأيهم ورأى الناس فيه إذ بدأ يصل إلى سمعه أن في نية الحكومة مصادرة والقبض على مؤلفه . فلم يأبه للخبر بادئ الأمر وصار يضحك من كل من ينقله إليه ، وكان أشد ما يكون استغراباً حين قال له صديق من أصدقائه إنه قرأ الكتاب وأعجب به ولكنه يرجوه ألا ينقل ذلك عنه . وما زال في سكينة مطمئناً لما رأى عليه مدام دلكسمبور من الطمأنينة حتى إذا كان في بعض الليالي إذ أقبل عليه (لاروش) من قبل المارشال وأخبره أنه تقرر القبض عليه في صباح الغد وأن لا وسيلة إلا الهرب . فذهب من فوره وقابل الدوقة التي كانت تنتظره في سريرها . وبينما يتحدثان أقبلت عليهما مدام ديوفليه قادمة من باريس ، فجعلوا يفكرون في الطريق الذي يختارونه . والحقيقة أن القبض على روسو لم يكن بالشيء الخطير لذاته . ولكن علاقة دوقة لكسمبور والمسيو مارلب بطبع الكتاب وإمكان ذكر اسمهما على لسان روسو في أثناء التحقيق وما قد يتركه ذلك من الأثر السيئ ضدهما في البلاط وعند الملك ، وما قد تسببه الحادثة من الرأي العام كل ذلك هو الذي جعلهم جميعاً يجمعون على فكرة ترك روسو لفرنسا . وقد ظهر هو في هذه الفرصة مثال الإقدام والتضحية فلم يتردد في قبول الرأي الذي عرضه عليه .

ودارت المناقشة حول المكان الذي يرتحل إليه . ورفض البقاء مختبئاً إلى أن يمر من الوقت ما يكفي للتفكير كما رفض الالتجاء إلى إنجلترا وانتهى به العزم على الذهاب إلى سويسرا . وفي تلك الساعة العصبية نام الدوق والدوقة ومدام ديوفليه وأصحابه في القصر بوداعه . ثم جاءت تربيذلفاسير ورجته أن تكون معه فأفهمها أن ذلك لا ينفعه ولا ينفعها ولم يفض لها بالمكان الذي اعتزم الارتحال إليه . وظل إلى ما بعد الظهر يرتب كتبه وأوراقه ثم ذهب في صحبة الدوق إلى العربة التي كانت في انتظاره لنقله إلى حيث يشاء .

ولقد كان أصدقاؤه وأعداؤه جميعاً يودون أن يخرج من المملكة من غير أن يقبض عليه حتى لا يقيم ذلك على الحكومة قيامة العالم . ولا أدل على ذلك من أن برلمان باريس أصدر قرار القبض عليه في يوم ٩ يونيو سنة ١٧٦٢ وقرر أن يكون القبض في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي . وقد رأينا روسو يقضى في التوديع وفي ترتيب أوراقه إلى ما بعد ظهر ذلك اليوم ثم لم يحضر أحد ، فلما ركب عربته وسار التي ولا يزال على مقربة من القصر بالحضرين المكلفين بالقبض عليه ، فلما رآه ابتسموا ولم يقفوا وساروا في طريقهم ومر بعد ذلك في شوارع باريس ورآه الناس طراً وسلم عليه معارفه ومع ذلك لم يتعرض له أحد . فلما خرج من فرنسا نزل في أيفردن من أعمال مقاطعة برن بسويسرا عند صديقه المسيو روجن برغم تصميمه الأول الذي كان يريد معه الذهاب إلى مسقط رأسه جنيف . وإنه في هذه الفرصة لنعما فعل . فقد أصدرت حكومة جنيف قراراً كالذي أصدرته حكومة باريس بتاريخ ١٨ يونيو سنة ١٧٦٢ . وقد صادرة أيضاً السوربون وطعن عليه رئيس كهنة باريس ، وطعنه قرار من البابا ، وقضى عليه أمر صادر من حكومة هولندا . على أنه لم يهتم في ذلك كله إلا بمطاعن رئيس كهنة باريس وبقرار حكومة جنيف . فرد على الأول بخطابه إلى كريستوف ديومون وعلى الثاني بخطابات الجبل الخالدة .

ويحسب كثير من أصدقاء روسو أن يد نولتير كانت ذات أثر في قرار حكومة جنيف . لكن المسيو فاجيه لا يعتقد صحة هذه الرواية بسبب تصرف فولتير في هذا الظرف حيث دعا روسو للإقامة معه في الدليس . صحيح أن روسو رفض لأنه يعلم أن فولتير ليس رجل ثقة يصح أن يعتمد عليه إنسان .

ولكن الحقيقة أن فولتير كان يريد بحماية روسو قطع لسانه والاستعلاء عليه فجاء رفض روسو جواباً قاطعاً طريق ما أراد فولتير من عمله .

فلما كتب روسو خطابات الجبل عرّض فيها بفولتير فنشبت بذلك بينهما عداوة لم تبدأ ثأرتها فيما بعد يوماً من الأيام . بل ظلاً يتبادلان الردود حتى آخر حياتهما الكتابية .

على أن هذا الفصل ليس موضع التفصيل في ذلك . وسنذكر في هذا الكتاب ما نريد ذكره منه بعد شرح نظريات كتاب التربية حتى يكون القارئ على بينة مما يذكر أمامه ، ولكننا نريد أن نختم هذا الفصل بالكلام في مسألتين . الأولى قرار برلمان باريس بالقبض على روسو والسبب الذي بنى عليه . والثانية علاقة روسو بدماد دلكسمبور بقية حياته .

يعلم القارئ أن مما يمتاز به القرن الثامن عشر عن القرن الذي قبله نزعة إلى النقد الديني وإلى الإلحاد . وأن طائفة كثيرة العدد على رأسها فولتير كانت تتعرض للعقائد بأكثر مما تعرض لها به روسو وتهكم عليها وعلى رجال الدين أشد التهكم . مع ذلك فلم يتعرض لهذه الجماعة أحد ولم يصدر ضد واحد منهم قرار كالذي صدر ضد روسو . فما هي الحكمة في ذلك وما هو السبب ؟

السبب الذي ذكره البرلمان في قراره هو أن روسو نشر أفكاراً تخالف العقيدة المحترمة في المملكة ووضع اسمه على الكتاب الذي نشر تلك الأفكار فيه . ولو أنه لم يضع اسمه لما تعرض له أحد ولا مس بسوء . بل لقد كان في وسعه إذا تدخل رجال القانون مع ذلك في الأمر أن ينكر الكتاب وكان ذلك في عرف أهل العصر كافياً لعدم مؤاخذته . وهذا ما كان يفعله فولتير . تصدر كتبه من غير أن يكون عليها اسمه ولا يأتي أن ينكرها إذا هو سئل عنها مهما علم الناس طرّاً أنه كاتبها ومهما افتخر بذلك في مجالسه الخاصة وفي كل مجلس لا يكون للقانون فيه مباشرة سلطان . فمصارحة روسو بأن الأفكار أفكاره واحتجاله تبعها وذكره اسمه كمؤلف الكتاب من جهة وما يجب على الحكومة من المحافظة على العقائد السائدة من أن يمسها أحد أو أن يعرض لها إنسان من الجهة الأخرى ، ذلك هو ما دعا البرلمان لإصدار قراره . وقد رأينا أن الناس جميعاً وأعضاء البرلمان من بينهم كانوا يودون لو لم ينفذ القرار وأنهم جميعاً سرّوا بقرار روسو لأن انقبض عليه كان

من شأنه أن يهيج بعض الخواطر ويضطر بعض الأشخاص لرفض ذلك النفاق الدائم الذي كانوا فيه بين إرضاء ضائرتهم وإرضاء الحكومة .

وبعد أن أقام روسو زمناً عند المسيو روجن في أيفردن قررت حكومة مقاطعة برن إخراجه من أرضها برغم معذرة عميد أيفردن ورغبته في حصيته . وهذا القرار وقرار حكومة جنيف وقرار السوربون وباقي القرارات لم تكن لتصدر لو أن روسو فضل بدل القرار محافظة على سمعة مدام دلكسمبور والمسيو مالرب أن يعارض في الأمر لأن أيدي قوية كانت ستتدخل يومئذ لمعونه فلا يبقى في الباستيل إلا أسبوعاً أو أسبوعين ثم يخرج خروج الظافر ليقيم من بعد ذلك في عاصمة فرنسا ملكاً على رأس الكتاب والأدباء .

ولكن هكذا شاءت الأقدار وحكمت على روسو أن يحتفظ بمصلحة أصدقائه وحماته أكثر من عنايته بمصلحته الذاتية فتهازل عليه لذلك من كل جانب أنواع السخط ويقوم في وجهه رجال الحكومات والكتاب بصوبون إليه أمر سهام اللوم والتعريض ويقضون عليه أن يقضي بقية حياته هائماً على وجهه لا يعرف لنفسه قراراً .

فلما ترك أيفردن إلى موتيه ترافير على مقربة من نيوشاتل تجددت المكاتبة بينه وبين مدام دلكسمبور التي احتفظت له بالجميل طول حياتها . لكن روسو بدأ يشك في ولائها هي الأخرى حتى كتب إليها في سنة ١٨٦٤ بمناسبة وفاة الدوق زوجها خطاب تعزية يقول فيه : « عبثاً أحارب نفسي لأمنع عنك مضايقة تعيس بائس . فقد بلغ في الألم الذي يحز في قلبي حداً لا يعرف معه تحفظاً أو سراً . وما كنت لأكتب إليك يا سيدتي الدوقة لو أنني عرفت شخصاً أعز منك عند الصديق الكريم الذي فقدته . ولكن من لي بإنسان أبسط إليه أملئ لذلك المصاب غير من يحس به أكثر من كل من سواه . ثم كيف يستطيع أولئك الذين أحبهم هو أن يبقوا منقسمين متباعدين . وهلا يجدر بقلوبنا أن تجتمع لتبكيه . فإذا لم يبق لي من مقام في قلبك فليكن لديك بعض الاهتمام بما أقاسي من المصائب لأنه كان يهتم لها . . . على أنني إنما أغر نفسي بما أقول . فلقد كان ترك الاهتمام بي ونسيتي كما نسيتي . فأني ذنب جنيت إلا أنني أحببتكما حباً جمّاً فأعددت لنفسي بذلك أنواع الأسف . لقد تمتعت أنت بأرق محبته حتى آخر لحظة من حياته .

والموت وحده هو الذى استطاع أن يقتلع منه هذه المحبة . أما أنا فقد فقدتكما جميعاً فى ريعان الحياة فأنا لذلك أجدر منك بالشكوى وبالمرحمة . فردت الدوقة على هذه التهم الموجهة فى ظرف غير ملائم بأقرب العبارات وأكثرها تواضعاً قالت : كنت أود أن أخلط دموعى بدموعك وقد حسبت أن ليس لى من عزاء عن مصابى إلا فيك فإذا فى مضطرة بدلا من ذلك أن أبرئ نفسى أمامك ، وأكثر من ذلك أهمية وأشد قسوة أن أبرئ مسيو دلكسمبور الذى أحبك واحترمتك ولم يعتبر لنفسه فى العالم صديقاً أعز منك ؛ فلقد مرض مدى أربعة أشهر مرضاً لم يحسب أن الموت يعقبه ولكنه منعه عن الكتابة : وكثيراً ما كان يحادثنى عنك ويقول إنك لو كنت فى مومرنسى لجئت للإقامة هنا (فى باريس) . وقد قرأنا له خطابك الأخير فلم يترك عبارة رقيقة إلا قالها عنك . فأنصح لك التوبة عن ظلامه أسأت بها لذكراه ، ولئن كان موته فجأة قد منع عليه أن يفكر فى أى شىء فى ساعاته الأخيرة فإنى أكرر لك أنه أحبك وأحبك من كل قلبه حتى لكان بعدك عن هذه الديار من أشق الأشياء وأشدّها على نفسه . فلم يبق طويلاً بعد سفرك حتى اعتلت صحته وحتى حل به المرض ، ولست أطيق أن أدخل فى تفاصيل مرضه الأليم التى تخبرك عنها لاروش متى شئت . تصور يا سيدى أنى لم أتركه حتى آخر أنفاسه ثم لا أحب إلا أن أسكن الغرفة التى مات فيها ، وإنى أشكرك على ما تقوله عنه فى خطاب مطبوع فذلك موجز ومؤثر ، أما عن تبرّته نفسى فإنك لا تنكر أنى أنا التى كتبت إليك أخيراً وأنت لم تجبني وقد مضى على ذلك زمن طويل . أما قلبى فلا شك أكيد فى محبته رقيق فى ولائه . فبالله لا ترهقنى وأنا فى مصابى الألم باطراحي وراء ظهرك واعلم أن لك من الحب دائماً أرقى ما فى قلبى . . . » وقد رد روسو على هذا الخطاب بشىء من السكينة والطمأنينة . والحقيقة أن مدام دلكسمبور لم تنقلب عليه يوماً كما انقلب غيرها ولا أهملته بل كان هو كأنه ينتهز الفرض لإيجاد المناعب آملاً أن يزداد عندها بذلك إعزازاً ومحبة .

وبقيت علاقاتها به كأحسن ما يكون الود والعطف والإخلاص حتى سنة ١٧٧٠ وإن كانت قد قترت بعض الشىء من أيام انقطاع روسو عن فرنسا. على أن الفتور لم يبلغ بها أبداً حد النسيان ، بل لقد طالما شعلته الدوقة بعنايتها وحماتها فى سويسرا وإنجلترا وفرنسا . أما بعد سنة ١٧٧٠ فقد نسيته تمام النسيان أو كادت

لكثرة ما ضعن فى ولائها . وظل بعد ذلك فى تجوال وارتحال بقية حياته . أحملنا فى هذا الفصل أهم أزممة حياة روسو : فقيه ظهرت كل كتبه القيمة التى خلّدت على الزمن عظمتها وأثبتت للعالم قوته . وسنعرض فى الفصول الآتية - والتي سيشملها الجزء الثانى من هذا الكتاب - ما تحويه هذه الكتب وغيرها من صور وأفكار كما نجىء للقارئ على ما بقى من تاريخ حياة رجل بدو وضيقاً يائساً ومات فقيراً تيساً وقضى حياته مريضاً محزوناً ولكنه ترك للعالم ثروة فكرية لا يزال العالم وسببى يتنعم على حسابها عصوراً طويلاً .

الجزء الثاني

رأينا فيما سبق من فصول هذا الكتاب كيف بدأ روسو حياته في الأدب
بوضع خطاب العلوم والفنون وخطاب التفاوت وكتاب المناظر . ثم رأينا كيف
انقطع للأدب وللتأليف حتى ظهرت كتبه الكبرى : جويل والتربية والعقد الاجتماعي .
ورأينا أخيراً كيف قضى باعتقاله وكيف فر من باريس وكيف طُرد في مختلف
الممالك بسبب هذه الكتب التي أصبحت من بعد ذلك تاج مجده وموضع فخر
فرنسا . فليس من بد أن نقف الآن ترجمته لتعرض على القارئ صور هذه الكتب
الكبرى واحداً بعد الآخر حتى يرى مواضع عظمة هذا النابغة الشقي .

أول هذه الكتب جويل أوهلوز الجديدة . وجويل هي رواية روسو الفذة
التي هزت أدب فرنسا وأدب أوروبا مدى القرن التاسع عشر ، والتي لا تزال إلى
الآن علماً في أدب العالم جم الأثر . وهي كتاب ضخم تربو صحافه على الألف ،
جمع روسو بين دفتيه العواطف الهائجة والمشاعر المضطربة والأفكار الثائرة والميول
الفلسفية والأبيقورية الزاهدة والتزعة لتحكيم الشعور في العقل ووضع ذلك كله
بأسلوب موسيقى بديع . فلعلنا نوفق إلى استيعاب ما حوته على نحو تتجلى معه
صورة الرواية وما أحدثت من ثورة وانقلاب .

كان أول ما فكر روسو في كتابة الخطابات التي يتكون منها القسم الأول
من الهلوز في ربيع سنة ١٧٥٦ ، بعد نشر خطابه عن عدم المساواة ، وبعد عودته
من جنيف ومن نزهاته حول بحيرة إيمان ، وبعد مقامه في الصومعة التي أقامتها له
مدام دبناي . وكانت قدمه قد استقرت يومئذ في الأدب لما صادف خطاباته
من نجاح وما نالته روايته (ملاك القرية) من إعجاب . لكنه كان قد بدأ يشعر
بحسد الحاسدين وبفسره بحب غيره الواقعة به . فلما قوبل خطابه عن عدم المساواة
في جنيف بالإعراض انكمش واستسلم لميله الطبيعي للوحدة وانقطع في صومعته
مسروراً بمناجاة نفسه . وفيما هو في وحدته ذكر جمال مويسرا الساحر الذي غاب
عن ناظره مدة مقامه في باريس والذي ملك عليه لبه واحتل كل قلبه وهاجت فيه

العواطف التي لم تخمد يوماً من الأيام حتى انحاد إليه بمنع الطرف به مدى الأشهر الأربعة التي قضاه في جنيف . وزاد الربيع في هذه العواطف بما جمع أمام مخيلته من ذكرى الطبيعة البديعة ومن معاني الخمر والحياء . « ودفعه تذكرو لمختلف أيام حياته أن يفكر في الحال التي وصل إليها فرأى نفسه في منحدر العمر فريسة لأم قاتلة ، وخيل إليه أنه يقترب من ختام أيامه ولم يذق ذوقاً كاملاً أبداً من الملمات التي يريدها قلبه . فاستعاد في ذاكرته صور من عرف من السيدات والأوانس ، ووقف منهن عند صورة مدموازيل جالي وصاحبها جرافريد ، وجعل من الأولى ملاك هواه . . . ثم جمع في خياله بين مناظر سويسرا والربيع المحيط به ومثال هذه الآسنة البديعة التكوين التي أسماها جولي وأسلس لعاطفته المتهبة العنان ، وجعل يتخاطب في نجواه مع هذا المثل ويسطر على الورق الخطابات القوية الرقيقة التي تكون الجزأين الأولين من أجزاء الرواية .

وقد زادت علاقات روسو بعدام دودنو هذه الخطابات قوة ورقة وتركت فيها من الأثر ما سبقت بنا الإشارة إليه في الفصل السادس من هذا الكتاب . والرواية مجموعة ضخمة من خطابات متبادلة بين عاشقين هما جولي وسان برى وبينهما وبين المتصلين بهما بسبب هذا الحب . ولذلك ظهرت الطبعة الأولى منها في سنة ١٧٦٠ تحت عنوان (خطابات عاشقين يقطنان مدينة صغيرة في سفح جبال الألب جمعها ونشرها جان جاك روسو) ولم تسم بالاسم المعروفة اليوم به وهو جولي أو هلويز الجديدة إلا بعد ما انتشرت ونالت من الإعجاب ما جعل بطلتها علماً على الغرام تدعى به كل عاشقة وكأنها ليلي المجنون أو جوليت رومبو أو هلويز داييلار . وهذه الأخيرة هي علم الغرام في فرنسا من قديم الزمان ، فكان طبعياً أن يطلق على علم الغرام الجديد اسم هلويز الجديدة .

وحديث هلويز داييلار بطله أشهر الأقاصيص الغرامية شبي طويل ، خلاصته أنها ولدت في باريس سنة ١١٠١ ثمرة لغرام غير مشروع فاحتضنها خالها القس فليبر Fulbert وعلمها اللاتينية واليونانية والشعر ، ثم عهد بها إلى صديقه القس أبييلار صاحب الصيت الذائع لبلاغته وطلاقة لسانه وعذب حديثه وجميل قوامه وما إلى ذلك من صفات جعلته يزهى بأنه لا يخشى أن ترفض امرأة شرف محبه . وكانت هلويز تتلقى عليه الفلسفة . وسرعان ما اتصل بينهما

غرام اشتد في نفس الفتاة لم يشغلها عنه ما كان يتطلع إليه رفيقها من المجد . فلما حملت منه ذهب بها إلى بريطانيا وعاد فعرض على فليبر أن يتصل وبيها بزواج سرى على نحو ما كان متعارفاً في ذلك العصر بين القس غير المسموح لهم شرعاً بالزواج . وقد طرب فليبر لهذا الحل وبلغ منه السرور به . ولكن هلويز قاومت ورفضت خشية الإضرار بما يضمه المستقبل محبوبها من مجد وعظمة وقالت : « أليس من الخطيئة أن تختص امرأة لنفسها رجلاً خلقت الطبيعة ليكون للنس جميعاً ، وهل من ذهن متجه إلى التأملات الفلسفية وإلى المسائل المقدسة يستطيع احتال صباح الأطفال وثرثرة المراضع وضجة الخدم » ثم التجأت يستطيع احتال صباح الأطفال وثرثرة المراضع وضجة الخدم « ثم التجأت إلى دير أرجنتيل Argentueil من غير أن تنقطع المكاتبة بينها وبين أبييلار ومن غير أن ينقطع عن التقابل وتبادل صلات الغرام ، فنشر فليبر أنها ارتبطا بزواج سرى وأمعن في نشر الإشاعة آملاً أن يدفعهما إلى هذه الغاية . لكن هلويز أقسمت أنه كاذب . قدس فليبر على أبييلار قوماً خصوه واضطره بذلك للاختفاء في دير سان دنيس حتى يدارى شينه . على أنه مع ذلك طلب أن تعلن هلويز دوام تعلقها به . فظن قوم أن هذا الشك من جانبه بعد ما وصل إليه من سوء الحال قد يغيرها عليه ، لكنها لم تردد إلا إمعاناً في حبه وفي التعلق به وصاحت قائلة : تعلق أنا وأنا التي أسبقه إلى النار أو ألحقه إليها إذ هو ألقى بنفسه في لحيها . وأعلنت في الكنيسة دوام تعلقها به ، ثم تبودلت بين العاشقين فيما تلى ذلك من السنين مخاطبات وجد وهيام تبادلها بعد ما احتسى كل منهما في حمى الله ووهبه نفسه . وظلا على عهدهما حتى مات أبييلار في سنة ١١٤٢ . وبقيت هي بعده اثنين وعشرين سنة كانت فيها مثال الطهارة فنالت من إكرام القديسين والبابوات ما بلغ حد الاعتراف بقداستها .

وقد كانت خطابات هلويز وأبييلار مكتوبة باللاتينية . ثم ترجمت إلى الفرنسية فخلدت ذكرهما وجعلت قبرهما القائم الآن في مقبرة بير لاشيز مزاراً للعشاق والمغرمين .

ولما كانت رواية روسو مجموعة خطابات بين عاشقين وكانت من الإبداع بحيث تستحق من الخلود مثلما استحققت خطابات هلويز وأبييلار فقد أطلق عليها اسم هلويز الجديدة . وليس ذلك عليها بكثير بعد ما نالت أول ظهورها

أغرب المواقف وأدعائها للدهشة .
ولا عجب في ذلك والهوليز ليست إلا صورة من صور حياة روسو في الواقع ومن حياته أيضاً في الأمل والعلم . لكن روسو لم يكن قديراً أن يجمع في شخص واحد من أشخاص روايته ما اجتمع في نفسه وخلقه وعقله من متناقضات فمزعجها بينها جميعاً . كما نشر كثيراً من آرائه في الحب وفي الفضيلة والتربية والزواج وحياة الأسرة وغير ذلك على صفحات خطاباتهم المختلفة .

ولكني نحال رواية تزيد صفحاتها على الألف يحمل بنا أن نسير مع المؤلف رويداً رويداً حتى لا تضطرب أمام ذهن القارئ صورة من بدائع ما أنبت أدب القرن

الثامن عشر .
Saint Preuxet

أكثر أشخاص رواية روسو خطراً اثنتان : سان برى وجولي .
Julie . سان برى شاب من سواد الشعب أتى حظاً من الذكاء والعلم وأتت حظاً من العواطف والشاعر أكبر وأعظم . وهو شديد الوله بالطبيعة وبمناظرها شديد الرغبة عن المدن ومخاطرها قليل الاعتبار للألقاب الموروثة مبال للفضيلة نزاع بقلبه إلى الخير . فهو لذلك صورة من روسو على ما يجب روسو أن يكون . وهو لذلك أكثر ترويحاً عن مؤاناة النقاظ التي تلوث بها نفس روسو من أيام كان خادماً وإبان كان مشرداً طريداً . وقد دعه البارونة دتسانج d'Etange ليذهب ابتها جولي . وكانت يومئذ في الثامنة عشرة من عمرها وعلى جانب غير قليل من الجمال والرزانة ، لكن رقتها وضعفها كانا أرجع من رزانتها ومن جمالها . فلما اتصل ما بينها وبين سان برى أسرع الحب إلى نفسيهما . فكساهما زمناً واستمر في دراستهما ، ولم يكن في مقدور الأستاذ الذي خلقه روسو على صورة أن يفتح تلميذته نحوى الحب لا مفاجأة ولا بتحضير دقيق يشي بملكها . ولم تكن هي كما كانت مدام دلانزاج التي جرت روسو جزاً إليها . لذلك حرر سان برى خطابين طويلين بث فيها غيوره لاجع شوقه ومحرق غرامه . وفعل الخطابان في نفس الفتاة لكنها لم تجبه عنهما بشيء فأرسل إليها ثلاث ذكريات فيها حبها في تبادل على غير جدوى وأشار في ختامه إلى ضرورة ابتعاده عنها حتى تنق في سكوتها وطباتيتها . فأجابته مستيقية آياه قائلة له « إن القلب الفاضل يعرف كيف يغلب »

من نجاح برى أكابر الكتاب ، وبعد ما امتلكت لب شبيه ذلك العصر وفلاسفته وسيداته ، وبعد ما بلغ من الإقبال عليها (أن لم يستطع باعة الكتب إجابة كل الطلبات وأن كان الكتاب يعطى بأجر معين بلغ عن ساعة واحدة في أول أيام ظهوره التي عشر صلباً) . ولنا نلتك في صحة هذه الرواية التي نقلها الأب بريزار Brizard مع ما نحس به في أكثر خطابات الرواية من عدوية ومن رقة ومن رقة موسيقية ، ومع ما نعلم من أثرها الذي تركته فيها بعد سواء بأسلوبها الخطابي المرتعش أو بعبراتها الدائمة المملان أو بما يتجلى فيها من شعور قوى ومن تحليل نفسي وخلي واعتقادي دقيق ، وإذا كان فيها من مواضع الضعف أن مواقف الأشخاص الذين فيها مواقف غير عادية بل غير معقولة أحياناً فإن خصب الخيال الذي امتاز به روسو والمواقف البديعة التي لا مثال لها ووصف الطبيعة وصفاً دقيقاً لا يصدر إلا من (روسو عاشق الطبيعة عشق الحيام وما إلى جانب ذلك من ملاحظات فلسفية دقيقة ، كل هذا ستر أغلاط الروائي في ما لفته من مواقف أشخاصه .

على أن هذه المواقف المفقفة التي ستعرضها على القارئ لم تكن بالغة هذا المبلغ من التفريق والعرابة في نظر روسو ، لأنها ليست إلا صوراً مختلفة من مواقف حياته . وحياته بدعة لذاتها وبدعة من أولها إلى آخرها . فهذا المشرذ البائس العائش عيش البداوة الملوث النفس من صفرة والذي يعالج الفضيلة بعد الأربعين مخلصاً وجهه لها موجهاً كل نيته نحوها فتخونه أعماله وشاعره الوقت بعد الوقت ، وهذا العائش الطبيعة المحب للوحدة غير الموفق في الحياة الخاضع لتصاريفها الجامع بين الاطمئنان لها والثورة عليها . وهذا الوضع الأصل والنبت الذي قضى قسماً من حياته خادماً ثم مريباً ثم موسيقياً ثم اتصل بالعلم والأشرف فبطلهم على شرفهم وعظمتهم وظل طول حياته يتمسح بهم ويتكافأ معهم مع مداومة التجني على أنفسهم وعلى مراكزهم . وهذا البروستانتاتي للقلب إلى الكتلة المرتد إلى البروستانتية القوي الإيمان بين أهل الإلحاد والتقي . وهذا الإنسان المريض الإحساس المولع بالنساء الشاب القلب الهائم بمعنى الحب أكثر من هيامه بصورة خاصة منه . هذا المخلوق الغريب الجامع لكل هذه الصور والمولع بنفسه إلى حد أنه لم يعرف سواها طول حياته لا يمكنه وهو يكتب روايته إلا أن يجمع فيها بين

لكنه رأى أن الشرف الصحيح يمنع عليه اقتضاء التقدير من الأب واستغلال قلب البنت التي تحبه ويحبها . فذكر ذلك صريحاً في كتابه وأشار إلى أن توافق قلبيهما وتغارب سنيهما واندفاع كل منهما نحو صاحبه وخسة كل علاقة بينهما غير مشروعة تجعله أميل للنظر في وسيلة أخرى لاجتماعهما . وليست هذه الوسيلة إلا الزواج .

غير أن البارون ديتانج كان من أشد الناس تشبهاً بمبدأ الكفاءة في الزواج ، فلن يزوج ابنته من أفاق كسان يرى ، هو مهما بلغ من علم وحذق وفضيلة لن يعدو أن يكون من عامة الناس ومن سواد الشعب . وهو فوق هذا فقير معدم . وقد أدخل هذا الرأي إلى قلب جول من الهم ما أمرضها حتى استدعت صاحبها لتراه خشية أن يحل أجلها وهو عنها بعيد .

وقد أعانت كلير Claire d'Orbe صديقتها واستدعت سان برى وألحت في استعجاله ، ثم بلغها أن مريبتها في خطر الموت فركت قتي Vevey وسافرت . وبعد زمن من سفرها جاء سان برى وتقابل خفية مع جول وحرضها على الفرار وإياه من البيت الأبوي ، فرفضت مخافة ما يصيب ذلك أبويها من سوء وعار ، لكنها خشيت أن تبث هذا الرفض صدر محب وامق ، فاستسلمت له وارتعت في أحضانه وزاد به وبها الوجد في بعض سويعات سكرة الحب ففقدت عفتها .

• • •

كثير من الروايات والقصص التي كتبت بعد الملويز والتي أخذت عنها غرام المعلم بتلميذته الشريفة تنتهي بعد هذا الحادث بحادث حاسم كالانتحار أو القتل أو ما إليهما . وبعضها يترك للحب عنانه ويدفع بالفنائه التي سقطت في سبيل الغواية قهجر بيت أهلها بل المدينة التي هم فيها لتواري عارها ولتنتع كل شهواتها وملاذها غير حاسبة للنتائج حساباً . ولقد كان ذلك في مقدور روسو لو أنه أراد . لكنه رأى أن تركه سان برى وهو صورة نفسه في هذه الحال يستنزل عليه سخط الساخطين ولعنات اللاعنين . ومهما كان من حق كل ساخط أن يلعن الغواية فقد كان ذلك عزيزاً على روسو فلم يطق احتياله .

لهذا ظل سان برى زمناً يقابل ويكتب جول بعد ضياع طهرها وعفافها حتى حملت منه وحتى اضطرت لإجهاض نفسها ، وفي هذه الحال المزرية

وفي هذا المركز المخجل تظل الفتاة الشريفة في تجاذبها الدينية مع معلمها من غير خجل ولا استحياء . ولو أن العاشقين شعرا بما في ذلك من مخالفة للمبادئ التي نادى بها سان برى من قبل والتي اعتبرها أساساً للفضيلة الصحيحة وللشرف الحق . وسترا عارهما وفسادهما لكان الأمر . ولو أنهما بدلا مبادئهما وذبحا إلى أن الزواج نظام لا محل له وأظهرا من الاقتناع بذلك ما يعذرهما عن مؤاتاة الرذيلة التي أقر من قبل أنها الرذيلة لصح أن يكون هذا في ذلك بعض العذر . لكن خطاباتهما الطويلة ظلت مملوءة باسم الظهر والفضيلة والسعادة القائمة على الحكمة الصحيحة ، وظلت مملوءة بها على طريقة روسو الخطابية التي تعدت في جولى حدود كل ما رأى القارئ في كتبه السابقة وكل ما سيرى في كتبه اللاحقة . ولم تكن جولى ولا تزال فتاة لم تتعد بعد مبتدأ الشباب لتخجل في كتبها من ذكر أعمالها بوقاحة متبجحمة لا يمكن أن يتصورها الإنسان تحت ريشة غير ريشة روسو وفي قرن غير القرن الثامن عشر ، ذلك القرن الذي اضطربت فيه كل العواطف وأصبح حفظها من الألفاظ يعادل مكانتها من النفوس أضعافاً مضاعفة .

فليس من شك في أن الحب الذي كان معروفاً قبل ذلك العصر كان حباً يملأ القلب وقلماً يفيض على اللسان . وكان مظهره من مظاهر ضعف النفس الإنسانية يجعل بها ستره . وكانت العذراء التي نجح تروى عفافها فوق حبها كما كانت المرأة المتروجة تضع واجب الزوجية فوق عواطفها الشخصية . لكن القرن الثامن عشر ظهر بمظهر في الحب جديد . فكان حبه كثير الكلام أشد تعلقاً باللسان منه بالقلب ، وكان يعتبر وسيلة للذة لا غاية سامية لذاتها . على أن ثورته لم تبلغ في العصر كله ما بلغت ثورته عاشق روسو . فما نحسب عبارة من عبارات الحب ولا لفظاً من ألفاظه ولا صورة له ولا حساً به ، ولا توهاً إياه ، ولا خيالاً منه إلا وصفه روسو في خطابات روايته بإسهاب واستيعاب . ولعل ما رأى القارئ فيما مر من صور الحب ومن أزواج كانوا أكبر أصدقاء عشاق زوجاتهم ومن الزوجات المغرمت برفيقات أزواجهن يكفي ليعطيه بعضاً من الصور التي مرت بوم مؤلف الملويز في أثناء كتابته إياها .

إنما كان إسهاب روسو غالب الأمر إبداعاً لا إبداع بعده . كم صورة من صورته تميز القلب وتستهي النفس . استمع مثلاً في خطاب من سان برى

إن جويل وهما في حال المخاللة وهو يقول لها : ! إبه يا مأكرة ! أكذلك تكون
حبيصة التي وعدتني باتخاذها . وهل يكون كذلك رفقتك في وإخفاؤك ملامع
جمالك ؟ ألا كم تخلفين عهدك ؟ وأول ما كان من ذلك زينتك . فإنك لم تتزني
قط وأنت تعلم أنك أشد ما تكونين في هذه الحال خطراً ثم مظهرك الرقيق
المتواضع الكفيل باستظهار كل ما فيك من معاني الجمال . وكلامك القليل
الموزون الآخذ بنصيب من الظرف أكثر من عادته حتى زادنا التفاتاً وجعل الآذان
والقلب يطيران يستيقان كل كلمة . وتلك الأغنية التي كنت توقعينها بصوت
منخفض يزيد غناؤه رقة حتى يصل وهو غناء فرنسي لينال إعجاب ميلورد
إدوار My Lord Eduard . ونظرتك المخجولة وعيونك الناعسة الطرف يبعث
أحياناً من خاطف البرق ما يثير عندي قلقاً لا سبيل إلى دفعه . وبالجملة ذلك
الروح الساحر الذي لا تعبر الألفاظ عنه والذي نشرته حولك فخلبت به الأبواب
من غير أن تيدي أى عناية به أو تفكير فيه ، ولست أدري أى شيء تصنعين
لتكوني كذلك . ولكن إذا كانت تلك هي سبيلك لتكوني أقل ما تكونين جمالاً
فإني نذيرك بأن ما عندك من ذلك يزيد عما يحفظ على المحيطين بك من الحكماء
حكمتهم .

وميلورد إدوارد إنجليزى شريف عريض الجاه والمال . وقد عرف سان برى ثم
اتصل بيت ديتانج ووقف على ما بين سان برى وجويل من عاطفة . وعطف عليهما
العطف كله . لذلك جعله روسو واسطة الخير لهما في كل ظروف الرواية ،
وبعد ما أَرْضَى خياله بأن مكن لبطله من (الوجود في قصر تحفه فيه عناية السيد
والسيدة وتصبح البنية فيه رفيقة والابن صديقه والمجاورون في حمايته) مما لم ينتج له
هو في حياته . وبعد ما جعل من ضعف جويل ضعفاً يزيد على المعقل وسيلة
لإمتاع شهوات بطل روايته (بدوق الملذات التي يريدها قلبه) . فكر فيما يكون
من شأن العاشقين وانتهى بأن جعل ميلورد إدوارد وسيطاً لهما عند البارون ديتانج
لعهق زواجهما . وقبل ميلورد ما طلب منه وخاطب البارون في الأمر وشرح له
فضائل سان برى وانتهى بقوله : فإن أنت فضلت العقل على الوهم وكنت أكثر
حباً لابنتك منك لألقابك فإنك لابد معطيها إياه .

هنا احتدم غيظ الأب الذي اعتبر الطلب سخيفاً غير معقول وصاح :

أريد ذلك بخاطر رجل شريف مثلك يا ميلورد . أنقبل لشريف من أسرة عريقة
وإن قل خطره أن يطلق اسمه إذ ينزل به فيخلطه باسم أفاق لا مأوى له ولا عمدة
في عيشه إلا على المصادقة . وهنا يتبع روسو نفسه على لسان ميلورد بإعلاء
شأن الأفاقين الذين كانوا أصل الشرف والتبيل والفضل وبالطعن على العائلات
التي تسمى شريفة . أجل . « فماذا صنعت لمجد وطنها أو لسعادة بني الإنسان ؟
وماذا أنتجت في أكثر البلاد التي سطع نجمها فيها إلا أن ظهرت عدوة للقوانين
والحرية وإلا أن أعانت الاستبداد وظلم الشعوب ؟ فكيف بك تكبر أمر نظام
قاتل للفضائل وبلا إنسانية . ثم يفخر أهله بقيام العبودية ويستحيون أن يكونوا رجالاً ؟
أذكر تاريخ قومك ثم خبرني هل للأشراف زملاءك من فضل فيه ؟ فأيهم حرز وكهم ؟
وهل كان فرست وتل وستوا شر من طائفة الأشراف ؟ فما هو إذن ذلك المجد
الأخرق الذي تملأون الجو باسمه صباحاً ؟ أهو في خدمة رجل وفي العيش على نفقة
الحكومة . »

على أن هذه الحجج ومثلها وكل ما في خطاب التفاوت وخطاب المناظر من
الطعن على نظام الأشراف ومن إعلاء شأن الإنسانية لذاتها ومن اعتبار الخلق
والفضيلة والعقل والحكمة أساس كل نبيل وشرف لم تزعزع شيئاً من عقيدة البارون
الذي نشأ في أفكار طائفته العتيقة الخاطئة ، بل لقد اعتبر وساطة ميلورد إهانة له
وذهب لتوه إلى ابنته وإلى أمها فكبلهما بالهانة وبالازدراء ، ثم أبدى إلى الفتاة أنه
لن يزوجها إلا من صديقه الشريف فولمار ولو اجتمعت لدى سان برى خزائن
إنجلترا . ومنعها من مقابلة عاشقها ومن مخاطبتها ما عاشت .

بعد ذلك توسطت كليز في الأمر وأعانها خطيبها المسيو دورب وأمكن لها
أن تقنع سان برى بضرورة مغادرة الديار فغادرها هو وميلورد إدوارد قاصدين
باريس .

إلى هنا ينتهي الجزء الأول من الرواية . وقد افتتح روسو الجزء الثاني بهذه
الملاحظة (لا أظن نفسي في حاجة لأن ألفت النظر إلى أن العاشقين وقد افرقا
في هذا الجزء الثاني والجزء الذي يليه كانا يخلطان ويختطان أن ضل صوابهما) .
وهذا عن ميلورد إدوارد في أثناء السياحة بالترويج عن نفس سان برى ما استطاع .

لكه رأى أن عنايته ليست كافية كل الكفاية . كما أن رفض البارون وساطته ترك أثراً غير حسن في نفسه . فكذب إلى جويل يقول لها : « لى في دوقية بورك مزعة واسعة الأجزاء كانت مقام آباءى زماناً طويلاً . والقصر الذى هناك مجمع طيب وإن يك قديماً ، والضواحي على وحدتها بهجة تجمع مختلف المناظر . فهو الأور الذى يجرى عند منتهى الحديقة يقدم للعين منظرًا يديماً ولتسريحات التزراعة مصفواً سهلاً . وبخى الأرض كاف لإقامة أيد أستاذك ويمكن أن ينفذ عطف بعنايته . وليس إلى الخرافات على هذه البلاد الطيبة من سبيل . بل يحتفظ أهلها بالعوائد البسيطة التى ورثوها من العصور الأولى . فهذه المزرعة لك يا جويل إذا نزلت إلى الإقامة فيها معه . . . ولقد كان معقولاً أن تسع جويل ليلورة ادوارد وتترك بيت أهلها وتندفع وراء حبها وتكون بذلك مثلاً من أمثال المخاطرة في الحب . لكن روسو كان على طعنه على الكبراء والأشراف شديد الاحترام لهم كما كان على نيله منهم وانتقاصه شرفهم شديد الشعور بفضلهم عليه . لذلك كبر عليه أن يخاطر بانه البارون هذه المخاطرة التى تخرج بها من سبيل الحب المنطوق المفكر القدر قيمة كل التضحيات لتدفع بها في سبيل لم يكن لروسو أن يعرف مساكنها . ولذلك قدمت حكمة الفناء وضعفها بها عن معالجة هذه السبيل وفضلت البقاء في بيت أبويها قاطعة على نفسها عهداً ألا تتزوج من سان برى إلا عن رضا من أبيها وألا تتزوج من غيره إلا بموافقة ورضاه .

وأقام سان برى في باريس وجعل يخاطب صاحبه منها ويصف لها ما يراه من أخلاق أهل المدينة وما هم عليه من طيبة ورقة وظرف يكاد يبلغ النفاق ، وما تمتاز به الباريسيات من حسن اختيار في اللبس وقصد في التزين بالحنى وميل للمناظر كى يراهن الناس ، وتحجب إلى الرجال وإغضاء عن الفضائل المتعارفة وما إلى ذلك مما رأى القارئ من مثله فيما مر من علاقات روسو وغيره بالنساء . وفي هذه الأثناء تزوجت كلير من المسيو دورب فاضطرت جويل لسحب خطابات سان برى من عندها بعد ما كانت لديها في حوز حرير . ثم لم يمض زمن طويل حتى وقعت يد البارونة على هذه الخطابات فكان ذلك سبباً في مرضها مرضاً ألزمها الفراش وانتهى بأن قضى على حياتها .

كان لوفاة البارونة من الأثر على جويل أن كادت تنسى سان برى بل وأن

كادت تذكره لأنه كان سبب مصابها وسبب عارها . واشتد بها الحزن ولم تلق أمامها إلا صورة شقيقة نسبت فيها نفسها للنساء كله . لكن ، ولما تم مراسم الحزن ومواعيده . - ونسجن كما للفرح مراسم عند الناس ومواعيده - حتى جاءها أبوها بخبرها بضرورة زواجها من فولار . وبعد مناقشة وأخذ ورد ضعفت أمه رجاها ، وأزادت ضعفاً حينما علمت أن فولار الغنى أصبح فقيراً وأنه لا يزال على عهده مع أبيها في طلب بداها له بنشه الجدى الذى ترك بعض الأثر في وجهها . فكتبت إلى حبيبها تسترجه وعدها وحريتها ولم يرد هو في إجابة مطلبها .

« وحسب أن اليوم الذى أنتزع فيه منك انتزاعاً أخيراً هو آخر أيامى حتى لقد هان على أن أرى كفى وعدة قبرى ولا أرى ما أعد لزواجى . وكنت كلما اقتربت من اللحظة الحاسمة ازددت عجزاً عن أن أنزع حتى الأول من قلبى . ولم أبلغ من جهودى لإطفائه إلا أن ازداد شدة ولولاً . ثم هدفتى هذه الجهود الضائعة في الهواء حتى إذا كانت اللحظة التى وطئت نفسى فيها كى أقسم لعبرك بدائم الولاء والإخلاص إذ أقسم لك قلبى بدوام حبه ومودته . وسبقى إلى الميكل وكأني ضجة خيبة لا تلر مكان تفصيحها إلا رجساً ونجساً .

« وساعة دخلت الكنيسة عرتى هزة لم أشعر من قبل بها أبداً في هذا المكان البسيط العظيم الملوء بمجد من يخضع الكل له فيه . فقد أخذ بروحى فرغ لا أقدر على تصويره ، وسرت إلى رعشة خوف هزتى وكاد يغمى على معها ، ولم أستطع التقدم إلى المنبر إلا بكل مشقة ، وزاد بى الاضطراب في أثناء المخل حتى زادنى ما بقى لى من قدرة على تمييز الأشياء فرعاً منها . . . وقد كان من أثر ظلمة المكان وصمت الحضور العميق ومظهرهم المتواضع ووجود زمرة أهل بيتهم وموقف والدلى المحترم موقفاً مهوياً - كان من أثر ذلك كله أن نشر على ما سيكون معنى المهابة ، واستغر عدى التنبه والاحترام ، وصار مجرد التفكير في الذنب كافياً ليرعشى ويرعدلى . وتخل إلى أنى أرى رسول القدر وأستمع إلى كلماته ممثلة مجسدة حينما نطق القسيس بالصيغة المقدسة برزاة وقوار ، وبدت لى طهارة الزواج وكرامته وقداسته مما وصف في الكتاب القدس بقوة ووضوح . وأمنت بإجابات الزوجية الطاهرة الرقيقة وبما لها من خطر في أمر السعادة والنظام والسلام وبقاء نوع الإنسان . ورأت الأثر الذى يترتب على القيام بذلك الواجبات وكان من أثر ذلك

كله أن شعرت فجأة بثورة قامت في داخل نفسي وبقوة مجهولة تولت لساعتها إصلاح ما اضطرب من عواطفى وأخذت تردى إلى حمى قانون الطبيعة والواجب . فقلت في نفسى . . إن العين الخالدة المطلعة على كل شيء تقرأ الآن في خبايا قلبي وتقرآن مستور إرادتى بما سيصيب به فمى . وإن السماء والأرض لشهيدتان على ما سأخذه الآن على نفسى من عهد مقدس . شهيدتان من بعد على إخلاص فى الوفاء به ، فهل يستطيع من يعيث بأول الحقوق أن يحترم بين الناس حقاً . . وتنطلق جولى فى هذا الخطاب البديع الذى تصف فيه تطور نفسها من يوم حبها إلى يوم زواجها تحلل نفسها تحليلاً دقيقاً وتستظهر كل معنى من المعانى التى دارت بخاطرها فى أثناء حفل الزواج وبعده وتبين كيف استنجدت القدر ليعينها على محبة الزوج الذى وهبها القدر إياه . . ثم تنتقل إلى وجوب الاحتفاء فى حمى الدين بإمعان وإخلاص . وهنا تظهر لأول مرة فكرة روسو فى الدين واضحة حليلة ، فقد تقلب ما بين البروتستانتية والكنائس وعاش فى وسط كله الإلحاد والنقي ومع ذلك ظل مخلصاً للفكرة الإلهية مؤمناً بها تمام الإيمان ، ولعل هذه العبارة من جولى إلى صديقها أبلغ ما يعبر عن رأيه فى هذا الباب :

« لم أك يوماً من الأيام على غير دين أبداً . لكنى أفضل الشخص ولا دين له على من يكون ذا دين ظاهر لا يتصل بالقلب ثم يطمئن له الضمير ويقع منه بصور يجعله معتقداً فى الله بعض يومه ناسياً كل تفكير فيه بقية الوقت . . . »
« اعبد الكائن الخالد أيها الصديق الكريم الحكيم . وإنك إذن لمهلك فى رجوع النفس ذلك الطيف من العقل كل ماله من الوجود مظهر كاذب وهو يفر فرار الظل أمام الحقيقة الثابتة . فليس موجود إلا من أمر الله . هو الذى يجعل للعدل غرضاً وللحق أساساً وهذه الحياة القصيرة تقضى فى مرضاته ثمناً . وهو الذى يصيح بالجناة أجروا خفية أنهم فى قبضة يده . وهو الذى يقول للعاذل تسبه الناس إلى على فضائلك لشهيد : . . هو مثال الكمال ببطلته الباقية . ومن هذا المثال تحمل نفوسنا صورة إن غشت عليها الشهوات فإن دقائقها مرتبطة بالهوية الباقية تتمثل أمام عقولنا وتعينه على رد ما غيره الخلل والكذب . وإلى ليخال لى أن حسن الذوق كاف لمعرفة كل هذه الأمور . فما كان مرتبطاً بفكرة هذه الهوية ولا يستطيع فصله عنها فمن الله . أما ما سوى ذلك فهو من عمل الناس . .

وببساطة تأمل فى هذا المثال لأقدس تضرع الروح وترقى وتعرف كيف تزدري وضع بيوت وترى عن ذرى النزعت . وكل قلب دحنت إليه هذه الحقائق العليا بأبى على نفسه . عند الناس من توفه الشهوات ويصل من رفعة السامية إلى التفرز من كبريائهم وبعده تأمل عن وضع نزعاتهم . ولو أن الكائن الغضبي الذى شغل به لم يوجد حس أن يشغل على الرغبة من ذلك به من غير انقضاء ليكون أكثر امتلاك لنفسه وأشد قوة وأكثر سعادة وأعظم حكمة .

وهذا التعبير الذى نخصه يد جولى هو ندى سكره روسو بعد ذلك فى هذه الرواية وفى أميل وفى اعترافاته وبقية كتبه . وهو واضح فى بيان أن روسو كان بروتستانتياً حراً . وكان كما قال فاجيه « فيلسوفاً مؤمناً بالله ترى بروتستانتياً وعشق البحث والاجتهاد بروح مستقلة تمام الاستقلال ، واحتفظ من تربيته بالميل إلى الدعوة للمخلق القاضل وبكراهيته الديانة الكاثوليكية والتفرز منها » .

ونتهت مدام فولار بعد إرشادها صديقها سبيل الحق وبعد دعوتها إياه إلى القضية الصحيحة الخالية من شوائب الشهوات بإعلان انقطاع ما بينهما وبأمره أن يكتب إن شاء أن يكتب إلى مدام دورب ابنة عمها .
وما وصل هذا الكتاب إلى سان بى جن صوابه وفقدت حياته فى نظره كل معنى ولم يبق لها أية غاية . ففكر فى الخلاص منها وكتب إلى صديقه ميلورد ادوارد خطاباً طويلاً يفند فيه بهدوء وطمأنينة حجج الذين يزعمون الانتحار جناً وخروجاً على أمر الله . لكن كلمة من صديقه كفت لترده عن عزمه . ثم ظل بعد ذلك أمد ضويلاً فى لندن . ظل حتى علم أن جولى أصبحت أمّاً . فإزداد همّاً وكآبة . لم ينج منها إلا أن سافر على مركب إنجليزية من مواعين أسطول تجارى طفق يجوب البحر والأقطار مدى ثلاث سنوات متتالية .

هذا الجزء الثالث من أجزاء الملويز بديع بدءاً خاصاً فى أسلوبه ، وفى تفكيره ومنطقه . وهو كما رأى القارئ انتقال من حكم العاطفة المطلق إلى النظر بعين البصيرة وعقل فى وسائل الحياة وواجباتها . فقد انتقلت جولى ديبانج - وهى لفنانة الضعيفة المستسلمة هواجس الحب المسلمة نفسها إلى كل دوافعه - وهى معتبرة أن قانون الحب هو قانون الحكمة والفضيلة والحياة - وهى التى نسبت

تُعرف مولدها ونسبت الفوارق الاجتماعية ونزلت عن تقاليد وسطها وامتيازاته تختلط بشاب من سواد الشعب ولتدخل في حوزته وملكه - انتقلت فجأة ساعة وجوده في الكنيسة لترى في الزواج لا في الحب عماد السعادة ولتفكر كل ما كانت فيه في أثناء حبها من عماية وضلال ولتستجد القدر أن يوفق بينها وبين زوجها ويبت علاقتها بمحبوبها القديم .

تلك حركة نفسية قوية يدهش صدورها من جوار الضعيفة النفس المهمة الثرية . لكنها حركة تدل على دقة ملاحظة روسو في هذا الطرف بنوع خاص . فإن أسرع النفوس للانتقالات الفجائية هي النفوس الضعيفة . ذلك بأن ضعفها يقعد بها عن ملازمة الوسط والتحكم فيه . فتخضع لسلطان فكرة أو عاطفة أو فرد حتى تشعر بنفسها وقد جعلها تضعفها سخرية وهزؤا وحتى ألبسها عاراً نهون معه الحياة . هنالك تظهر فجأة بدافع الاحتفاظ الحيوى إلى مركز جديد يحميها من عارها ومن سخرية الناس بها .

ولو لم يقف البارون ديتانج في وجه ابنته بالشدة التي وقف بها . ثم لو لم تشعر بعد ما أنت على حياة أمها وكسرت قلب أبيها بأنها على شفى الإثم والخزي والعار ، إذن لما تركت الكنيسة في نفسها هذا الأثر . ولو أنها كانت ذات نفس قوية وإرادة صلبة وشخصية ذاتية لما اهترت نفسها هذه الاهتزازات التي وآها القارئ بل لقررت نوعاً من الحياة يتفق مع قوة ذاتيتها وصلابة إرادتها ثم هي إما واجهت من زوجها خصماً تناصبه الكفاح حياتها ، أو ضعيفاً تخضعه لها . أو داهية يلعب بالحياة وبها ، وفي الحالين الآخرين تكون هي السعيدة .

ودقة ملاحظة روسو في هذا الطرف الخاص راجعة إلى أنه كان يلاحظ صورة من نفسه . وهل كانت حياته إلا سلسلة ضعف واستكانة ثم ثورة من جديد . ألا تراه وقد أقسم ألا يكون له بكابر علاقة ورفض مراراً دعوة مدام دلكسمبور له يرجع عن عزمه حينما زاره دوق لكسمبور ولا يكتفى برد الزيارة بل ينتقل إلى قصده ويعيش معه ويمضي سنين تبعاً في كنفه وحمايته . ثم ألا ترى كيف ترك الصبر فجأة بعد ما كان مصراً على البقاء بها . فهذه الطفرات هي من نوع صفة جين ديتانج في ساعة حفل الزواج .

وفيما كان روسو يجوب البحار يهادى به السفين ما بين صقيع المتجمد ونبير

خط الاستواء وهو يزرع على جبال الأمواج نقائمة المهتمة قطع حبه ويرسل في أجواء البحار تهديدات وهدوء وهواه كانت جين في أحضان زوجها وكان أبنائها في أحضانها . وكانت السعادة تحيط بهم جميعاً ولا ما كان بثقل الزوجة من أسرار ماضى غرامها مما كانت لا تفتأ تدرف عنبه دمع التوبة وترجو من رحمة القدر عنه المغفرة والإذابة . وكانت ابنة عمها كبير على مقربة منه تواسبها ساعات ذكرها وتنصح إليها ألا تبدى من أمر هذا الماضى شيئاً إلى زوجها حتى لا تدخل إلى نفسه من أهم ما قد يعكر صفو عائلته منت عليها الأقدار بالسعادة .

ثم غالت المنون زوج كليز فانقطعت عن ابنة عمها زمناً ترى من شأن ميراث ابنتها . وفيما هي بعيدة عاود جويل رجوع من صوت ضميرها ألح بها لتكشف للمسيو فولار عن صحيفة ماضيها . وفيما هي في مناقشة ذلك مع كليز عاد سان پرى من سياحته وتجواله .

كنا نود مع جويل لمر لو نرى الموقف الذى اعترفت فيه جويل لزوجها بماضى غرامها . وكنا نريد أن نعرف أثر ذلك في نفسه وما قام بينه وبين جويل من حديث . لكن روسو مر بذلك مرّاً وكأنما تركنا نفهم أن المسيو فولار قال لجويل ما قاله هو لتريز لفاسير حين اعترفت له بأن شاباً استغواها مبتدأ الشاب من أنها كذلك أحب إليه . أو أن المسيو فولار وكان يوم تزوج جويل قد فقد ثروته وأصبح بعد زواجها مدير مالها وثروتها لم يبق له إلا أن يذعن لكل مظاهر إرادتها . على أنه كان يعلم كل شيء قبل اقترانهما وإنما رضى به إعجاباً بصفاتها وطمعاً في محبتها واحتفاظاً بكلمته لأبيها . ولذلك كان كل ما وقع لنا في الملويز عن أثر هذا الاعتراف أن كتب فولار إلى سان پرى يقول له : « كلت أن أكتب إليك برغم عدم سابق تعارفنا . فقد كشفت أحكام الزوجات وأعزهن لزوجها السعيد عن مستور قلبها . وهو يحسبك جديراً بما كان من محبتها إليك ويفتح أمامك بيتاً يسود فيه الطهر والعفاف . وإنك لو اوجد فيه الصداقة والإكرام والاحترام وثقة . فراجع نفسك واعلم أنه ليس ثمت ما يخيفك . فاحضر ولا تتريب عليك . وإنك لن تترك إلا بعد أن تترك لك صديقاً - قديراً . وعشت جويل على هذا الخطاب بخاشية فيها : أحضريا صديقاً فإننا ننتظرك مشوقين . ولعل لا أهم لرفضك رجاءنا - جويل . وأرسل هذا الخطاب وحاشيته طي كتاب من مدام دورب أبدت فيه ما لا يزال يقلبها من شوق إلى

سان يرى ومحبته له . عطف عليه .

وعاد سان يرى بعد ما جوب في الآفاق راسياً من الغيمة بالأياب . وأخذ هذا الحجاب قاضطرب يده وسار في طريقه إلى كلارانس : « وكنت كلما اقتربت من سويسرا ازدادت شعوراً باضطرابي حتى كانت اللحظة التي بدت لي فيها بحيرة ليان من أعالي الجورا لحظة سحر وبهر . ونسيت ربح بلادى العزيرة التي أغرفت من قبل هوائن مسراتها قلبي . وهواء الألب الصافي الصحيح . ونسيم ولى الرقيق البالغ في عذوبته ما لم يبلغه عطر الشرق . وتلك الأرض الغنية الخصبة . وهذا المنظر الفذ أبدع ما وقعت عليه عين الإنسان . وذلك المقام الساحر لم أجده في العالم نظيراً . ومنظر الشعب السعيد الحر . وجمال الفصل ورقة الطقوس وألف ذكرى عذبة أيقظت ما تذوقته من مشاعر - نسيت ذلك كله فسرت إلى نفسي هزات لا أستطيع تصويرها وتخيل إلى أن قد رد على نعيم المتاع بكل حياتي جميعاً معاً .

ثم شعر بانقباض وباضطراب وخوف لما قارب منزل فولار . لكن حسن اللقيا وقوة عزيمة جولى بددا مخاوفه واضطرابه . وقد وصف روسو حركات نفس العاشقين في هذا الموقف بإسهاب وإبداع وقوة حتى انتهى بهما إلى الطمأنينة في كنف الطيب فولار بلغت به طبيته حتى أن أباح للعاشقين تبادل القبل إشفاقاً على سان يرى وأملأ في شفائه من لاجع غرامه .

وبعد أيام ارتحل سان يرى فزار مدام كلير دورب ثم عاد . ولم يطل به المقام في المنزل الجديد حتى جاءت إليه مدام كلير دورب هي الأخرى . وكذلك أصبح سان يرى بين محبوبته وزوجها وصديقه . وظلوا جميعاً سعداء بهذا العيش لا تلعب دوافع الشهوة بنفوسهم ولا يحس المسيو فولار أى غيرة من هذا الضيف الذى فتك في الماضى بعفاف جولى بل تجمع الفضيلة بينهم على نحو ما يريدون . . ولا غرابة في قهرهم كل نزعات الحس فقد كانت إرادتهم في تناول أيديهم ولم تكن قلوبهم من قلوب البشر .

وهذا ما أخذه كثير من الكتاب على روسو سواء في ذلك خصومه والمعجبون به . ولنا ندرى هل كان روسو ملوماً بمقدار ما يظنون . فإنما وجه الغرابة أن يكون هؤلاء جميعاً معاً ثم يكونون من الطهر ومن الفضيلة بما لم يطعم فيه بنفوس في قصة

تأيس على ما كان من خلوص نفسه ومن قدسه . أما اجتمعهم على هذا سحر فلم يكن غريباً في ذلك العصر . عصر مدام دبنائى ومدام دسيران ومدام ديفو ومدام دودنو ومدام دلكسمبور وغيرهن من سيدات القرن الثامن عشر كن يعتبرن أزواجهن شركاء شرعيين كل ما لهن من الشركة سر الصورة الظاهرة لكن تبدو الناس صورة مشروعة ثم لا يكون لأى من الزوجين حق الحكم على قلب صاحبه ولا على تصرفه . بل كثيراً ما كان الزوج يعتبر صورة مكتملة في المنزل لا يؤبه لها إن وجدت ولا يعنى بها إن غابت . وقد بلغ من ذلك حتى روى أن أحد الأدباء ممن كانوا يحضرون مائدة سيدة من هاتيك الشريقات لاحظ أن رجلاً من زملائه على المائدة لم يحصل التعارف بينه وبينه قد انقطع عن جميعته فأخبرته السيدة أن ذلك الرجل كان زوجها وأن القدر المحتوم أصابها فيه : وليس هذا الزوج إلا مثلاً لأزواج كثيرين في ذلك العصر .

ثم إن حياة جان جاك كانت سلسلة من نوع حياة سان يرى . فكانت مخالته لمدام دفرانس كمخاللة سان يرى لجولى قبل زواجها . وكانت حياته مع مدام دبنائى وتعلقه بدمام دودنو ومقامه مع دلكسمبور حياة وموق وتطلع كحياة سان يرى مع جولى بعد زواجها . وكانا جميعاً يتكلفان الفضيلة القاسية لا حباً في الفضيلة ولكن احتفاظاً بمركز عجزت مواهبهما العملية وقعد بهما فقرهما عن الاحتفاظ به . لذلك لم يكن المركز الذى وضع روسو فيه أشخاص روايته غريباً عليه ولا على جمعية عصره وإن تصورناه نحن غريباً بمقارنته بجمعية العصر الحاضر . وكل ما فيه من الغرابة إنما هو ذلك الطهر القاسى الذى يتناقى مع الطباع البشرية وبخاصة عند أهل جبل إباحى رقيق فهم تمام الفهم إن الحياة غاية الحياة وأن طبق هذه النظرية الرقيقة القوية تطبيقاً فيه من الإغراق ما قد يشوه بعض فائز حماها .

على أن روسو قصد من وضع أشخاص روايته في هذا الوضع ومن تحكم الفضيلة فيهم وإغفالهم من غواية الشيطان بمرعة غاية معينة . فقد أراد أن يدلل لأهل زمانه على أن القلب الطيب والإرادة الحسنة يكفلان الإقامة من الزلة والإقالة من العثرة . وهو بعد أن كتب الجزئين الأولين من الرواية ليرضى شهوات قلبه ويروى ظمأ عواطفه عاد فذكر مبادئه ونزعاته الخاصة فصمم على استكمال الرواية ونصب نفسه خطيباً ومعلماً وداعياً إلى السعادة عن طريق الفضيلة والأخذ

الطبيعة . رأى رجل أجدر من روسو بالقيام بهذه الرسالة وهو ذلك الحقير المدنس لدى بقى في حقارته وضعته حتى بلغ الأربعين من عمره ثم نشب له الفضيلة وعالج عوج نفسه قصد إصلاحها فوصل من ذلك إلى مقام يعبطه عليه كل من كان للفضيلة محباً وبها متعلقاً .

البيان الوسيطة إلى ذلك صور لنا فولار المسن الهادئ النفس القليل التعلق بالأشياء متعلقاً بجولي ولعاً بها . فلما وقف من أبيها على ماضي صلها بسان يرى قال : إنها كذلك أحب إليه وأخذ على نفسه إسعادها . ويسر له ذلك ما حدث في نفس الهادئ من التغير والثورة ساعة حفل الزواج . وقد رأى القارئ أنها حرمت على ساند يرى مكاتبها بله زيارتها وأنه بعد سنين من ذلك وبعد أن أصبحت هي أمّاً ركب البحر ثلاث سنين تبعاً فلما عاد كشفت جولي لزوجها عن سابق علاقتها . فكتب هو إليه يدعو إلى منزله ابتغاء شفائه من غرامه . وكانت حجة في ذلك أن الحب عاطفة سريعة إلى الزوال ، وأن جولي وسان يرى افترقا وجيهما في عنفوان قوته فبقى على هذه القوة في نفسيهما برغم ما طرأ على وجود كل منهما خلال هذه السنين من التغير . ولو رأى كل ما حل بصاحبه لهدأت حدة عاطفته وهدد الحب في قلبه وانقلب صداقة لا تخاف عواقبها ولا تخشى .

ولما جاء سان يرى ورأى مدام فولار زوجاً وأمّاً وشعر بما أولاه المسيو فولار فولار من ثقة لم يدر بخاطره أن ينزل عن هذا المستوى ليكون مجزئاً قديراً على التمسك في ذلك الدناءة إلى حد التفكير في الفتك بعرض رجل ائتمته وبسعادة امرأة لم يزل يله إليها شديداً ويشرف أبناء هذين الزوجين العزيزين . فظل وإياهما ينهل من عذائهما . لكن ذكريات الماضي كانت تهز قلبه هزات عنيفات من حين لحين . وكان جولي تشاركه اهتزازاته فتحول الفضيلة دين أن يحدث ذلك من الأثر أكثر مما كان .

وهو يصف روسو بأسباب وتطويل يستغرق عشرات الصفحات صورة حياة زوجها وبناتها على ما وجدهم سان يرى . فهو يصف خدمهم ومزارعهم وبنوهم بؤلاء الخدم والمزارعين وصلات الخدم والمزارعين بعضهم بعض . ثم يصف مادل فولار وحديثه وطبوره . وهو يضع ما بين هذه الأوصاف الأفكار الضرورية من ضرورة تضامير الأغنياء والفقراء تضامناً أساسه العطف والرحمة

من جانب الأغنياء والاحترام والمحبة من جانب الفقراء - ومن ضرورة عدم الامتزاج بين الرجال والنساء إلا في الاجتماعات رسمية والحفلات الرقصة التي يجتمع فيها الجنسان تحت إشراف الأكابر وذوي بزم - ومن ضرورة بطلان ضرورة تعويد الناس جميعاً من كل الطوائف مداومة العمل . ومن ضرورة تربية الأطفال في أحضان الطبيعة وإدخال محبتها في تربيتهم حتى لا يفسد منهم من بعد صناعة الاجتماع . ومن ضرورة البر بالفقراء بموزين ومما إلى ذلك من وسائل السعادة حسب إلهام الطبيعة - وإنك لترى هذه الأوصاف والصور والأفكار منشورة على صحائف الرواية بإبداع في الأسلوب الموسيقي الجذاب بدعك وأنت تقرأها مسحوراً على نفسك مأخوذاً بجمال بصيغة البديعة الذي أحاطك به روسو فأحيا حولك الغابات بأشجارها وأزهارها ووبرها وغدرانها ورقير نسيمها وشمم عطرها حتى أنساك نفسك الوقت الذي يمر بك وأنساك المكان الذي أنت فيه .

ولم تكن هذه الأوصاف والصور خيالات شاعر ولا أحلام كاتب ولكنما قصد بها روسو أن يصور لجمعية ذلك العصر مثلاً من أمثلة الكمال الإنساني الذي يجب أن ينسج عليه للوصول للإنسانية إلى السعادة . ولقد سار في ذلك على مثال الأنبياء الذين كانوا يضربون الناس الأمثال ويجذبونهم إلى الفضيلة بجميل ما يصورونه من آثارها من تافه الأعدال وجليها . فكما رتب بودا وغيره من الرسل صور الطعام والشراب والملبس والنوم والبر بالفقير وإعانة الضعيف كذلك فعل روسو . فلم يترك حركة من حركات الإنسان إلا صورها على ما يجب أن تكون عليه من الكمال متخذاً عائلة فولار ومن يحيطون بهم من خدم وعمال وما يحيطهم من مناظر ومظاهر مثلاً أعلى للإنسانية سعيدة . وأعلى مثل لسعادة عنده هو العيش البسيط وسط الطبيعة الجميلة بعيداً عن ضجة المدن وضوضائها وحبث الحرية الكامنة الشاملة .

على أن السعادة ببلوغ المثل الأعلى إنما تنأى للناس إذا غنى أهلهم بتربيتهم من أول نشأتهم حسب إلهام الطبيعة ووجوبها . والتربية وفق لإلهام الطبيعي عند روسو لا تكون بتقييد الطفل وتعويده عوائد الاجتماع ولكن بتوجيه في الطريق الطبيعي وذلك بأن يعامل ويعلم طول مدة المدة أنه طفل ضعيف محتاج لغيره محتاج لخدمة الذين يستطيعون تركه . وأن لا يناقش مناقشة الكبار ذوي العقل في وقت

لا يتكون عقده فيه بعد . . . وإن من الأغلاط المشتركة بين جميع الآباء الذين يهين بشيء من العرف أن يحسبوا أولادهم على جانب من العقل من يوم مولدهم وأن يخاطبهم مخاطبة الرجال من قبل أن يستطيعوا التفطن والكلام بدعوى أن العقل هو الوسيلة لتعليمهم . وذلك وهم . وإنما يجب استعمال كل الوسائل ليشقى الذهن . فإن أشق ما يصل إليه الإنسان وأحوج له لطول الزمن هو العقل ومخاطبة الأطفال من نعومة أظفارهم بلغته لا يفهمونها تعودهم على الاكتفاء بالتشديق بالألفاظ وعلى تقليد ما يقوله الآخرون ثم يحسبون أنهم أوتوا من الحكمة ما أوتى أساتذتهم . ومن شأن ذلك أن يجعلهم مجادلين حياً في الجدل حتى تراك ولا تصل منهم إلى ما كنت تحسب أنك واصل إليه من طريق العقل إلا بوسائل الإرباب مضافاً إليها ما تستدعيه غالب الأمر من الكبرياء والتعظيم . . .

وهنا يعرض روسو صورة من فكرته في التربية قد لا يحسن أن نسوقها قبل الكلام عن كتابه (أميل أو التربية) فثم موضع عرضها على شكل أكمل وأنتم . . .

ولما فرغ روسو من وضع قواعد السعادة حسب إلهام الطبيعة ووجها سواء في شأن تربية الناشئة أو في الحياة المنزلية والاجتماعية رجع يفكر في شأن أشخاص روايته بعد ما تركهم زمناً طويلاً وبعد ما نسى القارئ أو كاد أنه يقرأ رواية قصصية تحكي حوادث وعواطف وميول وشهوات الأشخاص الذين ألفهم والذين ألفت الرواية من أجلهم . لكن الموقف الذي وصل إليه أشخاص الخلويز لا يتحمل نشاطاً جديداً ولا حركة . إنهم جميعاً أشخاص كانوا على جانب من التقص أو من سوء الحظ ثم عاجلوا الحظ وعاجلوا الفضيلة وعاجلوا السعادة فوصلوا منها جميعاً إلى كمال لا يعرف الإنسان له مثيلاً إلا فيما توصف به حياة أهل جنة الخلد فلم يسق لهم إلا أن يخلدوا في هذه الحياة ولم يسق لرواية روسو موضع للاتهاء .

ولقد شعر روسو بذلك تمام الشعور . وكان طبعياً أن يشعر به وقد بدأ روايته وسار فيها من غير نظام خاص أو ترتيب معين . فلما استحس دقة المركز لم يجد وسيلة يخرج بها من المأزق ويختم بها روايته إلا ابتداء حادثة غير منظورة تضع حداً لحياة أكثر أبطال الرواية خطراً .

أما الصورة التي رسم بها روسو هذا الحادث الحاسم والعواطف التي أحاطها

به فلا تخلو من جاذبية ككل ما يصوره ويكتبه . فقد اقتضت إرادة ميلورد ادوار أن يسافر سان برى إلى إيطاليا . وفيما هم في الطريق قضت ظروف أن يمضيا الليل في فلنيف . وكان من حظ سان برى أن ينزل في غرفة نزل فيها في إحدى سياحاته الماضية إيان وحده وهيامه . فهاج ذلك قلبه وعادته لتبيل أحلام جعلته يرى بينه وبين حبيباً كثيفاً لم يتمكن معه من تبين صورتها .

ولما وصلوا إلى رومة شغل ميلورد ادوار بعلاقات غرامية بينه وبين إحدى المركيزات كما أخذته عن نفسه فتاة تدعى لور . وقد توفيت المركيزة بعد زمن ففكر ميلورد في الاقتران بلور . وهنا رأى سان برى في ذلك ما يحط من قدره كرجل من أشراف إنجلترا . لذلك جاهد حتى وصل لإقناع الفتاة أن تلجأ إلى الدين وأن تطهر في حمى الله .

أما جولي فقد رأت فيما علمته من تذكر سان برى سابق غرامهما وفيما قد يجز ذلك إليه من محاذاة الخطر أن تنصح إليه بالاقتران بآبنة عمها كليل . وتذعرت إليه بحجة غير مشرفة له . فقد خشيت أن يفسد طمأنينة تابعاتها وخدمها باتصاله بهن ولكي تبرر هذا المطعن قالت : « لنقل كل شيء ما دام حتماً أن نقوله ، ولنسعد التواضع في سبيل محبة الفضيلة محبة صحيحة ! فالرجل لم يخلق للغزوبة . ومن الصعب ألا تجر حالة مخالفة كل المخالفة للطبيعة إلى اضطراب واضح أو خفي . فما هي الوسيلة إلى التخلص من عدو لا يفتأ الإنسان يحمله في ثنايا نفسه .

« انظر في البلاد الأخرى إلى أولئك الغلاة الذين يتخلون عن أن يكونوا رجالاً ترى أن الله يجزيهم عن غوايتهم فيتركهم ونفسهم يدعون لنفسهم الولاية وهم أدنياء ينطوي ادعائهم على الرجس والخطيئة ويسقطون إن حقوق الإنسانية إلى ما دون الإنسانية » .

(وكذلك ترى روسو لا يجد فرصة يظهر فيها فضل البروتستانتية على الكاثوليكية إلا انتهزها) .

على أن هذه الحجة لم تمنع سان برى من أن يشعر بما في خطاب صاحبة من الإهانة له وإن مر بها من الكرام باللغو . وليجيب على اقتراحها حلل عاطفته

لقد عهدنا روسو في حياته العادية غزير الدمع إلى حد فوق المعقول . فهو يذرفه لكل شيء وللأشياء . يذرفه لخروج دوق لكسمبور مع كوانديه ليسير وإياه بعض الطريق معتبراً في ذلك من التنازل ما يدل على عظيم طيبة قلب هذا السيد العظيم ، ويذرفه حين يدخل غرفة البني فيراها على جمالها مسلمة للكافة يلهو بها هو وغيره ، ويذرفه على أيدي وتحت أقدام مدام بازيل ومام دلاناج ومام دودوت وغيرهن لغير سبب يستعبر له أى رجل سواه . . . لذلك لم يلبث أن أطلق عنان قلمه في الملويز حتى أفاض محاجر عشاقه بدموع مخلصة صادقة لا يستطيع قارئ أن يمنع نفسه فلا يشارك فيها أصحابها إلى حد قل أو كثر . فضلاً عن سداد الملويز للحاجة إلى الدموع واستغناؤها للعاطفة الخالدة فهي قد نشرت في جو ذلك العصر المتروك البعيد كل البعد عن مظاهر الطبيعة البكر أبهى صور الطبيعة وأجلاها ، وما أكثر ما يتسلى المتروك بالصور عن الحقائق وما أكثر ما تكفيه نقوش الرسامين وأغاني المطربين وروايات المسارح عن الغابات والأشجار والأطياف والحياة الحية بذهابها وحيثها وجمالها وجلالها وأغاريدها ونحوها . . . بيد أن رواية روسو كانت أبعد من ذلك أثراً . فهي بنشرها صوراً لطبيعة حية ناطقة في مقاصير السيدات قد أثارت في قوس أهل ذلك الجبل الميل للرجوع إلى أصول هذه الصور ودفعتها بذلك إلى حب المتاع بالطبيعة البكر في بكورتها ذات البهاء والجلال . وما كان أبعد هذا الميل أثراً إبان الثورة الفرنسية . ولقد جر الميل إلى المتاع بالطبيعة حب البساطة بما أبدع روسو من وصف هذه البساطة وبيان ما تؤدي إليه من السعادة في الحياة . والواقع أن أهل العصر كانوا يشعرون بثقل حمل الحياة المترفة ولكنهم كانوا لا يجفون عنها حولاً لأنهم كانوا يعتبرونها ضرورة من ضرورات الوجود . فلما صور لهم روسو جمال البساطة وعظمتها بدءوا يشعرون أن البساطة ليست سبباً من أسباب الحقارة ولا الضعة ، وأن الإنسان يستطيع أن يكون بسيطاً وعظيماً معاً .

على أن أبدع ما في رواية روسو ارتفاعه بسان يرى ويجول من درك الدنس والخطيئة إلى ذروة الطهر والفضيلة على سلم التوبة والتكفير ، ثم معادلته بين عذاب الاستسلام للخطيئة على لغة هذا العذاب وطمأنينة النفس الفاضلة طمأنينة تبلغ حد السآمة ، وتصويره جولى في التجائها إلى حمى القداسة الروحية

تريد الوصول منها إلى حد الكمال ، ووصفه ما تجد هذه المرأة الفاضلة في ذلك من المشقة ، وكيف تذهب المشقة عنها سآمة الطمأنينة .

ولسنا في حاجة لأن نعيد أن الأسلوب الموسيقى العذب الرقيق المحزون الذى امتازت به هذه الرواية كان من أكبر أسباب الثورة التى أحدثتها فى الأدب . فقد أحدثت فى الأدب ثورة بالفعل . كان الأدب الرومانى مقصوراً قبلها على الوقائع التاريخية المطولة الكثيرة الشعب والمملوءة بالمجازر أو الدسائس أو بالغرائب التى يذهل أمامها الخيال ، ثم تبعثر بينها بعض الأفكار الجافة . فخلقت الملويز أدباً لا يعرف الوقائع الكثيرة ولا يعرف الأوهام والخيالات ، وإنما يعتمد على وقائع قليلة بسيطة متعارفة يقيم عليها بناء الرواية ثم يملأ الباقي بزخرف الوصف ودقائق التحليل ورقيق العواطف . ويغلو في ذلك إلى حد يرفع الإنسان عن مستوى الإنسان في تفكيراته وفي عواطفه وفي حسه وإحساسه .

وهذا الغلو من ناحية وعدم التقيد بالوقائع التاريخية من الناحية الأخرى هو الذى جعل هذه الرواية طليعة للرومانترم في فرنسا . فقد كان الأدب قبل ذلك إنشائياً (كلاسيك) كما سبق بيانه . وكان نزاعاً للرجوع إلى آداب اليونان والرومان والصدور عنهما وورد مناهلهما واعتبارهما فى الأدب مثال الكمال . على أن الخروج عليها بدأ في ممالك أوروبا عدا فرنسا في أيام ثورة الإصلاح الدينى التى قام بها لوثر وكلفن وكوسوث . وكان شكسبير في كثير من رواياته رافع لواء الخروج إلى ميادين الحرية الأدبية في حدود العقائد السائدة . لكن فرنسا بقيت مقيدة بالكلاسيكيزم وبنى راسين المثل الأعلى في الكمال الأدبي لتبديه به أكثر من سواه . وكورنى الذى كان من أبطال هذا الأدب لم يسلم من النقد لأنه كان يندفع في بعض رواياته إلى خارج حدوده . أما مولير فقد رفع علم الثورة ولكنه بقي في ناحية الهزليات (الكوميك) فاعتبر صاحب نوع في الأدب جديد لم يؤثر على كمال راسين ولم ينقص شيئاً من مكانة أدبه . ولما جاء القرن الثامن عشر وبدأ التغير لم يستطع أحد أن يواجه قواعد الأدب المقررة وأن يعلن وجوب تصوير الأدب بصورة العصر الذى يعيش فيه ، وظلت الروايات التى من هذا النوع تعتبر خارجة على معنى الكمال الأدبي . ولم يكن إلا الشريد روسو ، هذا العاشق للطبيعة الهائمه بجمال سويسرا المغرم ببحيراتها العائش في نفسه بنفسه هو القدير على

الخروج بالهلويز لتكون طليعة للرومانتم الرومانسك^(١).

كان طليعة للرومانتم لأنه ترك الماضي بجملته وترك اليونان والرومان وانتزع روايته من الحياة المحيطة به وأقام أشخاصها بين الأشخاص الذين عرفهم والذين كانوا يعيشون معيشة كل أهل زمانه . وكان رومانسك (روائياً) لأن أشخاصه كانوا في عواطفهم وفي حياتهم وفي تفكيراتهم روائيين يغفلون في كل ما يخصهم يحبون إلى حد الجنون ويضعفون إلى حد الجريئة ويتوبون إلى حد الطهر الأقصى ويعيشون معيشة حلم وأمل بحث . ولعمرك هل عرفت فيمن عرفت أمثال جويل في ضعفها وفي عقلها وفي منطقها الخطأ في توبتها وفي مقامها بين زوجها وعشيقها وفي موتها واعترافها . أم هل عرفت مثل زوجها وفلسفته التي بلغت من تحكيم العقل أن أعدمته عنده كل عاطفة وكل شعور وكل أثر وكل غير . سان يرى وكثير وميلورد ادوار . هل في الحياة أشخاص مثلهم . أو أنهم جميعاً خلق خيال متوهج يبلغ من بريقه أن يسي القارئ بله القارئة عن نفسه ويسلبه وقته وهو بذلك فرح وله مسرّح . أخشى أن أكون قد غلوت . فقد ظهر في عالم الأدب بعد اثنتي عشرة سنة من ظهور الهلويز كتاب صغير الحجم إلى جانب الرواية الضخمة . كان روائياً (رومانسك) أكثر من رواية روسو . وحاز من النجاح ما حازت إن لم يكن أكثر . أقصد قصة «الأم فرتر» التي وضعها الكاتب الفيلسوف الألماني جيت Goethe وفيها قص حديث غرامه مع شارلوت ووضعها في صورة المراسلة ووصف فيها حالاً نفسية تزيد في دقتها الفلسفية على حال سان يرى بكثير . ولنا نريد في هذا المقام أن نقارن بين الكتابين إلا من حيث تشابههما في الوضع ، ولأن فرتر كان يعشق شارلوت المخطوبة إلى ألبير كما كان سان يرى بهم بجويل زوج فيلار ، ولأن ألبير وفيلار كانا على درجة واحدة في فلسفة الغيرة . أما كتاب جيت فيمتاز بأنه أصدق هجة وأقوى عاطفة . ويرجع ذلك إلى أن جيت كتب قصة حبه ولا يزال حبه ملتباً . فلما أتمها شعر بحبه وقد تلاشى وكأنما كان قد ملك شارلوت بنشره قصة غرامهما . أما روسو فكان يقص أحلامه وأوهامه ويحكى في شيخوخته ذكريات شباب مفقود . كذلك فإن الحادث الحاسم في رواية روسو سخيّف مصطنع . أما فرتر فقد بلغ من شدة وجده حتى انتحر هياماً بمحبوبته وحتى نشر بذلك في جو أوروبا كلها

(١) الروائي.

فكرة انتحار العاشق الذي أسفط في يده .

إذن قصة جيت هي قصة الحياة والحب والموت . وقصة روسو هي قصة الحب المتطير على أجنحة الخيال والوهم . وإن بك وهمه بديعاً وخیاله ساحراً . على أن سحر خياله وإبداع وهمه لم ينس أهل عصره ما نقص قصته من صنعة روائية . فقد لاحظ كثيرون - ومنهم مدام دبناي - أن المؤلف كثير الظهور في خطابات أبطاله . والواقع أن أكثر من نصف الرواية لا يخص أبطالها ولا يتعلق بوقائعها وإنما هي آراء روسو في المبارزة وحياة باريس والاقتصاد المتري والتربية وما سوى ذلك مما مر بك . وتلك آراء لا تفتنضها مواقف أبطال الرواية . فدرسها فيها هو إذن حشو شنيع تأباه الصنعة كل الإباء .

كذلك فإن مواقف الرواية ملفقة تلفيقاً مدهشاً لا يبرره إلا حياة روسو المدهشة . على أن بين الموقفين من الفرق أن روسو نم يكن يوماً من الأيام مختاراً في حياته . على حين كان أشخاص روايته مطلق الاختيار في كل ظروف الحياة . فهو لم يعيش إلا كما أرادت السيدات دفرانس ودبناي ودودنو ودلكسمبور . أما جويل فكانت من يوم اقترانها تعيش كما تشاء ، وكان كل المحيطين بها - حتى سان يرى - يكتفون عقولهم وقلوبهم كما يحبون ويزجون بها في أعماق التصور الروائي طوعاً واختياراً .

ولم يكن ذلك بالغريب فيهم إذا نحن رجعنا إلى منطق جان جاك . فقد كان منطقاً تحكيمياً قائماً على أساس من الإلهام في أبسط درجاته أكثر صدوراً عن دفعات العاطفة والشعور منه عن وزن العقل للأشياء وتقريره قيمتها وتحليله إياها . وكانت الأشياء كلها مادية يغشاها أمام عقله ستار من الخيال فيخرجها عن صورتها العادية وعن صورتها المعقولة أحياناً .

هذه عيب تبدو لنا اليوم جسيمة بالغة . لكنها لم تضعف من قيمة رواية روسو ولم تقف في سبيل نجاحها ، نجاحاً فاق كل ما كان يطمع فيه غيره من الكتاب . ولا عجب فهي تخاطب الإحساس والقلب بلا واسطة تصل إلى حيلة الفؤاد وتبرز خفايا الجوانح بما تعبر عنه من مختلف الوجدانيات وما تنشره من بدائع سور الطبيعة الناطقة ، وما تجريه من دموع ، وما تثريه من توجعات . وما زك ولن يزال من بعدنا يعجب بما فيها من صور ير بها روسو أدباء عصره

وكتاب القرن الثامن عشر في التمثيل والحس والخيال ووصف الطبيعة وإن لم نشارك نحن ولا من بعده من أهل ذلك العصر حين جنونا بها جنونا .

ولقد كان روسو في حل من أن يتدفق لذة هذا النجاح كاملة لو أن نفسه كانت مطمئنة ولو لم يزد بنجاحه اضطراباً بين ماضيه الحقيق وعظمته الحاضرة وتردده الذي كان سبب ضربه . ولو أنه من الإقدام ما كان فولتير أو عشر معشار ما كانه نابليون جلس بعد ذلك النجاح على عرش أعز قائمة من عروش الملوك ولا قدرت حكومة على أن تصدر قراراً كالذي صدر بالقبض عليه بعد نشر كتاب التربية وكان صاحب اليد والمز على جماعة اللكسمبور بالإقامة بين ظهرانيهم . لكن شيئاً من الضعة كان عالقاً بنفسه ممزجاً بوجوده طبيعياً فيه فلم تقو الظروف على التغلب عليه أو إخفائه . ف شعر كأن الناس طراً يحسدونه حتى أخذ على مدام دلكسمبور شيئاً من جفوته . لكنه بقى في تعلقه بها تعلق الصغير الكبير والتابع بالتبوع يتعزى عن جفاء السيدة برقة زوجها وبحس ضرورة بقاءه إلى جانبه يعزبه عن مصائبه في فقد أخيه وابنه الوحيد وابن ابنه حتى ظهر كتاب العقد الاجتماعي وكتاب التربية في السنة التالية (١٧٦٢) . وكان ظهور كتاب التربية بدء عودته للحياة المتشردة : النجاء إليها بسبب قرار برلمان باريس بالقبض عليه وفراجه إلى سويسرا على النحو الذي شرحناه في الفصل السابق .

والقارئ لا شك سيدهش بعد تحليلنا كتاب التربية للسبب الذي أدى إلى صدور قرار البرلمان ، وسيرى مبلغ التطور العظيم الذي تم في العصر الأخير من عصور الإنسانية والذي يرجع الفضل فيه للثورة الفرنسية التي اتخذت روسو مسيحها الهادي ونبيا المرسل . وإنه بعد ذلك ليزداد تقديراً لهذا المتشرد الوضع الطريد واحتراماً لنبوغ نادر المثال . فإنما نبوغ روسو مصدره القلب ومكانه موضع الإيمان في النفس .

الإنسان طيب بفطرته . وإنما أفسده الاجتماع الذي غشى على تلك الفطرة بما أوغل فيه من صور الحضارة وباشتغاده عن الحال الطبيعية وإمعانه في ذلك حتى بلغ غاية التدهور في القرن الثامن عشر . ولا سبيل لإصلاح هذا الفساد إلا بوقف تياره والعودة بالأخلاق والعوائد والعقائد والقوانين وكل ما في الاجتماع إلى أحضان الطبيعة والسير على نظامها وسنتها . يومئذ تزول من الاجتماع سمومه ويرجع الإنسان طيباً بالطبع كما كان .

ومن العبث محاولة هذه العودة من طريق الملوك والأشراف والكبراء . فلو أنك أقنعت هؤلاء جميعاً بضرورة تغيير النظام الفاسد الذي هم فيه لما وصلت من إقناعهم إلى طائل . فإن الحياة والعادة طبيعة ثانية . وهم قد جمدوا عند ذلك النوع من العيش بعد ما عانوه سنين طوالاً . وإنك لن تنفل رجلاً من الأبيقورية المتطرفة إلى الرواقية المتطرفة عن طريق إقناعه بأفضلية مذهب على مذهب . ما هي إذن وسيلة روسو إلى الإصلاح الذي ينشده ؟

وسيلته التربية . فهو يريد أن يدع جانباً ذلك المجتمع الفاسد الذي يحيط به ، والذي يخضع هو لحكمه خضوعاً يضطره مع الطعن عليه إلى تملقه ، ومع احتقاره إلى إكباره ، ومع الإيمان بفساده إلى الارتواء في أحضانه ، ليمد سلطانه على مملكة الأطفال البريئة الضعيفة العاجزة عن المقاومة المستعدة للتأثر وللانطباع في قالب الطبيعة الذي يهيئ هذا المصلح الأخلاقي لها .

ولإيضاح هذه الوسيلة وضع كتابه عن التربية .

فبعد ما فرغ من روايته في سنة ١٧٥٨ وبعد ما وصل من تطهير أبطاله فيها أن جعلهم يعيشون وفق قانون الطبيعة ويربون أولادهم مستلهمين وحياً عمداً إلى وضع كتاب (أميل أو التربية) وانقطع له وعنى به حتى أتمه وطبعه بمعونة المسيو (مالرب) ثم أخرجه للناس فيما يزيد على الألف من الصفحات . لم يحدث ظهور أميل ما أحدثته الملويز في الجمهور من ضجة . لكن ذلك

لن يكن راجعاً إلى قيمة الكتاب ونقد القراء له . وإنما كان سببه ما نهامس الناس به من أن للكتاب ومؤلفه في البرلمان شأنًا وأن البلاط عنه غير راض .

و (التربية) لا شك خير كتب روسو بإجماع الكتاب قدماء ومحدثين ، وهو من خير ما كتب في موضوعه . وليس يعيبه ما فيه من نظريات خيالية وأخرى فاسدة . فهو في مجموعه الثمرة الناضجة التي أنتجها عقل جنان جاك ، وهو أدق كتبه ملاحظة للواقع وأقربها لمنطق الفلاسفة الوضعيين وأماها غاية وأبعدها أثرًا . و (التربية) ليس الأول مما كتبه روسو في هذا الموضوع ولا آخره . فقد عرض له في كثير من خطابه الخاصة وشرحه بإيجاز في مقال نشرته الانسيكلوبيديا بعنوان الاقتصاد السياسي وعالجه في رواية الهلويز ثم عاد إليه بعد نشر أميل في خطابه عن حكومة بولونيا . ولا عجب فقد دفعت الأقدار روسو فكان أخلاقياً . والتربية هي الأساس الذي يجب أن تشاد عليه قواعد الخلق وكانت موضع بحث كثير من المؤلفين في ذلك العصر .

لكن روسو لم يكن أخلاقياً بطبيعته ولا بنوع تعليمه . بل كان أخلاقياً بالمصادفة . وقد كانت نشأته الأولى مثلاً أعلى لسوء التربية ، أو بالحرى لعدم التربية . وإن ما تقضت فيه سنيه الأولى من ألوان الفاقة والتشرد والبؤس وضعة النفس وخدمة الغير وما لوث ذلك به نفسه من خباثات الكذب والسرقة وعدم الوفاء وسائر النقائص ليبعده عن كل صلاح لوظيفة الأخلاق المهذب الداعي إلى الفضيلة وإلى الرفعة الخلقية . كذلك لم تكن معالجه الموسيقى إلى سن الأربعين من مهيئات المصلح الأخلاقي . وإنما هي المصادفة التي أدت إلى نجاح خطاب العلوم والفنون ونواله جائزة أكاديمية ديجون ومعارضة الكثيرين له وإجابة روسو بإهام ونحمسه لفكرة الرجعة إلى الطبيعة - هذا كله هو ما جعل منه الرجل الأخلاقي نصير الفضيلة وبطلها .

وهو مؤدب بالمصادفة أيضاً . ولعل القارئ يذكر فشله في تربية أولاد المسيو دمايلي بليون بعد مقامه سنة معهم ويذكر كيف انتهى بأن سرق نبيذاً من كهف المنزل ثم استقال فأقيل .

لكنه مع كل ذلك نابغة . فلم نكد فكرة الحال الطبيعية تملكه حتى تمددت في خياله وأخذت عليه حسه وملاّت كل وجوده فقلها على كل وجوها واستثمرها

في شتى مواضع نظره وتفكيره . وما كان خطيباً في كتابته قريباً في أسلوبه وكان قد طعن على النظام المحيط به وعلى الكبراء الذين كانوا فوق المطاعن وعلى السيدات موضع تمليق الملوك والأشراف والأدباء فقد حلق الكبراء به تعجباً واحتقاراً وتطلع الناس إليه إعجاباً وإكباراً . أما السيدات فمال بهن ضعفهن إلى العطف عليه والتزلف إليه . فمال هو إلى ناحيتهن . يدفعه ولعه الجنوني بهن . ولم يمنعه طعنه عليهن ، عن البقاء في كنفهن . والخضوع لكل أوامرهن ، وتوثيق عرى روابطه بهن ، فجلس منهن مجلس القس المدنى يستمع لاعترافتهم ، ويهدين أقوم سبل الحياة ويسدى ثمين الصبح إليهن ، والحق أنه ترك مجموعة نفيسة من الخطابات التي بعث بها لمستنصحاته تحوى خير الآراء في شتى المسائل وفي التربية .

وبدلنا ما ورد في (الاعترافات) على أن كتاب التربية لم يوضع قصداً ولا على نظام معين . وإنما ألفت مجموعة هذه الملاحظات والتفكيرات الخالية من الترتيب والتتابع إجابة لرغبة أم صالحة قادرة على التفكير . وقد شرعت أول الأمر في وضع مذكرة من يضع صحائف ثم استهوانى الموضوع بالرغم منى فأصبحت المذكرة أشبه بكتاب هو لا شك ضخم بالنظر إلى ما يحتويه ولكنه صغير جداً بالنسبة للموضوع الذى أعالجه . . . وسيكون ما أذكره عن أهمية التربية الصالحة قليلاً . كذلك فلن أقف لإثبات فساد التربية الحاضرة فقد أثبت ألف غيرى ذلك من قبل وليس من شأنى أن أحشو كتاباً بما يعرفه الناس جميعاً . وإنما أرى أن صيحة ارتفعت من زمان بعيد ضد طرائق التربية الحاضرة ولم يعن أحد باقتراح ما هو أحسن منها . .

إذن فقد وضع الكتاب بادئ الرأي إجابة لرغبة سيدة من سيدات روسو . وضع ليكون مذكرة ثم امتدت صفحاته إلى الألف عن غير شعور من مؤلفه . . وضع كما وضعت الهلويز سداداً لغرام روسو بالنساء ثم امتدت صفحاتها إلى الألف دفاعاً عن روسو وتحبيداً له وتمجيذاً لحياته .

وكما كان سان پرى صورة لروسو ، فيكون أميل ومؤدب أميل صورة لروسو أيضاً . وكما كانت نقائص سان پرى وسيلة سما بها إلى ذروة الفضيلة التي سما روسو إليها ، فيكون أميل صورة لروسو في صغره وستكون تربية أميل مشابهة

لتربية روسو وسببها أميل رجلاً فاضلاً مثلما صار روسو رجلاً فاضلاً . وليس في ذلك كله من عجب . فقد كان روسو يتوهم نفسه مثلاً أعلى لصورة الكمال الأكمل استلهم روسو كتاب التربية بكلمته المشهورة « يخرج كل شيء حسناً من بين يدي مبدع الكائنات ثم يعثره الفساد والنقص بين يدي الإنسان . فهو يكره أرضاً على أن تغزو نبات أرض أخرى وشجرة أن تحمل ثمر شجرة أخرى . وهو يخلط الطقوس والفصول ويخصي كلبه وحصانه وعبدته ويقلب كل شيء ويفسد كل موجود ، وهو يحب الشهوة ويهوى الشناعة ولا يرتضي شيئاً على ما صورته الطبيعة ، حتى ولا الإنسان . بل هو يريد مهذباً كما يحب كأنه حصان الملعب . ومشدباً كما يريد كأنه شجرة في حديقة » .

عارض روسو في هذه الجملة ما بين سنة الطبيعة وسير الاجتماع وتدد فيها بالحضارة وما تجر إليه من تشويه وإفساد وإتلاف . وهذا التشويه والإتلاف هو أساس المدنية وأساس نفس الإنسانية . ولو أن الإنسان لم يستمر مع كاذب غروره يريد إصلاح ما جعلته يد القدر صالحاً بطبعه لظل الناس في سكينتهم ولا نزلت بهم مصائب الهم والفاقة والتعس فليرجع الناس سيرتهم الأولى حتى يرجع إليهم نعيم الطبيعة .

والترية هي وسيلة الرجعة « فنحن نولد ضعافاً فتحوجنا القوة ، ومحرومين من كل شيء فتحوجنا المعونة ، وبلهاء فتحوجنا الحكم والتقدير . وكل ما ليس لنا يوم نولد ونحتاج إليه حين نكبر إنما نحصله بالتربية . والترية تحصل لنا من الطبيعة ومن الناس ومن الأشياء . فالنمو الداخلي لقوانا وأعضائنا يتأتى من تربية الطبيعة . ومعرفة الوسيلة للاستفادة من هذا النمو تتأتى من تربية الناس . ومحصول تجاربنا الذاتية عن الأشياء التي تحيط بنا إنما نحصله من تربية الأشياء » . فإذا نحن وجهنا هذه الوسائل في سبيل الطبيعة حصل لنا الرجل الطبيعي على أتم معانيه .

لذلك يجب أن تكون غاية التربية عن أي طريق وصلتنا أن تنمى في الإنسان من الملكات ما يستطيع معه مكافحة الحياة بقوة وصلابة وشدة وأن تقوى ذاته إلى أقصى الحدود . وتلك غاية تتناقض مع ما ترمي إليه التربية الحاضرة تمام التناقض . فإنما توجه هذه التربية الحاضرة كل عنايتها لتصل الفرد في سلك

الجماعة وتشذب من ذاتيته مخافة أن يتنافر إبداع نظام الاجتماع . وتلك تربية نعمة تسلب المرء أكبر نعم الحياة . فهي تسلبه قوة الجسم إذ نجسه بين الجدران مع القواعد والسيدات . وتسلبه ملكة التقدير إذ تجعله لا يرى بعينه ولا يسمع بأذنه وإنما يرى بعين المحيطين به ويسمع بأذنهم . وتسلبه دقة النظر في الأمور إذ تأخذ الجماعة عليه وقته ولا تدع له منه إلا بمقدار يسمع له بتكوين رأى سطحي عن لآنيته يكتفي ليسر به الجماعات ويكون به رقيقاً محتوياً لظرفه ولكياسه ونفاقه . هذا الفرد المصقول يفنى في الجمعية ويعيش لها على خلاف رجل الطبيعة الذي يعيش لنفسه . ومتى عاش الإنسان للجمعية وخضع لنظاماتها انعدمت ذاتيته وحلت شخصية نسبية مكانها . وهذه الشخصية النسبية تذهب بالفرد إلى الاعتقاد بعدم وجوده كفرد وبتمام ارتباطه بالجمعية التي هو جزء منها .

ذلك تعس لا تعس بعده . أتريد دليلاً لروسو على ذلك ، لقد بلغ من أثر هذه التربية في النفوس أن أصبحت الوطنية كبرى الفضائل الإنسانية وصارت الذاتية القوة كريمة عند الناس فأطلقوا عليها أسماء الأثرة وحب الذات واعتبروها من شر النقائص . ثم صرت تراهم يتغنون بأحاديث الذين هانت عليهم نفوسهم في سبيل الجماعة أي كان نوع هذا الهوان فيتغنون بحديث القدموني بداريت تقدم إلى عضوية مجلس الثلاثمائة ففشل فعاد فرحاً بفشله مطمئناً أن كان في وطنه إسبرطة ثلثمائة رجل خير منه . وبحديث إسبرطية خرجت تنتظر أخبار معركة لها خمسة أبناء بين المحاربين فيها . ولا عاد بعض الجند سألته وهي ترتعد ، فأخبرها أن أبناءها الخمسة قتلوا . فصاحت به : ما عن هذا سألتك أبها العبد الزنيم ! فلما علمت بأن النصر تم لقومها طارت إلى المعبد تشكر الآلهة .

هذا النوع من التربية هو عند روسو إغراق في تقديس الجماعة على حساب الفرد بما يخالف سنة الطبيعة ، وإنما تقضى الطبيعة بتربية الإنسان ليكون رجلاً لا ليكون رومانياً ولا فرنسياً ولا مصرياً كما تقضى بأن لا يعلم صناعة خاصة . بذلك تراه إذا صار رجلاً صار صالحاً لكل مركز يضعه الحظ فيه . « وأحسنا يومئذ لخير الحياة وشرها احتمالاً هو عندى أحسنا تربية وخيرنا مكاناً » .

فإما أن يكون غرض التربية الأسمى تكوين الإنسان لحسن احتمال الحياة فذلك ما يقره أهل هذا الجيل الحاضر . . . ولقد انتشرت الفكرة بعد ما كتبها

روسو وصرت تعرفوها في كل كتب التربية كأنها بعض بديهيات الموضوع . وهي لم تكن غريبة في عصر روسو لكنها كانت ظريفة يتناقلها الخاصة . حكى مدام ديبانى في مذكراتها أنها زارت المسيو لينان (Linant) مهذب ابنها ومعه المسيو دكلو (Duclos) . وقد ناقش دكلو المعلم في أمر تربية الطفل وقال له : علمه قليلاً من اللاتينية ولا تعلمه اليونانية أبداً فليس فيها له أى فائدة . ونحن لا نريد به أن يكون إنجليزياً أو رومانياً أو مصرياً أو يونانياً أو إسبانياً وإنما نريد به أن يكون رجلاً صالحاً لكل شيء .

وأما رغبة روسو عن أن تغرس التربية في نفس الطفل حب وطنه فلا تعدو فكرة الاشتراكيين . وهي فكرة لم تتحقق بعد . وقد لا تتحقق أبداً ولو تمت على الأرض كلمة الاشتراكية إلا أن تصل التربية من توسيع أفق نظر الناس جميعاً حتى يصبح العالم كله وطناً لهم .

ولم يك روسو مؤمناً بهذه الفكرة . فإن ما كتبه في التربية قبل (أميل) وبعده ينقضها وينفيها . ولعل ما رأينا من مظاهر هيام سان پرى بسويسرا في رواية الهلويث ما يدلنا على مبلغ عشق روسو لوطنه . كذلك جاء في مقال الانسيكلوبيديا عن الاقتصاد السياسي ما يأتي : « إذا رعى الأطفال جميعاً في أحضان المساواة وأشربوا احترام قوانين الحكومة والقواعد العامة . وأحيطوا بأمثال وأشياء لا تنفك تناجيهم باسم الأم الحنون التي تغذوهم ، ولا تفتأ تحدثهم عما تحمله لهم في حناياها من الحب وما ينالونه منها من خير لا يقدر ، وما يجب عليهم لها في مقابل ذلك كله ، إذن لرأيتهم وقد أدركوا كيف يحبون بعضهم بعضاً محبة الأخ لأخيه . وكيف يقفون بإرادتهم عندما تريده الجماعة » . وهو أكثر قوة عند كلامه عن هذا الشأن من شئون التربية في خطابه عن حكومة بولونيا . فقد قال فيه : « يجب أن تطبع التربية النفوس في قالب الصورة الوطنية وأن توجه الأفكار والأذواق وجهة تجعلها وطنية بالليل وبالنشوة وبالضرورة . ولذلك يجب أن يفتح الطفل عينه أول ما يفتحها على وطنه ، ثم لا يرى شيئاً غيره إلى أن يموت . وكل جمهوري صادق يرضع محبة وطنه مع لبن أمه ويبلغ لذلك بمحبة الشرع والحرية . وهذا الحب هو قوام حياته . فإذا انفرد أصبح صفراً . وإذا لم يبق له وطن لم يبق له وجود فإن لم يمت بعد ذلك فهو شر من الميت » .

إذن فرأى روسو هو ضرورة توجيه التربية وجهة وطنية صادقة . وأن لا حد للعلو في هذا السبيل . ذلك رأيه قبل كتاب التربية ورأيه بعده . لذلك نرانا في حقل من القول بأن الرأي الذي أوردته في كتاب التربية . يمكن إلا رأياً عارضاً ربما كان سببه سوء استقبال كتابه عن المناظر في مدينة جنيف . ونحن نعتقد ذلك لأن روسو كان وطنياً صميماً . وهو لم يولع في حياته بشيء وبعه بكل ما في سويسرا . فكانت مناظرها وحكومتها وبساطة أهلها ونوع عيشهم أمثالا عليا في نظره لما يجب أن يكون . ألا نراه بعد ارتداده عن البروتستانتية إلى الكاثوليكية وبعد عيشه السنين الطوال مع مدام ديفارانس وبعد إقامته في باريس لم يلبث أن فكر في استرداد حق مدنيته في جنيف حتى رجع إلى دين قومه وبقى عليه بقية حياته ودافع عنه خير دفاع ؟ فكيف به يتزعج إلى الطعن على الوطنية إلا أن يكون ذلك نزعة عارضة سرعان ما زالت بزوال سببها العارض هو الآخر . لذلك كان عجيباً أن يطعن في كتاب التربية على التربية الوطنية ، وأعجب منه أن يدافع عن رأيه العارض بكل قوته . وما نود له أن يكون سوء استقبال كتابه عن المناظر في جنيف هو سبب ثورته . وإنما نعتذر عنه بأنه أراد أن يبين التربية على قواعد الطبيعة والطبيعة لا وطن لها . والقارئ في حل من تقدير قيمة هذا العذر . فأما نحن فنريد قبل الانتقال من هذه النقطة للخوض فيما رسمه روسو طريقاً للتربية أن ندلي برأينا وأن نشير إلى خطأ هذا الرأي العارض وأن نقول بوجوب إرضاع الطفل حب وطنه مع لبن أمه . فإنما التربية طبع صورة حياة المجموع في نفس الفرد على خير ما يضمن سعادة المجموع والفرد معاً . ومن باطل الغرور توهم قيامها بما سوى ذلك . وعليه فما دام في العالم أمم مختلفة متنافسة فيجب على أهل كل أمة أن يدافعوا عن حدودها وأن يضحوا في هذا الدفاع بكل ما عندهم . ولا يتأني ذلك إلا إذا هم أحبوا بلادهم أكثر من حبهم أنفسهم . . . وتلك هي الوطنية . قد يقول بعضهم إن هذا الخلاف وثبت المنافسة ضروري يجب محوها من العالم . ولكن على رسلكم أيها القائلون . إنكم ترجعون إلى النظريات القديمة التي ترى للمطلق وجوداً في الواقع وتقرر قواعد الخير والشر والحق والباطل وتقصدون مما تقولون إلى طبع النفس الطفلة الخالية من كل معنى بطابع هذه المعاني . ولكن هذه النظريات وتلك المعاني المطلقة دخلت اليوم في حكم الخيال الشعري يرتكن عليه

الإنسانية في طموحها إلى الأمام ولا يركن إليه علم يستمد وجوده من الواقع .
 يجب أن تكون التربية علماً واقعياً بعيداً عن صور الخيال والوهم . وأفكار الإخاء
 وأم والدولية الهادمة للحدود والعالم كوطن لكل بني الإنسان لا تزال في حيز الأمل
 . أن نحققها . لكننا لا نستطيع أن نمنع عن الناشئ العلم بما هو حاصل وبوجود
 الأمم وتنافسها .

إنا نكتب ما نكتب الآن والألم يحز في نفوسنا وكلنا الأسف أن خلقنا في
 مصر نفس كله الأثرة والظلم . ولكننا يجب أن نواجه الواقع إذا أردنا التأثير فيه .
 يجب أن نعلم أن التربية التي ننشئ أبناءنا عليها ليست هي كل شيء في تكوين
 حياتهم . إنما هي حلقة من حلقات لا عدد لها متصلة كلها متشابكة بعضها ببعض ،
 مجموعها هو مجموع عوامل حياة الاجتماع الإنساني . ويجب أن تكون هذه الحلقة
 متسقة الجوانب مع غيرها من الحلقات حتى تثمر وإلا كانت وهماً في الوجود لا
 أثر له .

أتريد على ذلك دليلاً . ها هم أولاء الاشتراكيين أنفقوا جهوداً طائلة في
 سبيل هدم الحدود بين عمال العالم ليكونوا جميعاً أمة واحدة ، فما لبثت الحرب
 أن استعرت في سنة ١٩١٤ حتى نزلوا عن فكرتهم وحتى كرسوا جهودهم للدفاع
 عن أوطانهم . ذلك بأن فكرتهم لم تكن متسقة مع صورة الوجود وإن كانت
 فكرة ملايين عدة من رجال العالم . فكيف يمكن إذن أن تضعها قاعدة للتربية
 ولا تخشى إفلاسها .

ليست التربية هي الأساس الأول لتطور العالم وسيره نحو الكمال ، إنما
 ذلك الأساس الأول هو مجهود العقول الناضجة الذي يوجه الجماعة الإنسانية في
 سبيل من التطور البطيء يدفعها إلى غاية من الكمال توافيق ليس في مقدور علم
 الإنسان وهو على ما لا يزال عليه من ضعف وعجز أن يتكهن بها . وهذا التطور
 البطيء لا ينتقل بالإنسانية خطوة إلى ما بعدها إلا أن تكون مرتبطة بها ارتباط الحاضر
 بالماضي وارتباط المستقبل بهما جميعاً . ولا تزال نرى بعيداً ذلك اليوم الذي تندك
 فيه حدود الأمم وتمترج فيه الأجناس واللغات وتندك العقائد والمصالح . ومادام
 ذلك باقياً ويمكن أن يثير نزاعاً وحرباً فسيبقى التعصب كميناً في النفس الإنسانية .
 والوطنية ليست إلا عقيدة وإيماناً تحتمل التعصب له .

لذلك كله رجع روسو عن رأيه الذي دافع عنه في كتابه التربية وعاد إلى
 وجوب إرضاع الطفل حب وطنه مع لبن أمه . ولا يقصد روسو ولا نقصد نحن
 من ذلك إلى أن تقصر التربية ههما على تكوين العقيدة الوطنية في نفس الناشئ .
 بل يجب أن تقيم في نفسه إلى جانب الاستعداد التام للحياة التي يعيشها معنى
 سامياً مما يجب أن يسود بين الناس من الإيمان بالإنسانية وبحقوق الإخاء بين بني آدم
 وبضرورة التسامح والتعاون والتضامن بين الأمم كما يجب أن تسمى في نفس الطفل
 صفات الرجولة والشهامة والاعتماد على النفس وعدم الاعتداء بمعونة الغير ولا
 الاستكانة لحماية الجمعية . فليس العيش كما قال روسو أن نتنفس ونحرق رقود
 ولكن العيش أن نعمل وأن نستعمل كل أعضائنا وقوانا وحواسنا وكل ما يجعلنا نشعر
 بأننا نعيش . وليس أطول الناس عمراً أكثرهم في السنين عدداً بل أطولهم عمراً
 أشدهم للحياة إدراكاً وأكثرهم بالحياة شعوراً وإحساساً . . . لكن تضامن بني
 الوطن الواحد مقدم على تضامن الأمم المختلفة كما أن التضامن بين أفراد البيت
 الواحد مقدم على التضامن بين مجموع أهل المدينة . فإذا احتكت أمتان وجب أن
 يتصرف بنو كل أمة لها مهمها كلفهم هذا الانتصار من تضحية .
 ذلك رأينا يشترك فيه قلبنا وعقلنا وهو عندنا وحى الطبيعة وإلهام الحياة .

الآن نتقل لنرى ما رسمه روسو طريقاً للتربية .
 كنا نتوقع أن تتجه عناية روسو رسول المساواة ونصير الضعفاء والفقراء إلى
 تربية سواد الشعب الذي كان مهملاً في ذلك العصر في فرنسا إهماله اليوم في مصر .
 وكنا نتوقع منه أن يبين الوسيلة لتعميم التربية بما يسمح لجميع الأطفال بحفظ منها
 يؤهلهم لمكافحة الحياة وللعيش مع الجماعة عيشاً مدنياً كريماً . وكنا نود لو نرى
 المدينة الفاضلة مشيدة عنده على أساس من تربية المجموع تربية طيبة . لكننا مع
 كثير من الأسف نرى كتاب روسو عن التربية خلواً من هذا كله . بل نراه يقرر
 أن الفقراء والضعفاء في غير حاجة إلى التربية لأن مركزهم في الحياة يكرههم على
 احتمال العيش الذي هم فيه .
 ولعل ما ذكره روسو في اعترافاته من أنه كتب (أميل) إجابة لطلب أم
 فاضلة قديرة على التفكير هو سبب هذا التناقض المعيب بين مركزه كمصلح ديمقراطي

ما ذكره في كتابه . فإن هذه الأم الفاضلة هي لا شك إحدى هاتيت النيبيلات
نيبيلات ممن كان يعيش في كنفهن ويخطب ودهن ويرجو رضاهن . كما أن
أحد نفسه به من الطعن على الكبراء والأشراف مع التقرب منهم والتزلف إليهم
له كذلك أثر في اختياره غير قليل . ولو أنه كتب رسالة عرض فيها لتربية
الشعب لما عنت جميلة من النبلاء ولا عنى عظيم من الأشراف بقراءته . وللنيبيلات
الأشراف وحدهم كتب روسو من يوم علا نجمه . ومنهم وحدهم كان يتقرب ويهن
من كان بولع .

وليت كتب كتابه لطبقة الأشراف جملة . كلا بل كان هذا المشرذ ابن الشعب
أرستقراطياً أكثر من الأرستقراطيين . فرأى أن التربية الصحيحة لا تنأى إلا بتزع
الطفل من أهله وربطه مع مربيه برباط ضيق فلا يفترقان حتى يبلغ الطفل (أميل)
أدبه وحتى يصبح رجلاً وحتى يتزوج ويولد له ولد .

وقد اختار روسو الطفل الذي أراد أن يعالج تربيته نبيلاً غنياً ولد في طقس
معتدل ونشأ قوياً صحيحاً . وهو لم يقم فعلاً بتربية أحد أبناء النبلاء في ذلك العصر
لأن المربي في نظره يجب أن يكون شاباً أعزب يعرف واجبات الرجولة ويستطيع أن
ياهمها الطفل من غير أن يعلمه إياها .

وكتاب التربية يتناقض في هذا الاختيار للمربي وهذا الارتباط بينهما
مع مقال الاقتصاد السياسي ورسالة حكومة بولونيا . فقد كان روسو فيهما يرى
حسب تربية الأطفال جميعاً معاً من غير تمييز بين أبناء الأشراف وأبناء سواد
الشعب . وكان يرى ألا يبقى المعلمون مع تلاميذهم زمناً طويلاً . وكان يرى أن
على الحكومة أمور التربية والتعليم . لكنه في هذين المکتوبين كان يعرض للتربية
مرضاً لا قصداً ومن غير تفكير فيما تحدثه آراءه فيها عند الطبقات الممتازة من أثر .
الآن كان أقرب إلى الحق وأبعد عن التكلف .

على أنه كان متفق الرأي في كتبه جميعاً على ضرورة فصل الناشئة عن الجماعة بل
العوائل . وهو في هذا متطابق مع نفسه إذ كان يرى الجماعة قد وصلت إلى الدرك
الأسفل من الفساد والانحطاط . وللمثل في التربية أثر كبير بل له كل الأثر .
إذا ترك الأطفال وسط الجماعة أخذوا بعاداتها وأخلاقها وعقائدها وصاروا مثلها ومنها
وانحططوا انحطاطها ونزلوا إلى الدرك الذي نزلت إليه .

لروسو حق فيما يقول بعد الذي نعاه على جمعية عصره من فساد وتدهور .
لكن رأيه مع ذلك لم يسلم من أكثر من اعتراض وجيه . فأنت مهما فصلت الناشئة
عن الجماعة وعن الأسرة فإنك لن تمحو فيها أثر الوراثة ولا أثر الاجتماع . وإذا
صحت ملاحظة دارون من أن الجنين الإنساني يمر في أثناء تكوينه بالتطورات
الجنينية للخلائق التي تسلسل منها الإنسان فإن الطفل يمر من أول نشأته إلى حين
تمام تكوينه بالأدوار التي مرت بها الجماعة الإنسانية خلال قرون الماضي الطويلة
ليصل حتماً آخر الأمر إلى مشابهة الجماعة التي هو منها ولو اقتصرت المشابهة على
فضائل هذه الجماعة . أما الظن بتكوين مخلوق جديد ليس بيه وبين جماعته
اتصال فوهم لا يمكن تحقيقه .

وكيف يتحقق والمربي ليس إلا فرداً من الجماعة . ولم يفكر روسو في أن يفرد
فتاه في مثل وحدة . حتى بن يقظان ، بل ترك للمربي أن يسير وتلميذه بين مناظر
الاجتماع وأهله ، وأشرك هؤلاء الأهل - على ما سنرى - في أطوار التربية المختلفة ،
وصحح لتلميذه بقراءة بعض الكتب . فهذا كله كاف وفوق الكفاية لطبيع صورة
المجموع في نفس الطفل وفي ذهن الناشئ وفي عقل الفتى ، وكاف ليعده عن
مثال رجل الطبيعة الذي يريده روسو . وكل ما فيه أنه يضمن إلى حد ما تكوين
رجل لم تدنسه النقائص لأنه لم يلامسها ، ولكنه لا يضمن حماية هذا الرجل بعد
أن يترك حراً ليختلط بالجماعة من الارتكاس في هذه النقائص . وربما كنا أميل
للأخذ في هذا الباب برأى قاسم أمين إذ يرى أن رياضة النفس على مقاومة النقائص
تقوى الإرادة وتحمي من الزلة أكثر مما يحمي تجنبها والحذر منها . فقد تقترب
النقائص منا من غير علمنا فلا تقوى على محاربتها لعدم تعودنا هذه المحاربة .
قال : « في ميدان الحرب لا يكون ثبات الجأش إلا عند الرجل الذي حضر وقائع
سابقة ووقف أمام العدو وقاتل يوماً مهاجماً ويوماً مدافعاً . كذلك الحال في جهاد
النفس ، لا تجد ثبات الجنان إلا عند الرجل الذي عرض نفسه لاستهواء الشهوات
وخدايع اللذات ، فإذا اختبرها بالتجربة وتغلب عليها بعد ذلك كسب قوة الحكم
على نفسه ، وتلك هي الفضيلة الحقيقية . خلافاً للرجل الذي احتجب عن جواذب
الشهوات ، فإنه متى وجد أمام فرص مرغبة فيها لا يقاوم سلطانها إلا قليلاً ، وإذا سلم
في نفسه مرة لا يستطيع الخلاص منها » .

ونزع الطفل من عائلته فيه ، فضلاً عن ذلك ، عيب حرمان الطفل من أرق معاني الحياة التي لا توجد إلا في عواطف الأبوة والأمومة والبنوة . هذه العواطف القوية السامية الدائمة النضرة والشباب حتى في أقصى القلوب وأجفها . والأثر المباشر الذي يترتب على حرمان الطفل من هذه المعاني هو شعوره بالخفوة واعتياده شيئاً من غلظة الكبد مع التستر بظاهر من رقة الشعور وقوة الإحساس ابتغاء نوال عطف من الناس يعوض عليه العطف الطبيعي الذي فقده . وروسو نفسه مثل حي للطفل اليتيم الأبوين . فما من أحد شعر بعطف الأمومة وحنان الأبوة ليرضى طرح أبنائه في ملجأ اللقطاء . وما من أحد شعر بهما ثم يرضى هذا العيش المزدوج عيش النفاق الدائم الذي عاشه روسو طول حياته . ولكن روسو لم يكن ليشر بهذا ولم يكن يتصوره ، وقد أبدع له القدر أن يشعر بأنه خير الناس وأطيهم ليخفف بذلك عنده من ألم الشعور بصغره وحقارته . وبسر نبوغه هذا الشعور عنده . فلم يقدر مع ذلك مبلغ ما يحرم منه تلميذه بنزعه من أهله .

حيث أفلاطون وتلاميذه الشيوعية وانتشرت تعاليمهم في جو الإغريق . ومن نتائج الشيوعية إلغاء الزواج والعائلة ، فرد أرسطو بكلمة نوردها هنا رداً على فكرة الأفراد التي نزع إليها روسو قال : « إذا وضعت عدة نقط من الشهد في إناء واسع ممتلئ ماء ضاع طعمها الشهي . وكذلك فإذا ألغيت العائلة ضاع ذلك المعنى الرقيق الذي يجعل لأسماء الأب والأخ إعزازاً خاصاً ، إذ يصبح ولا محل له ، وحل عدم الاهتمام المطلق محل المحبة العائلية . وهؤلاء الشيوعيون يكثر من الماء المضاف إلى شهدهم فيضيعون منه كل طعم ومعنى » وهذا الأفراد الذي يريده روسو ينتج مثل تلك النتيجة . وكثيراً ما رأينا شباناً تشردهم الأقدار عن أهلهم وعشيرتهم فإذا شبوا بعد ذلك وكبروا رأيت العلاقة بينهم وبين أهلهم علاقة ضعيفة يستقيها الواجب الاجتماعي من غير أن يكون فيها للعاطفة أو القلب أو الشعور أى أثر .

وجه إلى فكرة نزع الطفل من أهله اعتراض ثالث ليس أقل وجاهة من سابقه . ذلك أن تربية الإنسان تستمر طول حياته . وللأطفال عامة وللأبناء خاصة أثر كبير في حياة الكبار والأهل . فهم يبعثون إلى قطوب المشيب - ابتسامة الصغر ويحيون في القلب الذي جف وقسا عواطف رقيقة تجعل الحياة أكثر لذة وعدوبة .

ثم هم مركز دائرة عواطف الأسرة التي هم فيها . فهم يجمعون بين قلوب أهل هذه الأسرة بالطف جامعة تقرها الطبيعة وتدعو إليها . ويكفيك أن ترى بضغ أطفال معاً يتصاحكون ومن حولهم أمهاتهم وآباؤهم وأقرباؤهم ينظرون إليهم بعين كلها أحنان والمحبة والعطف ويتبادلون فيها بينهم . مثل هذه النظرات وينسجون خلال ذلك مصالح الحياة التي كانوا يقتتلون من ساعة مضت بسببها . وهم في أثناء وجودهم مع الأطفال يترفعون دائماً عن مقارفة النقائص كبراً عن أن يراهم الصغار في صغائرهم وحرصاً على تقديم المثل الطيب للناشئة التي يريدونها مثال الكمال . فهذه العواطف الطيبة وهذه التربية المتبادلة بين الجيل المتدرك إلى الماضي والجيل المتدرج إلى المستقبل لا تكون إذا أخذ بنظرية روسو وأفرد الطفل بتيماً من أهله وأسلم إلى شاب مهما كان من راحة عقله فهو لا يشعر في حنايا قلبه بعشر معشار ما يشعر به أهل الطفل نحوه . على أن المعلم أو المربي لن يتزع الطفل من أهله قبل انقضاء زمن الطفولة حينما تكفل المرأة وليدها وتحضنه ، وقد كان المتبع بين أهل الطائفة التي كتب روسو كتابه لها ألا تعنى الأمهات بالأبناء بل يسلمتهم للمراضع وللخدم لتبقى السيدة في قصفها وترفها ورفاهها . فحمل روسو على هذه العادة حملة شديدة ألجأت السيدات لإرضاع أطفالهن . وقد غلغل في ذلك حتى كن يرضعنهم في مقاصير مسارح التمثيل ما بين فصل من الرواية وفصل آخر .

ولعل أبدع فصول كتاب التربية هو الفصل الأول الذي يختص بملاحظة الطفولة . فقد عنى روسو فيه بتقد المتبع وبتقرير ما يلزم عناية دقيقة . وظاهر سلفاً أن ما يلزم هو أن يترك الطفل حراً كما أبدعه الخالق حراً . ولكن حكمتنا المدنية قضت مع كثير من الأسف أن « يولد الإنسان عبداً وأن يموت عبداً . فهو يوم يولد يخاط في القمطاط ويوم يموت تقفل عليه أخشاب النعش وهو بين هذين اليومين مقيد بأنظمتنا وإن ظهر بالمظهر الإنساني » .

وليس من شأن القمطاط وما إليه من الأربطة إلا أن يعيق جري الدم وأن يضعف الطفل ويمنعه من النمو ويغير كيانه . وهذا كله يؤثر تأثيراً مباشراً على طبائع الطفل وأخلاقه . ولو أنه ترك وشأنه وترك له من حرية الجسم ما يشجعه على الحركة لنما نمواً طبيعياً صحيحاً معقولاً ولنمت غرائزه الطيبة مع نمو جسمه ثم لما احتاج إلى طيب مدى حياته .

وروسو لا يحب الطب ويزعم أنه مظهر من مظاهر المدنية كالعلوم والفنون وكالفلسفة وأنه لذلك قد أسفد على الناس تصورهم للحياة شر إفساد : « ولو أنك أردت الناس ذوى الشهامة فابحث عنهم فى الأماكن التى لا يقشاه الأطباء وحيث يجهل الناس آثار الأمراض فلا يفكرون فى الموت . فقد جبل الإنسان على احتمال الألم صابراً وعلى الموت مطمئناً لكنهم الأطباء بأوامرهم والفلاسفة بقواعدهم والقسيسون بدعوتهم هم الذين يستدلون قلبه ويفسدون عليه مبادئه .

« فليكن تلميذى إذن فى غنى عن كل هؤلاء الناس وإلا رفضته . فما أريد أن يفسد على أحد عملي وإنما أريد أن أرى تلميذى وحيداً أو لا يكون لى أى شأن فى أمره . وقد نصح الحكيم Locke لوك بعد ما أمضى شطراً من عمره لى دراسة الطب ألا يعطى الطفل دواء على سبيل الحيلة ولا لما قد يطرأ على صحته من انحراف خفيف .

وما كان أغنى الأطفال عن كل دواء لو أن أمهاتهم عنين بهم العناية الواجبة ولم يتركهم للخدم والمراضع يفسد الأولون ملكاتهم الخلقية كما تفسد الأخيرات صحتهم واستعدادهم الطبيعي . وليت هاتيك الأمهات حين فراقهن من أقدس وأحب عليهن ألقين تبعته على من يكون فى حلولهن محلهن الخطر الأقل فاخترن المراضع وعنين من غذائهن ورياضتهن وحالهن بما تحب العناية به . بل هن يتركن كل ذلك للمصادفات ويتركن الطفل للظئر تفعل به ما تشاء . وأنى لامرأة تغزو غير وليدها أن تسيل فى روحه البريئة عواطف الأمومة الرقيقة مع لبنها المشتري . أم أتى لامرأة أن تجد مع غير وليدها صبر الأم وحنانها . فإذا لاحظت كذلك أن هاتيك المراضع الأجيرات هن من طبقة أدخل الإهمال أو الظلم أو فساد النظام أو ما شئت فسمه الضغن والحفيظة إلى نفسها ومنع عليها سبيل سمو النفس الذى يجب لكل من تربى طفلاً تسنى لك أن تقدر مبلغ الفساد الذى تحاط به نفس الطفل من يوم يولد .

ولم يدرك بخلد روسو حين وضع كتابه أنه سيتج من لأثر ما يجعل طائفة من النبلاء تنقل عن عاداتها . فعنى عناية خاصة بما للظئر وعليها . واستطرد فى ذلك بإسهاب وإطالة . ولا عجب فإنما لهذه الطائفة دون سواها كان يكذب . لكن هذه الطائفة انقرضت بانتشار الديمقراطية وأصبح نبلاء عصرنا هم أصحاب المال . وليس

من شأننا أن نصح لهم فمأخذه خبر ناصح ما دام للمال الحكم والسلطان وما دام كل شيء بالمال يشتري حتى الذمم والضمانات .

على أن واجب الأم فى التربية ليس أكبر من واجب الأب . فهما شريكان فى احتمال التبعة كما أنهما شريكان فى المتاع بالنتيجة . ولقد عبر روسو عن ذلك بحرارة وتألم دفع بعض النقاد إلى القول بأنه أذكر جرمه القديم حين ألقى بأبنائه الخمس تباعاً فى ملجأ اللقطاء . ورأى نفسه فى منحدر العمر وسط صحراء المدنية المجردة فى نظره وحيداً منفرداً كالشجرة الجرداء سقطت أوراقها وتهشم فروعها وبقي الجذع قائماً يلقى العاصفة بكل قوتها وكل قسوتها . قال : « كل أب يطعم أطفاله لا يقوم إلا بثلاث واجبه . ذلك بأنه مدين بالرجال لجنسه ، وبالرجال الاجتماعيين للجماعة ، وبالرعابا للحكومة ، وكل أب يستطيع أداء هذا الدين ثم لا يفعل فهو أثم ، وهو أكبر إثماً إذا أداه منقوصاً . ومن لم يطق أداء واجب الأبوة فحرام عليه أن يكون أباً . . ولن يعفى أب من إطعام أطفاله وتربيتهم فقر أو عمل أو جاه . وإنى لندبر كل ذى قواد يهمل أياً من واجبات الأبوة المقدسة أنه سيبك على خطيئته طوال الدهر دموعاً مرة ليس إلى العزاء عنها سبيل . »

والآن فما هى القواعد التى يجب أن تسير عليها الأم وأن يتبعها الأب فى معاملة أبنائهم أول نشأتهم ؟ لعل القارئ يذكر ما أشرنا إليه عند تحليل الهلوىز من ضرورة إقناع الأطفال بأنهم أطفال وأنهم لذلك فى حاجة ماسة لكل من حولهم حتى من الخدم والتابعين . ثم لعله يذكر أيضاً ما أشار إليه روسو فى روايته من ضرورة التزام الأطفال بالطاعة لما يؤمرون به من غير مناقشة ولا شرح ، وأن تكون طاعتهم عن رغبة ورضا أكثر منها عن رهبة ومذلة . وأن يتركوا أحراراً فى اتصالحهم بالأشياء المحيطة بهم واستفسارهم إياها واستنتاجهم لأنفسهم منها . وعدم التدخل فى ذلك ولو قصد تعديله مهما بلغ فى الخطأ على أمل أن يردهم استنتاجهم الشخصى عن خطيئتهم فيكون أكبر عظة وأبلغ فى نفوسهم أثراً .

ويجب أن يتمتع الأطفال بهذه الحرية وألا يحرموا منها إلا عند خشية الخطر

ألقى العظم ولا يعوقها عائق سلبي ولا إيجابي. فكما لا يصح أن يمنع الطفل حركة أو عز الاقتراب من الأشياء ومنحازها بالحس ويعرفه ما يحيط به ، كما لا يجوز أن يدفع بالطفل في سبيل حركته لأكثر مما تمكنه قواه. وأما الأمهات والمراضع فيجهدن أنفسهن ويجهدن الطفل بغية تعويده المشي ، أن يسرع به ذلك إلى القدرة عليه. هن إنما يضعن عقبات في طريقه وكثيراً ما مائن عليه التلف. وهن بلا شك يعقن تقدمه إلى السير بنفسه. ولو أنهن تركنه ، أنه يعالج الحركة ويعتمد على الأشياء المحيطة به ويسمى نفسه لتقليد الكبار في المكان في تقليده أكثر إتقاناً ولما عاق نمو أعضائه ولعلت الطبيعة لخبره أكثر ألف مرة مما تعلمه أمه أو ظنوه التي لا تستطيع بمقاومتها الطبيعة أو إرهابها إياها إلا أن تفسد ما كان صالحاً.

وذلك هو الشأن أيضاً في أمر التكلم. فإن الحرص على أن يسرع الأولاد إلى النطق يجنى عليهم ويؤخرهم أكثر مما يقدمهم فيه. فإذا هم بدءوا النطق ظلوا يستعملون العبارات السقيمة إلى ما بعد الخامسة أو السادسة. والعلة في ذلك عند (روسو) أن أطفال المدن الذين يربون في غرفة ويقيمون طويلاً تحت جناح معلمتهم ليسوا في حاجة لأكثر من ثلاثة بسيطة كي يفهمهم المحيطون بهم. فهم لا يكادون يحركون شفاههم حتى يجنى من حولهم بالاستماع لهم... أما في الريف فالأمر مختلف. ذلك بأن الريفية ليست على مقربة من ولدها دائماً. فهو مضطر أن يقول ما يريد مفسراً ويصوت مرتفع حتى تستطيع سماعه. فالخير إذن أن يتركوا أذن الأمر يقلون من الألفاظ ما سهل عليهم نقله ونفى حلا لهم نقله ثم أن يعاملوا بذلك معاملة عادية صرفة لا مبالغة فيها لهم أو عليهم.

وهذا هو ما يسميه روسو التربية السلبية التي يجب اتباعها مع الطفل في السنين الأولى من حياته. فلا يجوز أن يلقي شيئاً ولا أن يلقي إليه بشيء مطلقاً. بل هو وراء الأشياء يعالجها وتعالجه. وهل خطر الحياة إلا معالجة الأشياء والتغلب عليها. ما يباد الطفل ذلك من نموته أظفاره وإمائه فيه حسب تكوينه الذاتي ضمين التربية إرادته. ضمين باستظهار القوى والملكات الخاصة الكمية فيه. (فإن لكل يوم يولد - وهذا ما قاله روسو في هلويز الجديدة - فضلاً عن تركيب الجنس العام ميولاً خاصة توجه نبوغه وتعين خلقه) وليس عمل التربية أن تغير هذه الميل

أو تحولها فذلك ليس في مقدوره وإنما التربية تكونها وتكتملها. ولا كانت الميل لأصلية طيبة بطبعها فإن حيناً لا تخلصها إلى غاية حسنة ما دمتا لوجهها توجيهاً حسناً. أما إن نحن أخذنا في التربية بوسائل العنف وأردنا أن نكسر كل الأفراد - وبين ملكاتهم ما بينها من عظيم اختلاف - على السبر في طريق واحدة والتكون على شكل واحد فلن يكون من وراء ذلك إلا اضطراب ملكات الجميع اضطراباً بعددها ويجنى على النشوة ويترك القوس إن ذلك المخارة. وذلك هو العكس مما يجب أن يكون.

وقد غلا روسو عند تعريفه التربية السلبية علماً كاد يجعلها مستجيبة التحقن في الواقع فقال: يجب أن تكون التربية الأولى تربية سلبية وليست هذه التربية أن تعلم الطفل التفصيل أو الحق. ولكن أن يحمي قلبه من الرذيلة وعقله من الباطل، ولو أنك استطعت ألا تصنع شيئاً ولا تدع شيئاً يصنع حول تلميذك وكفالك أن سرت به سلباً معاق قوياً حتى إذا به في الثانية عشرة من عمره ولا يكاد يميز اليد اليمنى من اليد اليسرى إذن لفتحت عين بصيرته للحق من أول دروسك ولا عاقت عادة أو عقيدة ملقنة عنائك عن أن تبلغ غايتها. ثم إنك لتراه بعد ذلك أحكم الناس وتري أن بذلك تربيته بالأنا تصنع شيئاً فقط أدى إلى معجزة من معجزات التربية... فلما صودر كتابه ورد على المصادرة بخطابه البديع للمسيو بومون رئيس أساقفة باريس قال: « والتربية السلبية هي التربية التي ترمي إلى كمال الأعضاء - وهي أدوات علمنا - قبل أن يصل إلينا العلم عن طريقها. والتي تهيئنا إلى العرفان بالرياضة حواسنا ، وليست التربية السلبية من تافه الأغراض ، فإنها تعد الطفل لتقبل كل ما يصل به إلى الحق حينما يكون في مقدوره عرفانه وإلى الجميل متى استطاع أن يحبه ».

وقد وفر روسو في وجوب تطبيق هذه التربية السلبية تطبيقاً دقيقاً سواء فيما يتعلق بفتح عين الطفل للمعلومات وفيما يتعلق بتقويم خلقه. وإنك لتجد في كتابه من هذا التدقيق الشيء الكثير: فلا تلق على تلميذك أي نوع من الدروس اللغظية إذ يجب أن يفيد دروسه من التجارب. ولا توقع عليه أي عقوبة لأنه لا يدرك بعد الخطأ. ولا تطالبه أن يستجيبك عقوباً فهو لا يتصور إهانتك. وما دام لا يعرف أي مقياس خلقه لأعماله فهو لا يستطيع أن يأتي سيرة خلقية تستحق الجزاء أو التوبيخ.

على أن هذه التربية السلبية وغايتها كمال الأعضاء ورياضة الحس والوصول بالطفل قوياً سليماً إلى سن التبصر والعقل تقتضى رياضته برياضة بدنية بمقدار عظيم ، وهذا ما عني به روسو ولم يهمل لحظة خلال كتابه . فهو في كل وقت يسير بالطفل في الأحراش والثلوج والحدائق ويتصعد الجبال ويهبط به البطون ويعوده المشقات ولا يفتأ يقدم لناظره من بدائع مناظر الطبيعة ما يخلق عنده عشقها والولع بها . وهو في هذه وفي غيرها مما يقدمه لتلميذه من وسائل التربية إنما يقدم للنشأة مثلاً من تربيته هو . وهو في أحبل كما كان في الهلويز إنما يقص حكاية نفسه ويروى وقائع حياته مشبهاً أن خير ظروف الحياة الإنسانية هي تلك الظروف التي مر هو بها والتي يأنف أكثر الناس أن يشهدها فضلاً عن قبول . اجتيازها ، ولكنها على الرغم من ذلك كونت بل خلقت جان جاك . وجان جاك صورة النبوغ وصورة الفضيلة . لذلك كانت بالرغم من كل الناس خير الظروف لتخريج نعيم الناس .

هذه الحركات الكثيرة وهذا الطواف والتجوال وهذه المشاهد التي تقع تحت نظر الطفل تقتضى منه احتكاكاً بها قد يحتاج إلى صدور أمر المربي له باجتنابها أو بعدم مزاولتها ، كما قد تستدعى من الطفل حين عجزه عن استفسارها أن يستفسر عنها مربيه فيم تقتضى التربية السلبية في الحالين ؟

ما نحسب القارئ في شك من الجواب . فإن الطاعة المطلقة أساس من أسس التربية الأخلاقية . ولا يجوز للمربي أن يجعل أمره للطفل موضع مناقشة وأخذ ورد لأن الطفل لا يستطيع أن يقدر سلسلة الأسباب والنتائج التي تدور في نفس المربي ولا يستطيع إذا عرضت عليه أن يفهمها . فإذا هو عود الأخذ والرد فيما لا يفهم تعود الجدل السفسطائي غير المنتج وقدّر لنفسه فوق مكانتها وحسب نفسه مساوياً لمربيه فدأخله الغرور وفسدت فيه خيرة الملكات . وليس يقصد بهذا ألا يقدم المربي سبباً للأمر الذي يصدره . ولكنه يكون أكثر دقة إذا هو قدم السبب قبل أن يسأل عنه . فإذا سئل اكتفى بما قدم حتى يفهم الطفل أنه لا يطيع طاعة عمياء وأنه إنما يخضع لضرورات الطبيعة التي يخضع لها مربيه .

وذلك هو الشأن فيما إذا استفسر عن شيء لم يفهمه . فمتى قدم له تفسير ما يسأل عنه وجب أن يكون ذلك التفسير فوق المناقشة حتى لا يكون في شك من

الأسباب التي تقدم له وحتى لا يصل بكثرة الأخذ والرد إلى تعود السفطة الكاذبة . ولعلنا نرى بعد ذلك مبلغ ما في تعريف : وسو للتربية السلبية من إغراق . فلن نقف ضعة الأطفال عند حد ومن يصل طفل إلى الثانية عشرة ولا يميز بين يمين يديه ويساره إلا أن يكون أبوه بالغاً في لبته . وقد رأينا أن الطفل الذي يريد روسو تلميذاً له ليس بالأبله ولا بالسخيف .

على أن روسو قد ابتعد عن تعريفه للتربية السلبية بمحض اختياره . فقد رأى أن يرتب الأشياء حول تلميذه وأن يهيئ الظروف على طريقة تضمن وصول الطفل إلى معلومات خاصة يستحيل عليه أن يصل إليها إذا ترك ونفسه . ورأى ذلك من أول ما عهد إليه بالطفل يربيه فقال :

« إذا عهد إلى سياسة طفل كالذى وصفت - أى طفل صحيح قوى غنى - إذن لقلت في نفسي : إن الطفل لا يتناضل الأشخاص ولكنه يتناضل الأشياء . فهو سرعان ما يقف بالتجربة عند احترام كل من كان أكبر منه سناً أو أكثر منه قوة . أما الأشياء فلا تستطيع أن تدفع عن نفسها . لذلك كانت الفكرة الأولى التي يجب عرضها عليه هي فكرة الملكية أكثر منها فكرة الحرية . ولتكوين هذه الفكرة عنده يجب أن يكون له شيء ملكه . وليس يجدى في ذلك أن تذكر له ملابسه وفرشه ولعبه . فهو وإن تصرف في هذه الأشياء لا يعرف كيف ولا لم كانت له . فإذا أنت قلت له إنها أعطيت إليه فإنك لن تقدمه شيئاً فإن العطاء يقتضى الامتلاك . وإذن فقد كان ثمت ملك سابق على ملكه . ونحن إنما نريد أن نفسر له أساس الملك . كل ذلك فضلاً عن أن العطاء والهبة أنواع من الاتفاق ، والطفل لم يفهم بعد معنى الاتفاق . وإنى أرجو القراء أن يلاحظوا في هذا المثل وفي مائة ألف من مثله كيف عملاً زهوس الأطفال بالفاظ لا معنى لها عندهم ثم يقال بعد ذلك إتنا أحسن تعليمهم خير إحسان .

« يجب أن يرجع إذن إلى أصل الملك لتري كيف ظهرت فكرته الأولى . فالطفل يكون لنفسه وهو يعيش في الريف فكرة عن أعمال المزارع مما لا يحتاج إلا إلى النظر والوقت ، وله حظ منهما جميعاً . ومن طبائع الناس في كل الأعمار وفي سنه هو بنوع خاص أن يترعوا إلى الاختراع والتقليد والإنتاج والإبانة عن مظاهر القوة والنشاط . فما يكاد طفلنا يرى حرث الحديقة وبذرها وظهورها ونمو نباتها

نحن خطيبة إسماعيل عيبك . على أنا ستجلب إليك بذراً ملطياً آخر ثم لن نعمل في الأرض قبل أن نعلم ما إذا لم يكن أحد قد عمل فيها من قبل .

روبير

هوناً عليكم يا سيدة قلتم بيت بعد أرض خالية . وإني إنما أعمل الآن في الأرض التي تستلحقها أي وسوى يعمل ما أعمل . وكل هذه الأراضي التي ترون قد وضعت عليها الأيدي من زمن بعيد .

أميل

« خيري يا مسيو روبير . كثيراً ما تلفت إذن بدور البطيخ . »

روبير

« عفواً أيها الصغير . فليس يغلب عندنا حضور سادة صغار طائشين مثلك ، ولا يمس أحد حديقة جاره بل كل يحترم عمل غيره حتى يكون آمناً على عمل نفسه . »

أميل

« أما أنا فلا حديقة لي . »

روبير

« ليس ذلك من شأني . وإذا أنت ألفت حديقة فلن أتركك بعد تنزه فيها : فإني كما ترى لا أريد أن يضيع عمل هباء : »

جان جاك

« ألا نستطيع أن نعرض على الطيب روبير اتفاقاً . فليعط لصديق الصغير ولي جنباً من الحديقة نزرعه على أن يكون له نصف الثمرة . »

روبير

« إني أعطيه لكم بلا شرط . ولكن اذكروا أنني أحرث فوكم إذا أنتم تعرضتم لبطيخي . »

فهذه الوسيلة التي يلجأ إليها روسو لإدخال فكرة الملك إلى نفس تلميذه أبعد ما يكون عن تلك التربية السلبية التي عرفها . فإذا عرفت أنها وسيلة تكررت

حتى يصور إلى القيام بمثل هذه الأعداء .

« وما كنت وفاقاً للمبادئ السابقين إليها لأمرض لبغيتي ، بل على العكس من ذلك أحبها وأشركه في ذوقه وأعماله لا لمسرته ولكن لمسرته نفسي . وذلك ما يجب على الأقل أن يعتقدوه هو . ومن ثم أصبح صبي في عمله . فأحرث له الأرض في انتظار أن تقوى أذرعته ويقع هو بيده عليها بأن يغرس فيها حبات القول . وليس من شك في أن هذا الملك أقدر وأدعى للاحترام من تملاك نونيس بلها للأمريكان الأوسطي باسم ملك الأسبان حيناً أقام علمه على شواطئ البحر الجنوبي . »

« ثم نحى كل يوم نروي القول ونراه ينمو ونحن أقبل ما نكون انتهائياً ، وأريد أنا ذلك الانتهاج يقول له ذلك ملكك . فإذا شرحت له معنى الملك جعلته يشعر بأنه ما نتج إلا باتفاقه وقته وعمله وجهده وجميع نفسه وإن في تلك الأرض شيئاً من وجوده يستطيع أن يطالب به كل من سواه كما يستطيع أن يتزعزعه يد من يد أي شخص يريد أن يسلك بها قهراً عنه . »

« ولقد جاء يوماً إلى عمله ومعه جردل الماء . لكن المظهر كان أليماً . فقد اقتلعت كل شجيرات القبول وقلبت الأرض ظهراً لبطن وأصبح المكان ولا يمكن تمييزه . فبهت أميل وصاح : ماذا حل بكدي وعمل وتناج عنائتي وعرق جيتني ؟ من ذا الذي غصب ملكي وأخذ فولي . وتحرك هذا القلب الشاب أن أسالت فيه أول مشاعر الظلم مراتها الأليمة ، فهل دمه وملا الجو ترويعه وصياحه فشاركه في ألمه وغضبه وبحث واستقصيت حتى علمت أن البستاني هو الذي أتى الفعلة وأتيت به . »

« لكننا دخلنا في موضوع جديد . فإن البستاني لا علم بالشكوى كان أكثر منا شكاية وأرفع منا صوتاً وقال : أنتم إذن يا سادتي الذين أقدمتم على عمل . لقد غرست في هذا المكان بطيخاً ملطياً استودعت بلوه واعتبرتها كنزاً ثميناً وانتظرت أن أقدم لكم منه عند نضجه ما يسركم . وأنتم أولاء . أتلقم بطيخي بعد ما بددتموه بغرسكم فوكم النحوس ولم يبق إلى الاستعاضة عن البطيخ سبيل . ألا لقد ألتقمتمى ضرراً بالغاً وحرمتم أنفسكم من التلذذ بأكل البطيخ . »

جان جاك

« معدرة أيها المسكين روبير . قد أودعت هنا كدك وعملك ثم ارتكبتا

في كتابه الثانية وأن روسو كثيراً ما رتب الأشخاص والأشياء والحوادث ليدخل إلى نفس السامع فكرة معينة تبين لك أنه شعر تمام الشعور باستحالة مرور الطفل بسبب الحزن الأمل من غير أن تترك في نفسه أثراً . فأراد أن يكيف هذا الأثر على ما يريد .

وقد أورد الكتاب ذلك على روسو : وأخذوا عليه أنه تعارض مع نفسه فترك التربية السليمة جانباً ولجأ إلى وسيلة لا يضمن أحد حسن أثرها كما لا يضمن أحد إمكان نفعها . مهما جاهد ليتبع تعاليم روسو . وهي فضلاً عن هذا سهل أن يكشفها المعلم . وفي ذلك من الخطر ما فيه .

قال فلامن في عرض كلامه عن كتاب التربية : « هنا يظهر وجه الخطأ الأكبر في طريقة المؤلف . ومرجع هذا الخطأ وجود الصناعة في تلك التربية الطبيعية وتوزيع الأدوار ووضع الأشخاص في الأمكنة اللائقة بهم . وإذا كان روسو لا يسمح لتعليمه بمطالعة الكتب لأنها كاذبة فما باله يرتب حوله كل هذه المناظر وهي في صناعتها أكثر من الكتب كذباً . أفلا يعلم أن للأطفال سليقة حادة يكشفون بها عما يصنع لهم من صفات الحيل ويدركون بها مبلغ الجلد معهم . فإذا كشفوا هذه الحيل فقل على التربية السلام . وروسو لا يفتأ يحاذي هذا الخطر في طريقته . وما نشك في وجهة هذا النقد فلن تكون تربية رجل الطبيعة على أساس من الصناعة والتزييف . ثم إنك لن تستطيع أن تجعل الطفل في وسط الصناعة والتجارب أبداً وتضمن تأثير الطفل بهما من غير أن يصل إلى كشفهما .

على أن لروسو بعض العذر عن خطئه . فقد كان مشتغلاً مدة كتابة أميل بالتفكير في إقامة قاعدة الخلق على أساس التلائم مع الأشياء المحيطة . لكنه وقد كان يرى أبعاد ما خلفته المدنية وأوجده الترف من صناعة لم يكن في حل أن يحيط الدليل بمظاهر هذه الصناعة كما أنه - وقد كان يسعى إلى تكوين رجل الطبيعة - غرضه يتعارض مع رجل ذلك العصر - كان من الخطأ أن يستعين بهذا الوسط الذي يطعن عليه وكان واجباً عليه أن يكتفي بالمحيطات الطبيعية الصرفة لتكوين تلاميذه .

والعيب أن يقرر روسو هذه النظرية ثم يبتعد في التطبيق عنها . والحق أنه كما قال روسو ينقص الطرائق المعروفة بأحسن مما ثبت به صلاحية طريقته

فتراه يقول : « ليكن الطفل تحت حكم الأشياء دون سواها . فلا تأمره بشيء ولا تعلمه أكثر من أنه ضعيف وإنك قوى من غير أن تقص عليه أى درس كلامي . ولا توقع عليه جزء فهو لا يفهم الجزء . داه حسه حتى لا يتكون بعد . ولن يصح أن يقع الجزء بافضل على أنه جزء . وقد يجب أن يحل به كأنه نتيجة طبيعية لعمله » ثم يقول : « إنما القمين أن تتم إرادته هو من لا يحتاج لتسامها أن يضيف أذرع غيره إلى أذرع . . والرجل الصادق الحرية لا يريد إلا ما يقدر عليه . ذلك مبدئي الأساسي وأريد تطبيقه على الطفولة » .

أفيكون هذا التطبيق بمثل ما تقدم من الحيلة ؟ إذن فأين البساطة الطبيعية وأين حب الحقيقة وأين الواقع الصحيح .

لكن روسو أحرص على مبدأ التربية السليمة عند تطبيقه في الميدان الأخلاقي . فهو لا يريد أن يلقي على الطفل شيئاً باسم الواجب ولا أن يعلمه شيئاً باسم الحق ولا أن يتدخل معه في استنتاجه فضرر كل تدخل أكثر من نفعه ، لكنه يرى واجباً أن يطبع الطفل إرادة أبيه أو مربيه وأن يخضع لها خضوعه لأى قوة من قوى الطبيعة القاهرة . وإلا : « فمتى استطاع الإنسان إثبات ما لا يسوغ له عمله دخل إليه حب إخفاء ذلك العمل . ومتى أمكن لصالح أن يصل منا إلى وعد وكلمة أمكن لصالح أكبر منه أن يدفعا لنقض كلمتنا وعدم البر بوعدها ، ومن ثم تدخل المفسد إلى النفس ، ولو أننا أبعدناها عن مظنة السوء لبقيت في طهارتها ونقاها . ولا يكون ذلك إلا بتركها حرة تعالج الحياة وتحتمل ثمرات علاجها من خير وشر لنعلم أن الضرورة الطبيعية هي وحدها التي تنبذ حرية الفرد وأنها لا تنبذ حرته في سبيل خير وانفضية ونحو » .

ولنت برى أن العرف يترك لفضل من الحرية ما يسمح له بتربية نفسه حسب الوسط المحيط به . وأن روسو قد رأى لذلك وجوب ترتيب هذا الوسط بطريقة تضمن حسن النتيجة في تربية ناعم الظفر . ولكن الترك المطلق كما قدمنا محال ، وهو إن أمكن في السنين الأولى - إلى الثالثة أو إلى الرابعة من العمر - فهو بعد ذلك غير ممكن . لذلك وجب أن يتقدم المعلم إلى الطفل شيئاً فشيئاً لا بتعليمه الأشياء ولكن بإفاته لها وإظهار الدهشة لعدم معرفته إياها بنفسه . على أن هذا الإلفات يجب أن يكون للأشياء المحيطة بالطفل لا بالأشياء التي لا يقدرها إلا توهماً . فلا نقل له

إن الأرض مستديرة ولا إن قطرها يبلغ طوله كذا وكذا من الكيلومترات ولا إن المسافة بين الأرض والشمس مداها كذا كيلو متر مما يشتد ذهنه ويفتشى على بصيرته . بل جاهد لتجعله دائم الانتباه إلى كل ما يمس مباشرة . وإنك إذا لواجهه قديراً على التصور والتذكر وعلى التعقل أيضاً . وهذا هو نظام الطبيعة .

والأشياء التي تمس تلميذ روسو هي المناظر الطبيعية والمزارع والقرى المنشأة بينها . وفي هذه المحيطات موضع لعلم واسع يلاحظه التلميذ بنفسه . فاختلاف سعة المزارع والمنازل والأماكن يمكن الطفل من تفهم المقاييس والأحجام ، ومختلف المساحات وما إليها فما تلهمه مبادئ الهندسة . والقرى المختلفة المشتتة التي يغشاها في أثناء نزهه ورياضاته وما بينها من بحيرات وغدران وجبال تفتح عينه للجغرافيا المحلية . وأخلاق الناس وعاداتهم وأقاصيصهم تدله على تاريخهم . وهو متى استطاع أن يفهم ذلك كله من الأشياء المحيطة به مباشرة ناق بطبعه إلى فهم أشباهها ونظائرها فسهلت دلالة وهان إرشاده .

فإذا سار الطفل في سبيل التطور على هذا النحو حتى بلغ الثانية عشرة من عمره فافتق ذهنه واتسع عرفانه أصبح قصره في دائرة التربية السلبية غير ممكن ووجب البدء في تعليمه . وذلك لأنه في هذه السن دونه في كل أدوار العمر يملك من القوة ما يزيد على رغائبه وشهوته . فينبأ يعجز الطفل ويستصرخ لضعف جهده ، وبينما ينوء الرجل بحمل مطالبه ورغائبه ومطالب من يعول ورغائبهم ، إذا الفتى الذي قارب استكمال قوته البدنية وفتح عين بصيرته للوجود لا يزال قليل الرغائب لأن شهوته الجنسية لا ينفجر ينبوعها ولأن أطراف نموه يقاوم كل ما يستوجب الضعف ، ولأن ما أفاده من العلم بالمحيطات به بلغ حداً صار معه في حاجة لتبويبه وترتيبه وتعميمه إلى ما يشابهه مما لا يقع تحت حسه . وهو لا يقدر على القيام بذلك بنفسه . وإلا لكان واجباً أن يبدأ كل فرد من أول الطريق الذي قطعتة الإنسانية . وهو من غير شك أعجز من أن يلم وحده بمجموع ما كدسه الماضي من معلومات توضح وتفسل بالزمان . فإذا وقف في منتصف الطريق عجز عن ملاسة الجمعية ولم يفده عجزه شيئاً . ومن الواضح أن تربية هذه نتيجتها هي تربية خائبة .

ولعل القارئ يذكر ما وجه لروسو من قارص النقد حين نشر خطابه عن

العلوم والفنون داعياً لرجعة إلى الطبيعة . فقد طعن عليه بورد ستانلاس وغيرهما يومئذ بأنه يقف في ضيق التقدم ويدعو إلى الخراب . واضطرهم فعد عن فكرته المتطرفة إلى وجوب استبقاء المكاتب والمتاحف من غير أن تكون سبب للترف ولما يجره من الفساد . وما كان روسو ليقع من جديد في خطئه القديم . فجعل يوضح لأهل عصره السبيل لمحور الفساد مع الاستمرار في طريق التقدم تعزيز على العلماء والكتاب جميعاً .

ووسيلة ذلك في تربية تلميذك الذي تعدى الثانية عشرة من عمره أن تلهمه الحقائق المحسوسة من غير أن تعلمه إياها . وذلك بأن تنبه يقظته إلى مظاهر الطبيعة حتى تثير عنده الشغف بها ، على أنك إذا شئت أن يبقى شغفه فلا تقدم له ما يكفيه ويقنعه بل قرب منه المسائل ودع حلها له . فلا يجوز أن يعلم شيئاً لأنك قلته له وإنما يجب أن يعلمه لأنه فهمه من تلقاء نفسه . وإذا فهو لا يتعلم العلم ولكنه يبدعه . . على أن من الواجب إرشاده بعض الشيء ، وبعض الشيء فقط ، وبمقدار لا يشعر هو به . فإن أخطأ فدعه يخطئ ولا تسارع إلى إصلاح خطئه ، بل انتظر مطمئناً حتى يتاح له أن يصحح ما أخطأ فيه أو فرب له فرصة غير محسوسة تجعله يحس بخطئه . ولو أنه لم يخطئ أبداً لما أتقن تعليماً . وهنا يرتب روسو من صور الطبيعة ومظاهرها ومن الصور المسرحية التي مر بك مثلها في قصة البستاني ما يبين به طريقة الإلهام وإثارة الشغف واستبقائه .

إلى هذه السن لم يقرأ أميل كتاباً إلا كتاب الطبيعة الذي لا يكذب أبداً ، وهو في هذا يختلف عن روسو الذي كان ولا يزال ، في السادسة من عمره يقضى الليل كله بقرأ هو وأبوه روايات كانت أمه قد خلفتها قبل وفاته . إلا أن روسو كان شديد الرغبة عن الكتب ، لأنه كان يعتقد أنها مثلاً للبيئة الاجتماعية كافيها ليفسد على الأستاذ كل تعليمه وبخاصة إذا قرأها الطفل ولما تكون عنده ملكة الحكم ولما يفد من المعارف ما يسمح له بتقدير ما فيها من صحيح وباطل . لكنه إذ بلغ الثانية أو الثالثة عشرة من عمره كان في من تسمح له بالتدبر بعض الشيء ولذا وجب التسامح معه في قراءة بعض الكتب على شريطة أن تكون في متناول علمه وأن يستطيع الحكم عليها حكماً صحيحاً .

فأما الكتب التي تتعدى مقدرة في الحكم فضرورة ألا تفسد نظام تربيته

وتخضعه لأفكار لم يحصلها هو بنفسه وتجعله لذلك العوبة في يد سواه وتدفع به إلى التقليد وإلى مجازاة الوسط ، من غير تفكير في تقدير ما يجارى غيره فيه اعتماداً على أن هذا الغير أكثر منه مقدرة وأوفى علماً . والطفل إذا اتجه إلى هذه الناحية فقد ذاتيته وضاع كل مجهود أنفق في تكوينه وتربيته وصار مغرماً صالحاً لكل مفسد الاجتماع .

وخير الكتب التي يقدر عليها الأطفال في هذه السن حكايات لافونتين . وليس من شك في أن هذه الأقاصيص التي تنسب إلى إيروب اليوناني والتي نقلها لافونتين إلى الفرنسية هي ببساطتها وبسوقها على لسان الحيوانات وبالأفكار والحكم التي تحتويها خير ما يصلح لرياضة عقل الطفل لجاذبيتها ولطرافتها ولجمالها . وطفل روسو ومن كان على شاكلته يستطيعون لا شك حسن تقديرها والحكم عليها . لكن أقاصيص لافونتين لا تكفي وحدها غذاء لنفس الطفل المحتاجة إلى الغذاء العقلي . ولما كان حتماً أن يكون الطفل لنفسه فكرة عن العالم وعن الإنسانية بعد ما كون فكرة عن ركن العالم المحيط به وعن أصول وفروع أصحابه ومعارفه فقد أباح له روسو مطالعة كتب التاريخ مفضلاً منها ما كان مقصوداً على تراجم الأفراد . وحكمة ذلك أن تواريخ الأمم لا تعني من قترات حياة الأمم إلا بأوقات الحروب والثورات والمذابح وما إليها من ظاهرات تدهور الإنسانية . فإن الشعوب السعيدة لا تاريخ لها . والرجوع إلى هذه التواريخ المولعة بالبحث عن المجد والإشادة باسم الذين وصلوا إلى ذروته مفسد للروح لما يدقعه إليها من حب الدنسية والخديعة والكذب والتفاخر .

وإننا لنؤمن بهذه الملاحظة ونعتقد أن العصور التاريخية التي يعلو فيها نجم السياسيين هي أنعس عصور الإنسانية وأحطها . ولو أنك رجعت إلى أبداع ساعة في تاريخ فرنسا - ساعة الثورة الفرنسية - ووقفت عندها وفتة الحكم وحللت ما كان فيها إذن لما رأيت إلا كلمات جوفاء وإلا مظالم مكسمة بعضها فوق بعض وإلا السياسيين ذوى المطامع الذاتية يدوسون باسم أرقى المبادئ وأسمائها رقاب البشر يظلمون باسم العدل ويقتلون باسم السلام العام وينهبون باسم ثروة الدولة ويرتكبون كل قاحشة ومنكر باسم الفضيلة الطاهرة ويهينون الأمة النائرة تطلب الحرية لقبول ظلم نابليون وطغيانه .

بل ما لنا نرجع للثورة وهذه حرب العالم الكبرى وما يكذب ينتهى العالم منها . أرأيت ما بلغته الأمم خلالها من جلال وما باهت به بعدها من فخار ومجد . أسمعت كلمة إمبراطور الألمان أول الحرب (ويل للمغلوب) وهي كلمة لا نظير لها إلا في نذر الآفة . أسمعت خطاب لويد جورج وكلمنسو وما تستفز به حمية الشعوب وتستندر به عبارات الإنسانية . وهل تذكر خطاب ما بعد الهدنة مترددة بين الوعد والوعيد وصوت البشير وصيحة النذير . إن كنت تذكر كل هذا فاجلس ساعة إلى نفسك واحتلب عصارتها جميعاً بعد أن تمرره بمصفاء عقلك ثم قل لي هل ترى فيه من خير يعدل ما في سطر من كتب روسو أو قصيدة من شكسبير أو من كوميديات دانت الإلهية أو من تواليف جيت شلر . ولا غرابة في ذلك . فالإنسانية إنما تنتج طيب آثارها وهي في حال من طمأنينة البال وسكينة النفس وفي شيء من الرغد ونعمة العيش . فإذا هي استطير عقلها طاش صوابها وتحكمت فيها شهواتها الحيوانية فأصبحت الخطب زثيراً وصهيلاً والتفكيرات طفرات واندفاعات والعواطف سلاقق وحشية والرحمات رياء ونفاقاً . وما كان لأحد أن يطالب الإنسانية بغير هذا . فإن للوسط على النتيجة أكبر الأثر . فإذا تلبد الجو بدخان البارود فاحتجبت الشمس واختفى القمر وتسمم النسيم وقلبت الأرض عاليها سافلها وغطى الجذب أكثر بقاعها ربح الإنسان وسط ذلك كله وجلا مضطرباً متحفزاً للوثبة كله عيون ترى مواضع الخطر وآذان تسمع هزات النسيم وكان على هذه الحال ولا فرق بينه وبين النمر أو الثعلب أحيط به وسط أدغاله وأحراشه .

كتب التاريخ التي تقص خبر هذه الفترات من حياة الإنسانية ليست إذن من طبيات الكتب التي تقدم للناشئة حين تربيته . لكن الناشئة ليست في غنى عن كتب التاريخ . لذلك فضل روسو أن تقدم إليهم كتب التراجم . فإن المؤرخ يعنى بتتبع من يترجمه في كل فترة حتى في الفترات التي يود المترجم الخفية فيها والاستتار . وهو لا يترك له فرصة ولا صورة إلا عرضها أمام عين الناظر الناقد . وهو أشد عناية بتعريف الناس إياه حينما يظن هو أنه اختفى عن كل عين .

لعل القارئ يذكر ولع روسو بكتاب بلوتارك عن حياة العظماء . وهو هذا الولع الذي أدى به لمدح فكرة قراءة التراجم أكبر المدح ويشايح الكاتب الفرنسي الكبير مونتني في محبته إياه وفي التشجيع على قراءته .

على أن كتب التاريخ العام وكتب التراجم لا تقتصر على ذكر الوقائع ووصف حالات النفس . بل كثير ما يوجهها حكم المؤلف على الحوادث وجهة خاصة . وما كان المؤرخ مهما بلغ من حياده ومهما نظر إلى الحوادث بعين مطمئنة لا تعرف الفرع ولا النشوة أن يمحو ذاتيته من كتابته : فإن للوقائع التي يسردها وللرجال الذين لعبوا الأدوار المهمة فيها ولظروف الاجتماع التي أحاطت بها ولتصاريف الأقدار التي وجهتها منطقاً خاصاً . ولم يبلغ العلم الاجتماعي بعد من الدقة مبلغاً يجعلنا نؤمن بالقوانين التي تصرف الحوادث التاريخية والاجتماعية إيماننا بقانون الجاذبية . فكل مؤرخ وكل مترجم له رأي في منطق الحوادث وله حكمه على كل رجل من رجال التاريخ . لذلك كان الناشئ في تعرضه لهذه الكتب عرضة لأن يتأثر بحكم غيره . وهو وإن بلغ سنّاً تسمح له بحسن التقدير فإنه لا يزال في درجة من معرفة العالم أدنى من درجة هؤلاء المؤرخين والمترجمين . وتأثره برأيهم هو ما يخشاه روسو وإن كان لا يجد من الالتجاء إليهم مفرّاً .

يلتجئ الطفل إلى كتب التاريخ والتراجم ليعرف سيرة الإنسانية والسل التي سلكها الناس فيها من قبل وكيف قدرُوا شأنها وأثروا فيها وتأثروا بحوادثها . ذلك كل شأنه من قراءته ليس يعنى بتمحيص الحوادث لبضع يوماً مؤلفاً في التاريخ ولا يفحص صور الأمم ليشئ نظريات في الاجتماع ، لأنه في الحالين يكون معيئاً على انتشار العلوم والفنون وانتشارهما فساد وشر عند روسو . وليس يعنى من قراءته بما قد تجرّه من الفائدة المادية لأنه على ما رأى القارئ بائس الأمر شاب غنى من أسرة عريقة في الأرستقراطية غير محتاج ليجعل من دراسته صناعة ترد عليه من وسائل العيش ما ترده الفأس على الفلاح والكبر على الحداد والمنشار على النجار . هذه الدراسة أو بالأحرى هذا الاطلاع على بعض الكتب الخاصة وتفهمها والحكم عليها إنما يراد به المزيد من حسن تكوينه ليصبح أكثر مقدرة على ما أعدته له أرستقراطيته من التربع على عرش الحياة بما يجب له من العظمة المحسنة ومن التحكم المحبوب .

لكن الغنى عرض والأرستقراطية مظهر والتحكم المحبوب ليس مضمون البقاء . وأميل لم يحصل من قراءته ليفيد عرض الحياة . لذلك رأى روسو أن يعلمه صناعة يدوية حتى إذا قعد بين الزمن كانت له معيئاً على الزمن . ثم إن ما قرأ

في نفس أميل من أن السعى أساس التملك وأن البطالة ليس لها حتى إلا العمل والأمراض وأن رياضة البدن أمر حم الفائدة كل ذلك يجعله يرى في الصناعة اليدوية ما يسلى به وقته وما يزيد به في رياضاته وما يشعره المساواة مع الفقراء في كدهم كما تشعره تربيته الراقية المساواة مع الأرستقراطيين في سرائرهم وفي حكمهم غيرهم .

إلى هنا انتهى روسو من تربية تلميذه الأول فأنتهت الأجزاء الثلاثة من كتبه الضخم . وهنا وقف تلميذه عند حدود ما بين الطفولة والرجولة حين يبدأ الفرق الصحيح بين جنسى الرجل والمرأة ، فيخرج الأول من طفولته وتتغير فيه كل مظاهرها من نعومة في الصوت وخلو في الفؤاد وإبهام في النظرة وخضوع واستسلام ويبقى الثاني مستمراً في طفولته بكل مظاهرها إلى ختام حياته .

هذه اللحظة هي أدق لحظات حياة الرجل . فنحن (نولد مرتين أولاهما لتوجد والأخرى لتعيش ، أولاهما للنوع والأخرى للجنس) فإذا تفتحت في الشاب يتابع حياة الجنس كان هذا مولده الثاني . وليس هذا المولد أقل خطورة من الأول . فإنك ترى الشاب في إبان هذا التطور وقد تغير طبعه وكثرت اندفاعاته ولج به اضطراب النفس وصم عن سماع كل صوت يتاديه للسكينة وأصبح وكأنه أسد في نفرته لا يعرف مرشداً ولا يقبل لغیره عليه حكماً . فلا عجب أن يكون واجب المربي في هذا الدور من أدوار الحياة مضاعفاً وأن يكون كل ما قام به من قبل في سبيل التربية قليلاً إلى جانب ما تقتضيه هذه اللحظة الحاسمة .

عود روسو لتلميذه الطاعة في كل أدوار حياته ، وحب إليه رياضة البدن ورياضة النفس ، وعلمه حرفة يدوية بقتل بها الوقت ويستعين بها إذا قضت الحاجة ، وقدم إليه طيب الكتب القليلة ليقراها ويحكم عليها . ولم يترك لحظة من وقته إلا شغلها بما يريد ، على ألا يحس التلميذ بهذا التحكم . بل على أن يعتقد أنه حر مطلق الحرية بصرف وقته كما يشاء ويعمل ما يريد . فكان ضيقاً إذن ألا يفكر التلميذ في شيء من صلوات الجنسين قبل هذا المولد الثاني . وما دمنا قد عودناه الحكم على الأشياء وإمعان النظر فيها فإن هذه الساعة الخطيرة ستمر بهذا التلميذ من غير كبير خطر . لأن تحكم الأبطال الجنسية في الشبان

ودفعها بهم في سبيل السبل إنما سببه كثرة تفكيرهم فيها . أما إن هم وجدوا عنها منصرفاً وشغفوا بأعمال وتفكيرات أخرى فإن ساعات العمالة لا تمر بهم أبداً . لأن اتجاهات الذهن أكبر من كل شيء أثراً على حركات الجسم واندفاعاته . وما دامت هذه الاتجاهات عند تلميذ روسو بعيدة عن صلة ما بين الرجل والمرأة فإن خطر ساعة بدء الشباب يكون غير مخشى العاقبة .

وإننا لنشارك روسو في ملاحظته هذه عن إيمان وعلم ونقطع وإياه بأن مقاسد الشباب في المدن إنما سببها هذا التبرج النسائي وهذه الصور المخجلة التي تعرض لا على مسارح التمثيل فحسب ولكن في السبل والطرقات وفي حوانيت الباعة وفي الزيارات العائلية وفي الأحاديث العامة والخاصة . دعنا إلى جانب هذا من دور البدعارة ومبآت اللهو ومن تلك الأماكن العامة يترجح فيها أفراد من كل جنس لاهم لهم إلا إثارة كوامن الشهوات . فكيف ترجو مع ذلك أن تمر بالشباب ساعة جنون الشباب فلا يتدفع وراء الرغائب الجنسية الطائفة في نفسه . بل كيف ترجو ألا يفكر الأطفال قبل العاشرة بل الثامنة من عمرهم في صلات الجنسين ، وكيف تراهم يقيمون في نفوسهم طلبة الطفولة التي تدعوهم للسؤال عن كل ما تقع عليه عيونهم . فإذا هم فهموا هذه المعاني على النحو المشرق الذي تقدم به في المدن تواردت صورها إلى أذهانهم فهاجت نفوسهم فعبجت الساعة الخطيرة ولما يكتمل لهم من توازن قوى الجسم والعقل ما يضمن سلامتهم من التورط في الزلة والارتكاس في حماة الرغبة الجنسية والتأثر بكل ما يجيء ذلك به من فساد في الطبع وضعف في النفس وانحطاط في جميع القوى .

أما في الأرياف البريئة من كل هذه المقاسد فمن بلوغ الفتيان والفتيات متأخرة عما هي عليه في المدن (وإنه ليدعشك أن ترى في قرى سويسرا الجبلية شباناً في قوة الرجال ولا يزال صوته حاداً ودقهه ملساء ، وفتيات كاملات التكوين لا تؤاذهن عادات النساء . وهذا الفرق الواضح بين هؤلاء وأهل المدن إنما سببه أنهم في بساطة أخلاقهم يحتفظون بخيالهم هادئاً مطمئناً فيتأخر اختيار دهم وتظل طباعهم أقل حدة) وما يصدق على قرى سويسرا يصدق على كل مكان تسود فيه البساطة وطمأنينة الخيال .

فإذا ظل التلميذ مشتغلاً بالرياضاته ولعبه وقراءاته وحرفته عن التساؤل عن صلات

الجنسين وما يرتبط بها فواجب ألا يثبت إلى شيء منها حتى يثبت في سكينة وحتى تمر به العاصفة وهو قوى عليها بلقاها بلا خوف ولا وجل . لكنك لن تفهم ذلك . فللأطفال مسائل يفهمونها في هذا الباب عن براءة وطهارة قلب . فكيف نجيبهم عنها . أترانا نكذب أم نلزمهم السكوت أم نصارحهم بحقيقة الأمر واضحة جلية .

أما الكذب فيغضب إلى نفس روسو وهو لا يقره بحال . وأما إلزام السكوت فذلك ما يميل إليه . وما دام الطفل قد اعتاد الخضوع لهذا الأمر في مواضع أخرى من تربيته فلن يراه في هذا الموضع غريباً ولن يثير عنده أي دهشة أو طلعة . على أن الأقل من المهمات من تكتفي بإلزام طفلها السكوت . بل هن على الأغلب يفاجئنهم بعبارة التشويق والترغيب كأن يقلن هم : ستعلمون ذلك فيما بعد . أو ذلك سر المتزوجين . فيبقى الطفل يتقلب طلعه على أشواك الحيرة يود أن يعرف اليوم ما سوف يعلمه من بعد ويريد أن يقف على سر المتزوجين . فإذا لم يجد من أمه أو مربيه من يبدله عليه لجأ إلى الأطفال أمثاله . وهو لن يعدم أن يجد من بينهم طائفة فاسدة الخلق تزين له من أمر هذه الأسرار التي يأتي الكبار أن يبوحوا بها ما يجعل الطفل يدمن الفكرة فيما يقوله أمثاله مزينا إياه بصور خاصة من خياله معتبراً فيه طلسماً ضمن أبوابه بفتح كنوزه أمامه . ولو أنهما كلماه في الأمر بصراحة وببساطة كما يكلمانه في كل ما سواه فقالت له أمه حيناً سأله كيف تصنع الأطفال أن النساء يلدنهم متجشبات . في ذلك من الآلام ما يذهب أحياناً بحياتهن ، وقالت له ذلك على نحو ما تقول له أي شيء آخر إذن لرأيت طلعتة وقد اطمأنت ثم لرأيت وقد انصرف عن التفكير في أمر هذا مبلغه من السخف أو إن شئت قل من القذارة والنكر .

لكن العرف بأن ذلك ، والسبب عند فاجبه راجع إلى تفسير الأشياء الطبيعية بشيء من الحدس الديني (فإن الطفل لا يذكر شيئاً مما أصابه ولا يذكر ما كان حتى الرابعة من عمره . لذلك خيل لآبائنا أن الآلهة أرادوا أن يبقى الإنسان زمناً طويلاً جاهلاً كيف وجد في هذا العالم وألقوا على مسألة الميلاد حجاباً مقدساً ظنوا رفعه أمراً غير جائز) لكن الحجاب المقدس الذي يأتي الآباء رفعه يرتفع من أمام عين لطفل بلا حاجة لتدخل يديه . فإن زملاء المدرسة وخلان

الطرائق وحالة السلفة أجزاً من الآباء وأسرع إلى التجديف في حق هذا السر القدسي بطريقة دينية منكزة سيئة الأثر والعمل في نفس الطفل البريء . ولو أن الآباء أراحوا الحجاب على النعم الذي ذكره روسو من البساطة وعدم العناية به أكثر من أي مما سواه لانصرف الطفل عن العناية بالبحث فيه أو بسباع أقوال زملائه عنه وكان شأنه شأن من صرفته أعماله ورياضاته وما إلى ذلك من المشاغل عن المسألة في هذا الأمر ، فلعل الحلم متوافر القوي والرغائب غير معنى بالمسألة الجنسية أكثر من عنايته بسواها مستعداً للبقاء في طهر العفاف حتى زواجه . وما أكثر ما تكسب الفضيلة بذلك (فإن الطفل الحسن المولد الذي يحتفظ إلى العشرين بطهارته هو في هذه السن أكثر الرجال وأحسنهم وأرقهم) ذلك ما يقوله روسو عن علم وتجربة لا يخفى معهما كذباً . وإنما يجمل سواه من فلاسفة العصر هذا الأمر لأنهم تربوا وشبوا في أحضان الفساد المدرسي .

إلى ذلك الوقت ، إلى السادسة عشرة من سن أميل لم يلقن أميل شيئاً من قواعد الخلق ولا عن أسناده بتأديبه ، بل تركه للطبيعة يتأثر بمظاهرها وبفعل تلك المظاهر فيه ، وليس من شأن الطفل قبل هذه السن أن يفكر في غير نفسه ولا أن يعنى بعلاقته بمن سواه ولا أن يقدر للمواطن المختلفة . وإنما تسير به في مضطرب الوجد فطرة الاحتفاظ بالحياة في أحسن الظروف الممكنة للحياة . وهذه الفطرة هي أقوى أسس الأثرة وهي التي تجعل الموجود لا يعنى من الوجود إلا بذاته ولو ترب على عنايته بذاته فناء الوجود .

وما يشك قارئ في أن هذا الترك إجمال معيب من جانب الأستاذ لتلميذه . فإنما الغرض من التربية تهذيب هذه الأثرة الأشمية . فإذا ترك الطفل وشأنه تمت فيه أثرته فأصبح من المتعذر التغلب عليها كما أحاط بها من مستلزماتها الغرور والكبرياء والبطش وحجب الظلم وما تدعو هذه الصفات إليه من الكذب وباطل الادعاء ومن النفاق وتعليق الأقوياء ومن القسوة والفك بالضعفاء . ويومئذ يذهب كل مجهود لاستئصال هذه الصفات أو للتغلب عليها هيله . ويومئذ يكون القسم الأهم من التربية بل التربية كلها قد ذهبت ضياعاً . هذا اعتراض قوي يوجه إلى روسو في تركه فله بلا تأديب حتى هذه

٥

السن المتقدمة . لكن لروسو عليه رداً ليس أقل منه قوة . فهو يقول إن تسميئى ليس كتلاميذك (نظر إليه في هذه السن تر أنه لم يشعر بشيء ولم يكذب في شيء . فهو لم يقل لأحد قبحاً أن يعرف معنى الحب - إنني أحبك - هو لم يعود تكلف مظهر خاص حين الدخول في غرفة أبيه أو أمه أو معلمه المريض وهو لم يعلم فن النظائر بالحنن حين لا حزن عنده . وهو لم يتظاهر بالبكاء لموت أحد لأنه لم يعرف بعد ما هو الميت . وإنما تترجم سكينه طباعه عن سكينه قلبه . وهو لا يهتم لأحد لأنه لا يعنى بشيء إلا بنفسه شأن الأطفال جميعاً) وقد حفظ ذلك عليه طبعه كما أتاح له أن عاش عيش الطبيعة فلم يدرج أول ما درج إلى أماكن اللهو وإلى المجتمعات البراقة الكاذبة البريق وإلى كل مصنوع متكلف . ولو أنه شب كما شب غيره واعتاد التكلم بما لا يعرف وبما لا يحسن به لكان أساس تربيته فاسداً ولكنك تربيته له على هذا النحو وإنما تكيف رجل الجمعية الفاسد الدعي على حساب ابن الطبيعة الصريح الصحيح . وهذا لعمره هو الشر المستطير .

لا يقف أميل إذن بعد على شيء من قواعد الخلق فكيف السبيل لإدخالها إلى نفسه .

قد يجب علينا قبل عرض هذه المسألة على طريقة روسو أن نسأل عن رأيه هو في قواعد الخلق ، وقد يجب علينا قبل معرفة رأى روسو أن نسأل عما هي قواعد الخلق لذاتها . وإنما لا ندعى في هذا الموضع إمكان مناقشة المسألة الأخلاقية التي يستغرق كل وجه من وجوهها مطول التصنيف ولكننا نعرض منها لما نرى ضرورة التعرض له لفهم رأى روسو وتعرض له على طريق الإشارة البسيطة لا على طريقة البحث والتحقيق .

لو أنك فرضت وجوداً لحي بن يقظان أو لرونغن كروزو لا استطعت أن تتصور لها من قواعد الخلق إلا بمقدار ما يستطيعان معه ملاممة البسط الذي يعيش كل منهما فيه . فإذا كان أحدهما محاطاً بكواثر الوحش ويطغى متقلب كبير العدوان وبأرض قليلة الخصب لم يكن بد من تصور هذا الشخص قريباً نشطاً ذا ذكاء وحيلة وإبداع حتى يدفع بقوة وحيلته عاديات الحيوان عليه ، وحتى يصل بنشاطه وإبداعه إلى استغلال الأرض على قلة خصبها ، وحتى يستعين

بإبداعه وذكائه على اختراع ما يتق به ثقل الطفس ، فإذا وصل إلى ذلك كله فائق العدوان وحصل المعاش كان ما يأتيه بعد ذلك من تفكير أو تصور أو عمل ولا حكم لقاعدة من قواعد الأخلاق عليه . وإذا كان الآخر مقبياً في جو خصب غنى خبراته معتدل الطفس قليل العوادي من حيوان وطير كان في غنى عن القوة وعن الحيلة وعن الإبداع . وكان غير ملوم في أن يستع من جنته بكل ما يصوره له خياله من أنواع المتاع ثم لا يكون لشيء اسمه قواعد الخلق حكم عليه .

لكن الإنسان المنفرد لم يكن ولن يكون . فإذا وجد حي وكروزو معاً وكانا متساويين قوة وحيلة وذكاء اقتسم كل نعم الحياة مع صاحبه من غير عدوان عليه لأن عدوانهما الأول أثبت فما أن ليس لأى منهما من وراء العدوان فائدة وأن العدوان ضار بهما جميعاً . كذلك تعاون كل مع صاحبه لدفع العوادي . فإذا حل بأحدهما الضعف جاهد صاحبه ليفيد على حسابه . فإذا تفاوتا في القوة إلى حد إذلال أحدهما للآخر لم يكن للذليل بد من أحد أمرين : إما الخضوع رجاء الحصول على ما يقيم أوده مع بعض المتاع الذي يفيض عن صاحبه . وإما الاحتفاء في الزهد واحتمال الحرمان من كل ما قد يجود به الحياة المحيطة من نعم أو مسرة ، وهذا الاحتفاء من الظلم في كنف الحرمان هو عندنا أساس التقشف والزهادة التي أصبحت فيما بعد مذهباً أخلاقياً ذا قوام وشعب وقواعد .

ولا عجب أن يصبح الزهد مذهباً . فقد كان التفاوت وعدم المساواة في عصور ما قبل التاريخ ، وكان الظلم ولا يزال قاعدة التعامل بين الأفراد والأمم . وإلى اليوم أخفقت كل المجهودات الكريمة التي أنفقت لمتعه أو لتخفيف وقعه . وكثيراً ما استفاد الظلم على حساب هذه المجهودات وخرج بفضلها ظافراً من كل الحروب التي أعلنها ومن الحروب القليلة التي أعلنت عليه .

غير أن التقشف لا يتفق مع طبيعة الحياة . وليس من منكشف إلا وصدف عن الحياة سواء طمع بعدها في الخلود أو هو لوى عنها وجهه تفرزاً منها واستهزاء بها أو خضوعاً لضرورتها المتحكمة ، والتخلي عن الحياة تناقض لا تطبيقه النفوس في معروف الحياة ، لذلك كان مذهب الرواق على بديع جماله خيالا شعرياً . أما ما هو واقع تحت نظرنا فيدلنا على أن الحياة غاية الحياة وأن ما تفسر به صورتها بعد ذلك إنما هو حدس لا دليل عليه . ولتحقيق هذا الواقع يجب أن

تكون قاعدة الخلق عند رجل الجماعة كقاعدة الخلق التي فرضناها على بن يقظان ، ملائمة الوسط الذي يعيش الفرد فيه على طريقة تتفق مع فطرة احتفاظ الفرد بحياته ومعاونته على احتفاظ الجنس ببقائه وتطوره وبملاءمته للوسط الذي يعيش فيه .

وهذه القاعدة أكثر تمسكاً مع مذهب أبيقور على تعدد صورته ، وهي ما يريده روسو قاعدة لآدابه مع شيء من الطرافة خاص به ويميز له عن سواه .

وقد يلاحظ هنا أن هذه القاعدة هي القاعدة العامة لكل أنواع الخلائق ، فلن يحتمل الحياة موجود لا يتلاءم مع ظروف الحياة المحيطة به . ألا ترى إلى السبع والنمر على قوتها وجراتها كيف يهجران الأماكن التي لا تتفق طباعهما مع طبيعة العيش فيها . فما الفارق بين الإنسان وغيره إذن ؟

الفارق أن طبع الحيوان أصلب وأقسى من طبع الإنسان . الإنسان قدبر على أن يتشكل بشكل الظرف الذي هو فيه . وهو قدبر على ذلك عن إدراك وشعور . أما الحيوان فأقل مرونة وهو لذلك أسرع إلى الانقراض عند تغير الوسط . ومرونة الإنسان وشعوره بهذه المرونة هما أساس الخلق المكسوب القائم إلى جانب الطبع والسليقة عنده .

وقد كان من تطور حياة الإنسان أن تزايد التفاوت بين جماعاته وبين أفراد كل جماعة فاقترض ذلك نضالاً دائماً تمت الغلبة فيه للظلم أكثر الأحيان ، وباء المظلومون بخيبتهم يتعثرون في أذيالها ويشعر كل منهم بقارص ألمها ، فتكون عندهم تبادل العطف بسبب الألم المتبادل ، وعرف كل منهم أن أخاه اليائس يستحق من الإشفاق ما يشعر هو في نفسه بأنه مستحق له ، ثم حفزهم ألمهم لمعاودة الكرة وللثورة من جديد في وجه الظلم ، فاحتاجوا للقيام بثورتهم إلى التعاون والتضامن فيما بينهم وإلى الصداقة في القول والإخلاص في التضحية ، لكنهم لم يظفروا من ثورتهم الجديدة إلا بما فازوا من نضالهم القديم ، فعادوا أذراجهم واجمين ، ففكر جماعة منهم في القناعة بحظهم مكتفين بالنظر لمن دونهم وبالتألم لمن كانوا أكثر منهم مصاباً . أما الآخرون فنظروا إلى من غزوههم نظرة الحقد ثم فكروا في إنزال غضبهم بأمثالهم الضعفاء الذين عجزوا بالأمس معهم عن مواجهة الأقوياء . وكذلك تجدد الظلم والعدوان وكذلك نشأت العواطف.

التي رأى القارئ ، فأقامها الناس قواعد لخلقهم في النضال اليومي الذي لا يقل عن ذلك النضال الآخر بشاعة وقسوة والذي لا يمتاز عنه إلا بأن أستانه أدق وأحكم ، فوخزاتها أقوى وأقفل ولكن في خفية وتحت ستار الانسجام .

ولولا التفاوت ولولا النضال لما كان شيء اسمه قواعد الخلق ولا الآداب ولا الفضيلة ، بل لعاش الناس عيش أهل الجنة على ما يصفهم الوصفون .

على أن ما سته الناس قواعد للخلق قد أخذ صوراً وأشكالاً عدة ، وكل إنسان مبال بطبيعة مزاجه وبظروف حياته وبتكوينه النفسي وبحكم البيئة إلى صورة من هذه القواعد خاصة تختلف قليلاً أو كثيراً عن الصورة التي يميل إليها سواه . وقد كان روسو ميالاً إلى نوع من الفضيلة الزاهدة في الترف مع نوع من الاعتذار عنه ونصيب من الرغبة فيه . نصيب يسمح له بالتخلص من ضرورات العيش مطمئناً إلى نفسه وإلى تفكيراته وتأملاته من غير أن يذل هو له وأن يستذل لذلك من سواه من الناس . ولعله عبر عن ذلك خير تعبير في رواية الهلويز حين قال عن جولي : (وجولي نفس وجسم يتعادلان في دقة الإحساس ، فغواطفها وأعضاؤها كلها الرقة . وهي قد خلقت لتذوق كل اللذائذ ولتعرفها . لذلك مر بها زمن طويل كانت تحب فيه الفضيلة حباً جماً على أنها أشهى الشهوات . وهي تنهل اليوم من هذا المتاع الأسنى ولا ترفض ما سواه من صور المتاع ما لم يتعارض معه . لكنها تسلك في المتاع باللذائذ سبيل القصد التي يسلكها من يرفضون اللذة . وفن المتاع عندها هو فن الامتناع - على ألا يكون امتناعاً ألبماً يجرح الطبيعة ولا يرى فيه خالقها إلا تحية سخيفة أخرى بالازدراء والتحقير . بل امتناعاً معتدلاً موقوتاً يحفظ للعقل حكمه ويحتفظ بالسرور في حدوده ، فينبئ عنه التفرغ منه والإسراف فيه ، وهي ترى أن حاجات الحس التي ليست من ضرورات الحياة بتغير طبيعتها إذا انقلبت عادة فينقضي العهد بها كلذة وتصبح حاجة لازمة وغلا يتقيد الإنسان به ومتاعاً يحرم نفسه منه . فساد الرغائب ليس إذن هو وسيلة إقناعها ، بل وسيلة قتلها . لذلك تراها تحجب واحدة من عشرين من رغائبها فتجعل بذلك للرغبة المجابة قدراً وثمناً وتحفظ على نفسها قوتها ولا تنفخ بالاستهلاك لذتها .

« ولما من الامتناع غاية أشرف هي حكم نفسها وتعويد شهواتها الطاعة ورغائبها الخضوع ، وتلك سبيل طريقة للسعادة ، فإن الإنسان لا يطمئن للمتاع إلا بما

يستطيع فقده من غير ألم ، وأعجب ما يظهر لي عجباً في اعتدال مزاجها أنها تأخذ في قصدها بالأسباب التي تدفع بالشهوانيين إلى تطرفهم . وهي تقول إن الحياة قصيرة حقاً ويجب لذلك أن تتمتع بها إلى غيتها وأن تنصرف فيها جميعاً بحذق كى تفيد منها أوفر حظ ممكن . ولو أن يوم نخمة أضاع علينا متاع عام لكان من أنعس صور الفلسفة أن نتقاد وراء رغائبنا نسيناً أنا قد نصل إلى منتهى ضعفنا قبل أن نصل إلى مدى وجودنا وأن قلبنا قد يمتيه الضعف قبل أن تموت . وهؤلاء الأبيقوريون السخفاء الذين يريدون ألا تضيع منهم فرصة بضيعون الفرص جميعاً ، وشأنهم وهم يسرفون في الوقت ويدعون القصد فيه شأن البخيل يحل به الخراب لأنه لا يحسن التزول عن شيء يقضى الظرف بالتزول عنه . أما أنا فأخذ بنقيض هذا الرأي مع ميل للشدة فيه وميل عن التراخي أياً كان مقداره . وقد صادفتني أن وقفت دون استكمال بعض ملذات رأيتني شغقت بها فلما عدت بعد ذلك إليها حصلت منها على ضعف المتاع ولم آل جهداً خلال ذلك كله في أن أجعل لإرادتي الحكم على نفسي مفضلة أن أرمي بالتشبيث من أن أدع لشهواني الحكم علي » .

يذكر القارئ إلى جانب هذه الصور من أنواع ملذات جولي صورة معاملتها لزوجها وأولادها وأصدقائها وأتباعها على نحو ما وصفناه في الفصل السابق ، وتلك كلها هي قواعد الخلق التي يراها روسو . وتلك هي عنده فضائل الحياة ومفاتيح السعادة . لكن استغراز هذه العواطف وتثبيت هذه القواعد في نفس الناشئ لا يكون بإملائها عليه ، إذ لا بقاء لعاطفة ولا لقاعدة ولا لفكرة تملئ من غير أن يكون لها أساس متين ، بل هي أسرع ما يكون للتطور والتغير لتلائم مزاج صاحبها ونزعاته النفسية ، فلا بد إذن من تركيز إحساس معين عند الناشئ تنفرع عليه العواطف والقواعد بطبيعتها وتؤتي ثمرها كما تنبت الفروع من الجذع ثم تؤتي أكلها نقياً سليماً ما دام الجذع قوياً صحيحاً .

والأساس المتين لهذه العواطف والقواعد هو الشفقة والكرم . والشفقة عند روسو عاطفة طبيعية لأن أساسها الألم . يكنى أن يعرف الطفل أن أمثاله يتألمون كما يتألم وأن لم آلاماً خاصة بهم ليعلم أنهم حقيقون بالعطف وبالمرحمة ، فإذا تعهد الأستاذ هذا الإحساس الطبيعي في نفس الطفل بأن عرض عليه

مواضع الإشتاق والاشتراك معه في مؤازرة المكلم والعطف على البائس وأبعده عما يثبت هذا الشعور عنده كان قد مهد السبيل لأرقى تربية خلقية تنتظرها.

لا يرضى هذا الرأي أنصار النضال وبقاء الأصلح من فلاسفة الأخلاق . هم يقولون إن عاطف الرحمة والإشتاق عاطف مختلفة تأباه الطبيعة التي لا تعنى ببقاء الضعفاء ، وقد نصبت التفاعل بين مختلف العناصر ومختلف الذرات أساساً لنظام الوجود . وما تفضل أحد الرأيين على الآخر ونحن نعتقد أن الحياة الإنسانية هي المثل الأعلى لدوام الخير والحركة . فما يصدق على بعض الأحياء قد يصدق عليها حيناً ثم لا يصدق في حين آخر . وإذا نحن سلمنا بنظرية النضال إلى منتهى مداها فثبتنا نظرية التعاون والنضال ، وهي ليست أقل منها تمكناً في حياة الوجود وفتحاً باباً للظلم القادح باسم النضال . وإذا سلمنا بنظرية الشفقة فثبتنا نظرية التنافس ، والتنافس حادث اجتماعي لا سبيل إلى نفيه . وكذلك ترى أن الشأن هنا كالثان في كل الأحداث الاجتماعية ، لا نستطيع إخضاعها لقانون نظري متطرف لأنها تجمع بين دفتيها متناقض الأطراف .

على أن لروسو عدداً واضحاً في تكوين نظريته . فهو مسيحي لم يخرج ثقليه بين البروتستانتية والكتلكة ومعاشرته للمشككة والمحددين عن مسيحيته ، بل بقي مؤمناً ثابت الإيمان بانياً إياه على قواعد وحجج سبرها القارئ قريباً . والمسيحية دين الشفقة والرحمة . فطبيعي أن يؤمن روسو بها وأن يعتبرها أساساً للحياة الأخلاقية .

ثم إن حياة روسو وسيله في العيش وما مر به من بؤس واحتمله من مكروه كل ذلك لم يكن إلا ليزيده إيماناً ببادئ المسيحية المحسة الكريمة التي تجعل في سموة الفقير والبائس كبرى الفضائل .

وإننا ننقل هنا نص القواعد التي وضعها روسو ليسيروا عليها المعلم في تربية تلميذه الأخلاقية . . . ! « ليس من شأن القلب الإنساني أن يتربع في مكان من هم أسعد منا بل في مكان من هم أجدد منا بالإشتاق والرحمة . . . وأنت لا تزق لا يصيب سواك من أوصاب إلا ما تعتقد أنك في غير متباعدة منه . . . والناس لا يشفقون على المصاب بمقدار مصيبته ولكن بمقدار ما يحسونه من ناله لذلك المصيبة » . وقد أبد روسو هذه القواعد على اعتبار أنها الواقع ، ثم شرح كيف يجب تلميزه

بالأمثلة المحسوسة للشعور مع الإنسانية المظلومة مقدراً أن ذلك الشعور هو أساس السعادة ثم قال : « سيلبني لا شك أكثر من قارئ على نسيان ما عزمت عليه بادية الرأي وما وعدت به تلميذتي من سعادة دائمة . فأني سعادة وأني متاع يجده القلب الشاب حين تفصح له الحياة في مناظر لعشاء والمائتين وشاهد الألم والبؤس . كان معلمه النفس الذي هبأه لحياة ناعمة بعده إلا للشقاء والألم . ذلك ما سبقنا ولكنه لا يهني فقد آليت على نفسي أن أجعل تلميذتي سعيداً لا أن أعده ليتظاهر بالسعادة » . والسعادة لا تكون إلا بمشاركة الناس في آلامهم والعمل لتخفيف ما يعانونه منها ، أما النفوس التي تظهر غير ما تبتطن فمثل أفكار الانتقام على لغزها الخادع بسبات الغدر . وهي تنفق ضحكة الاستهزاء ولا تعرف ضحكة السرور ، وتحمل في مجاميعها الرفاحة الطريفة والظروف الوقع . تلك النفوس لا يفتر الألم يحز فيها حتى يمتيتها ويفقدوها أرقى المعاني الإنسانية : معنى الشعور والواجب .

الواجب ؟ أحسبني بهذه الكلمة قد عدوت فكرة روسو . فهو لم يكن يعرف الواجب كثيراً . وهل ترى في الجمعية التي يصبو هو إليها ، تلك الجمعية الساذجة التي لم تغادر بعد حدود الحياة المستوحشة ، تلك الجمعية الزاحدة في نعم العيش لتكون بعيدة عن آلامه . تلك الجمعية الصريحة بطبيعة تكوينها والتي لا تحتاج في الحياة إلى كبير عناء لتحصل على كل مطالب الحياة . هل ترى في تلك الجمعية معنى حقيقياً لكلمة الواجب أو تراها جمعية تتحكم فيها القطرة كما تتحكم في أنواع الحيوان الأخرى ؟ .

لذلك كان كل معنى الواجب عند روسو هو العودة إلى هذه الجمعية العائنة على بساطة القطرة في أحضان الطبيعة السعيدة ينعم أفرادها جميعاً بنعمة المساواة ، ثم لا يفسدها عليهم ما يستلزمه الترف من كثرة الحاجات ومن الاشتياك بالغير اشتياكاً ينهي بالخضوع وبالفساد . بل يبقى كل منهم قليل الحاجات بعيداً عن الخضوع للغير كامل الحرية موفور السعادة .

وهنا ينتقل روسو للكلام عن التربية السياسية . وهي في رأيه جزء من قواعد الخلق : « أما أولئك الذين يريدون أن ينظروا في السياسة وفي الخلق مفصلين فلن يفهموا أي منها » . لكن التربية السياسية تتطلب تعليماً إيجابياً ، فقد بلغ

الناس من الإيماء في الفساد حتى لو أنك تركت الناس بحكم عليهم بالنظر إليهم والبحث في شئونهم لانتهى به الأمر للتفرز منهم ونكرهم . أما إن عرف أنهم في الخطيئة عن غير قصد منهم . وأنها ظروف التطور هي التي دفعت بهم إليها إذن لأخذته الشفقة من أجلهم والرأفة بحالهم . ثم لفكر في سبيل الإصلاح الواجب اتباعها للخروج بهم من شقائهم .

وسبيل الإصلاح التي يريد روسو أن يلقنها تلميذه هي تلك السبيل التي نادى هو بها من قبل في خطاب العلوم والفنون وفي خطاب التفاوت وفي خطاب المناظر . فالإنسان طيب بطبعه والمساواة حال طبيعية أفسدها الناس في جماعاتهم ثم هم لا يزالون يتشدقون باسمها . فهم يتكلمون عن المساواة أمام القانون أو المساواة في الحقوق وهي ليست إلا خيالا وهمياً . فإن الوسائل التي أعدت لصيانتها تعمل على هدمها والقوة العامة تفسد بانحيازها للقوى كل توازن أقامته الطبيعة بين الناس .

والروح العامة لقوانين كل البلاد تميز القوى على الضعيف ومن يملك على من لا يملك . هذا عيب لا مفر منه ولا استثناء له « وإذ قد ترتب على التفاوت ما ترضح الإنسانية تحته من شقاء وتعس ، فلا بد من إعداد الناشئة لتخليصها من هذا الهم القتال . ولن يكون ذلك إلا إذا وجهت عواطف النشء لإقامة جماعة لا يكون لطائفة فيها امتياز على طائفة ويخضع فيها الكل للقانون على السواء ويكون حماة القانون فيها أكبر من أن تؤثر فيهم الاعتبارات الخاصة وأحرص من كل من سواهم على جعل الشرع مظهراً للإرادة العامة حتى يكون كل فرد إنما يطيع إرادة هو فيها شريك وسلطاناً هو من بين أصحابه . وبذلك يمكن أن تتحقق فكرة المساواة أمام القانون على نحو ما يريدونها متشدقو ذلك العصر .

لسنا بحاجة للدخول في تفاصيل النظام فسيكون موضع ذلك عند الكلام على كتاب العقد الاجتماعي . وإنما نقول إن وسيلة تعويد النشء على الميل إليه وملاحظة الجماعات والشعوب ، وليس من شك في أن روسو أميل إلى الشعوب والجماعات الصغيرة ، وقد رأى القارئ من ذلك الميل شيئاً غير قليل في رواية الملوك وعرف أن سببه ما كان عند روسو من الهيام بوطنه جنيف هيأماً كانت تزيد المسآة والآلام قوة وتأصلاً .

إلى جانب الأسفار مجيء قراءة كتب التاريخ وقد سبق بنا القول في شأنها

وفي رأى روسو في كتب التاريخ وفي تراجم الأبطال بما لا بدع محلاً للعودة إليه أو للمزيد فيه .

ما أشك في أن القارئ قد ساءل نفسه غير مرة : والمسألة الدينية ؟ الإله ، سر الوجود ، الأبدى ، إني لم أسمع بعد عن شيء من ذلك كله كلمة وقد سمعت أن روسو رجل مؤمن متدين مولع بدينه وبالبحث فيه . فكيف به وقد نسي تلميذه في ظلمات الجهل من هذه الجهة وكأني به يريد تخريبه زنديقاً ملحداً .

رويدك يا سيدي القارئ . إن روسو لا يريد أن يعرض على الطفل شيئاً ليحفظه عن ظاهر قلبه من غير أن يفهمه . ذلك بأنه يرى أن عرض الحقيقة على من لا تسمح لهم عقولهم بفهمها يحل محلها الخطأ والضلال والمسائل الفلسفية والمسألة الدينية ليست في متناول العقول الساذجة ولا مما تستطيع عقول الأطفال دركه وتفهمه . فإذا أنت عرضت على الطفل أية فكرة عن الله رأيته قدس الصورة في خياله من غير أن تقرها ملكات عقله . وخطر ذلك صريح واضح . فالطفل المقدس بخياله يصبح متعصباً تعصباً أعمى كارهأ لإخوانه بني الإنسان الذين لا يدينون بدينه لغير سبب يفهمه . ولعمرك هل ترى فرقاً بين تعصب مسلم الآستانة ومسيحي باريس . فأيهما على الحق . ولو أن مسيحي باريس ولد عند قرن الذهب من أبوين مسلمين أو لو أن مسلم الآستانة ولد على ضفاف السين وألقيت إليهما فكرة الدين قبل أن يصل أحدهما لإدراكها أفلا ينقلب الحال في شأن التعصب . ثم هما في تعصبهما على الباطل جميعاً وإن كانت عقيدتهما متقاربتين تحويان من الحق مقادير متعادلة .

كذلك يقول روسو إذ يرى في عرض مسائل الدين والفلسفة على الأطفال خطراً غير قليل . وحجته في هذا أن عاقبة تلقين قواعد الدين للطفل أن يبقى طوال حياته طفلاً في تعصبه لها وغضبه من أجلها ونفوره ممن لا يشاركه فيها ، أو أن ينفر من هذه القواعد متى بلغ رشاده وينفيها جميعاً لما يخالف حقها من باطل ولما تقف بجمود بعض قواعدها في وجه الحياة وفي سبيل العلم .

وليس من شك في أن حشد الخيال إبان الصغر بالأفكار العالية الخاصة بالروح وبخلودها وبالاختيار وبالخير وبالله وبصفاته مما لا يستطيع الذهن له إدراكاً يجعلنا نأبى العودة لبحث هذه المسائل إبان الرجولة إذ تصبح في نظرنا وكأنها

ما دام الشاب قد وصل من ملاحظاته ومن سنه إلى مقام يسمح له بفحص الأشياء والأفكار وبتقديرها قيمتها . أفلا كان من الواجب أن تطرح عليه أوجه النظر المختلفة بله المتناقضة لمحصها وليختار منها ما يشاء . وإذا كان روسو قد انتقل من البروتستانتية إلى الكاثوليكية واختلط بالمحدين وبحث هذا كله ووصل منه إلى رأى ونتيجة ، فلم لا يسمح لتلميذه بمثل هذه الحرية في البحث والنظر . . إن نظريات الدين والإلحاد والشك كثيرة يتباين بعضها ويتقارب البعض مع وجود اختلاف يسمح لكل أن يكون ذا شخصية مستقلة بارزة . وهل نظرة كل منا إلى هذه المسائل إلا متعلقة بمزاجه وبأمنيته في السعادة . . أو على الأقل في الطمأنينة في الحياة . فالمعتزل والمتشكك يبغي من عزله ومن نقشه ما يبغيه المترف والمتطرف في الأبيقورية من نعمة السعادة . ألم تر قوماً نزلوا عن كل معاني النعمة وأخذوا بأسباب الزهد طمعاً في السعادة . وهل لم تر آخرين كانوا قد زهدوا في الحياة ثم رأوا زهدهم سخرية وهزواً فرجعوا إلى الحياة ونعيمها معتبرين الألم عرضاً مهما تطاول به العهد مؤمنين بساعة النعم مقدرين فيها عوضاً عن كل شقاوة وتعب .

والزاهدون يقيمون رأيهم في الزهد على إحدى فكرتين متناقضتين . . التخلي عن لذائذ هذا العالم طمعاً في نعيم العالم الآخر ، أو التخلي عن كل نعيم ولذة لأن اللذة والنعم هما أساس الشقاوة والألم . كذلك يقيم الناعمون رأيهم على فكرتين متناقضتين . . الاقتناع بأن هذه الحياة الدنيا هي دار النعم . أو القول بالعمل للدنيا كأنك تعيش فيها أبداً وللآخرة كأنك تموت غداً . فأى هؤلاء جميعاً على الحق ؟ ولم تريد بتلميذك أن يأخذ في سبيل ربما كانت أضل السبل إذا قرنت إلى مزاجه ؟

لكن روسو لم يفكر في هذا الاعتراض ولم يعن به : هو قد وصل إلى رأى اعتقده حقاً . وهو يرى وجوب الوصول بتلميذه لدرك هذا الحق .

ما هو هذا الحق الذي سيعرضه روسو على تلميذه . إنه يرى في الأدباني جميعاً أساساً لحقيقة . ويرى التعصب لأي دين سخافة لا تغتفر . ويرى الإيمان أمراً لا يحتمل الشك . لهذا فهو سيعرض على تلميذه الذي رباه ليكون رجل الطبيعة ديناً هو الدين الطبيعي ، وسيعرضه على لسان قس من السافوا مخافة

من خصائص الأطفال . فإذا نحن عتينا ببحثها بعد ذلك واجهنا حتماً بعض تفاهات وسخائف مما كانت طفولتنا تقضى بإضافته على هذه الأفكار السامية حتى يستطيع خيالنا الغض أن يسيغها . فإما رجعت أمام هذه التفاهات إلى حرز الإيمان والتسليم وبقينا في تعصنا القديم ، وإما نفرز بسبب هذه السخائف مما كنا من قبل نفر منه فنفيها . والأقلون منا هم الذين يصرون ويصابرون لتمحيص تلك الأفكار تمحيصاً جدياً من جديد .

على أن روسو لم يسلم في هذه المسألة من اعتراضين عمليين : أولهما قائم على اعتبار العقيدة والدين قاعدة للخلق ووسيلة عملية للسير في الحياة ، فهما يكبحان جماح النفس ويحولان بينها وبين النقائص لتقريرهما حرمتها ولبيان ما يترتب عليها من الجزاء في الآخرة . وهذا الرأى الذى أبداه جول لم تر لا يقوم عند كثيرين اعتراضاً على روسو . فقد جعل روسو من تربية الحوادث ما يجمع في النفس ثورة الشر إن راضيت الشاب على حسن تقدير النتائج بعد فهم مسبباتها . فالشاب الذى رباه روسو لا يرتكب الشر إشاحة بقلبه الطاهر عن الشر ونظراً لما يترتب عليه من النتائج السيئة ولو في مستقبل بعيد . وليس من شك في أنه في هذا يفضل المبتعد عن الشر لغير سبب إلا مخافة عقاب الآخرة .

أما الاعتراض الثانى فقايم على أنك لن تضمن بقاء الطفل بعيداً عن المسألة في أمور الدين إلى أن تعرضها عليه . فإن طلعة الصغار شديدة ولا تخشى مفاجأة أصعب المسائل . وأي طفل لم يسأل من أمور الحياة في أدقها ؟ فكيف كان الماء ؟ أمطرته السحب . وكيف كانت السحب ؟ كونها بخار الماء المتصاعد بسبب حرارة الشمس . ولكن كيف كانت الشمس وكيف كان الماء ؟ هذه سلسلة من المسائل التى ترد على لسان الأطفال والتى يفر أكثر الآباء منها عن الله بعرض فكرة يضل فيها خيال الطفل زمناً ثم يكبرها بسبب هذا الضلال ثم يؤمن بها بسبب إكباره إياها ثم تصيح عنده عقيدة على نحو ما سبق بيانه . ولا سبيل لاتقاء الخطر إلا بإلزام الطفل السكوت . وما دام تلميذ روسو قد اعتاد الطاعة فهو لا يجد في هذا السكوت خروجاً على قاعدة سابقة .

إلى جانب الاعتراضين العمليين السابقين يوجه إلى روسو اعتراض عام . لماذا يرى ضرورة عرض المسألة الدينية على الشاب عن طريق التعليم والتلقين

أن يؤخذ هو به وينفى من أجله .

يذكر القارئ أن روسو كان أيام تشرده في إيطاليا بعد تركه مدام دفارانس قد دخل ديراً في نورين وقد قابل بعد ذلك قسيساً اسمه جم قال روسو في اعترافاته إنه هو الذى هداه في عقيدته وإنه هو قسيس السافوا الذى ضربه مثلاً لصاحب الديانة الطبيعية في كتاب التربية . على أن مراجعة تعاليم قسيس السافوا في كتاب التربية تقنعنا أن هذا القسيس الداعي للديانة الطبيعية هو روسو نفسه . وهو هنا كأميل في التربية وكسان برى في الهلوز وكالرجل الطبيعى في خطاب التفاوت ، تلك الصورة المحبوبة التى يعشقها روسو من كل قلبه : صورة ذاته على ما يجب لذاته أن تكون .

ولد هذا القسيس مزارعاً فقيراً مهياً بمركزه الاجتماعى لفلاحة الأرض واستغلالها ، لكن أبواه أرادا أن يخرج من هذه المهنة ليكون رجلاً من رجال الدين . وهما لم يريدوا ذلك حباً في الحق ولكن طمعاً في مركز أحسن لاهنهما . بلغ الغلام ما أراد أبواه أن يبلغه ، وأصبح قساً ومنع عليه أن تكون له زوج أو أسرة .

وعلى الرغم مما يبيحه له مركزه من الاختلاط بالعائلات فقد كان شديد الاحترام لقراش غيره . لذلك انفضحت أغلاله وغضب رئيسه عليه نشعر بالظلم واثارت نفسه ضد ما غرس فيها من تعاليم الكنيسة عن العدل والحق والشرف وشك في كل ما كان من قبل مقتنعاً بصحته .

« تلك حال حرجة أليمة فليس من شأنها أن تدوم . وإنما يجسنا عندها مقتضى النقص أو خمول الفؤاد . ولم يكن قلبى من الفساد بحيث أستريح لها . وغير ما يحفظ علينا عادة التفكير أن نكون أكثر اطمئناناً لأنفسنا منا لحظنا » .

فاندفع يفكر فيما عرض عليه من قبل مطرحاً أقوال غيره جانباً : « فما من مفكر إلا يعلم أن طريقته ليست أحسن من طريقة سواه ولكنه يؤيدها لأنها طريقته . ومن منهم بعد ما عرف الحق من الباطل إلا يفضل الكذب الذى أبدعه على الحقيقة التى كشفت عنها غيره . وأين ترى ذلك الفيلسوف الذى لا يرضى لمجده أن يضلل مختاراً بالنوع الإنسانى كله . فتفكير كل لذاته أجدى عليه من تلك الطرائق التى وضعها أصحابها سلماً للمجد وسيلة للشهرة » .

(ذلك رأى روسو ، فما رأى القارئ في طريقة روسو وما رأى روسو في طريقته ؟) . وأول ما وصل القسيس إليه من تفكيره أن وقف بأبحاثه عندما يعنيه مباشرة مستعيناً في ذلك بنور نفسه لا بما لغيره من لألاء كاذب . وقد هداه نور نفسه من أول الأمر إلى الإيمان بالله ، ولم تكن هدايته للإيمان نتيجة حجة أو دليل ولكن لأن الإيمان نظرية عظيمة مسلية تسمو بالنفس وتضع للفضيلة أساسها وقوامها . وهى كذلك واضحة جليلة لا يجد الذهن الإنسانى فيها من التعقيد ما يحده في سخافات الأفكار الأخرى . وما دام قصور الذهن الإنسانى يعجزه عن حل بعض الاعتراضات التى توجه لكل النظريات فلا يصح اعتبار هذا العجز حجة قائمة ضد أية نظرية يقرها العقل ويهذى إليها نور النفس .

ذلك تدليل قسيس السافوا في أمر النظرية الإلهية . أما نظرية الاختيار في الحياة فقائمة عنده على أن الحركات قسبان : إرادية Spontanée ونقلية Communiqué ، فأما النقلية فترجع إلى سبب خارج عن الجسم المتحرك ، وأما الإرادية فقائمة به . والنقلية كحركة الساعة لا تتحرك إلا بدافع غير قائم بها . أما حركة الحيوان فأدخل عند روسو في باب الحركات الإرادية .

فإن شئت أن تعلم كيف عرف روسو أن هناك حركات إرادية فهو يقول لك : « أنا أعلم بها لأنى أحسها . أنا أريد أن أحرك ذراعى فأحركها من غير أن يكون ثمت سبب مباشر إلا إرادتى . وعبثاً يحاول من يريد إقامة الحجة لفساد عندى هذا الإحساس ، فهو عندى أقوى من كل شاهد . وإلا لصح أن تقام لى الحجة على أننى غير موجود » .

وكأنما شعر روسو أن النور الداخلى ليس كافياً هنا كفايته في النظرية الإلهية . لأن الحركة مظهر محسوس مصدره المادة المحسوسة . فذهب إلى أن الأصل في المادة السكون وإلى أن الذرة الحية ليست من الأمور الممكنة الفهم عنده . وما دام السكون هو الأصل في المادة فالحركة عرض خارج عنها لا يتأتى إلا بإرادة غير ماثلة فيها . وهذه الإرادة هى بالنسبة للعالم قوة الإله المسيرة للكون على سنن معينة ، وبالنسبة للإنسان إرادته الذاتية المختارة في حركاتها . لا أريد أن أعرض لنقد هذه الفكرة بأكثر من أن ما عجز روسو عن تصويره من وجود الذرة الحية وحركاتها قد أصبح حقيقة لا تحتل الجدول . ومن أن السنن

العينة التي يسير عليها الكون تحكم الجماعة الإنسانية وتحكم الفرد حكماً يجعل الحرية وهماً إن أمكن تصور خياله في الجزئيات التافهة فمحال تصوره في مجموع الحياة المؤثرة كل التأثير على هذه الجزئيات (١).

والآن فلنتخط هذه المسألة لما بعدها . « إذا كشفت لي المادة الحركة عن إرادة فإن المادة الحركة وفقاً لقوانين ثابتة تكشف لي عن بصيرة . والإرادة والبصيرة من عمل موجود تراه عيوننا في السباوات الدائرة والنجم المضيء في كل حي وفي كل مظهر . . . وهنا ينطلق روسو يذكر الوجود والموجد بقوة وحرارة إيمان قل إن ارتقي إلى مثلهما كاتب من قبله . وهنا يرتعش أسلوبه تارة وينزل على الماديين غضبه أخرى ثم يرتفع بتصوره إلى ارتباط ما بين الكائنات ارتباطاً لا يمكن حدوثه عبثاً . وهنا يمهّد روسو لرجال الكنيسة في فرنسا السبيل للأمر بالقبض عليه كهرطيق خارج على الكنيسة فيفر من فرنسا ويقابل في كل مكان باللعنة لحرطته ومحاربه قواعد الإيمان .

« هذا الموجود الذي يريد ويقدر والقائم نشاطه بذاته . هذا الموجود الذي يحرك الوجود ويدبر كل شيء هو أياً كان شأنه ذلك الذي أسميه الله . وإلى هذا الاسم أقرن صور البصيرة والقوة والإرادة والطية التي تترتب حتماً عليها . ولكنني لم أعرف ماهية هذا الموجود الذي أطلقت عليه ذلك الاسم بل هو خفي على حسي وعلى ذهني سواء بسواء . وأنا كلما فكرت فيه ازدادت حيرة واختلاطاً . فأنما أعلم قطعاً أنه موجود وأنه قائم بذاته . وأعلم أن وجودي تابع لوجوده . وأن كل الأشياء التي أعرفها شأنها في ذلك شأنى . أنا أرى الله في كل مكان تدل عليه خلائقه . أنا أشعر به في نفسي وأراه في كل ما حولى . لكنني كلما حاولت مشاهدته في نفسي والبحث عن مكانه وعن ماهيته وكيانه غاب عني ولم ير ذهني المضطرب من ذلك شيئاً .

لهذا لا محل للبحث فيما ليس للوصول إليه سبيل . ولهذا انتقل قسيس السافوا للنظر في أمر الإنسان . فرأى أنه خير الخلائق لأنه من دونها جميعاً هو الذي

(١) راجع ما نشرناه مطولاً في أعداد يناير وفبراير ومارس وأبريل ومايو من مجلة المقتطف سنة ١٩١٧ بعنوان القدورية والجبرية . (نشرت هذه المقالات في الفصل الرابع من كتاب الإيمان والمعركة والفلسفة سنة ١٩٦٤ - للمؤلف - الناشر)

يستطيع ملاحظتها والحكم عليها والتحكم فيها . لكن أفضليته عليها لا تدعو إلى كبرياء ولا إلى مجده وقخر . بل إلى اعتراف بمجد الله وبحسن صنيعه .

هذا المخلوق المفضل . هذا الإنسان الذي يحكم على غيره ويتحكم فيه . هذا الجالس من الوجود في الدروة إلى جانب عرش خالق الوجود . هذا الإنسان ليس مع حيوانه ممكنة متعاً بما يتمتع به غيره من حيوان ومخلوق من سعادة . هو أشقى منها حسيماً . هو الذي يقاسى آلام التفاوت وشقوة الظلم والتعس . فكيف كان هذا التناقض .

الحقيقة ألا تناقض إلا عند الماديين . وإنما هو الاختلاف بين الروح والجسد . فالروح تتعلق بالحقائق الخالدة والعدالة وبالعالم النفساني الذي يعيش العاقل الحكيم في عليا مناطقه . والجسد ينزل إلى حكم الحواس والشهوات وكل ما هنالك مما في عالم النقص والفساد . . . وليس من روح إلا للإنسان . أما الماديون الذين يقولون بأن الحجر يشعر كما يشعر الإنسان وأن القوة ليست إلا مظهراً من مظاهر المادة فإنما يحكمون على الأشياء الروحية التي لا يسهل على العقل الإنساني دركها حكم الأصم على الأصوات ينكرها لأنه لا يحس بها وهي مع ذلك حاصلة . كذلك ينكر الماديون الروح لأنهم لا يحسون منها ذلك السلطان المصروف لحوادث الكون . فكما أن الأصوات توجد برغم إنكار الأصم كذلك توجد الروح برغم إنكار المادى .

تلك تعاليم روسو . ويجب أن يكون الإنسان روحياً ليؤمن بها وليقدر مداها ، كما يجب أن يكون الإنسان سمعياً ليقدر حجج السمع والأصم ويحكم بينهما . ذلك مع وجود فرق بين الحالين ؛ فالسمع حاسة تتصل بالوجود المحسوس في أثرها وتأثيرها . والروح التي يعبر عنها روسو قوة تتصل بالعالم المعنوي من غير أن يكون لها في العالم المحسوس أثر محسوس .

وجود الروح بنى التناقض الذي يزعمه الماديون ؛ ذلك بأن الإنسان كما سبق القول مرید مختار . وليس معنى الاختيار الضرب في نيهاء القوضى . فأنما بلا شك لست حرّاً في ألا أريد الخير لنفسى . ولست حرّاً في إرادة الشر لنفسى . وإنما قوام حريتي ألا أريد إلا ما يوافقني أو ما أراه من غير أن يكون لشيء سوى مدخل في اختياري . وليس تفسير الاختيار على هذه الصورة بالعجيب .

فإن الله خلق الإنسان على صورته . والله لا يريد إلا الخير لتعلقه بطبيعة وجوده . والخير هو التوازن وهو نظام العالم . فالشر خروج على النظام وإخلال بالتوازن . وهو مما تعظم قلن يصل من الإخلال بالتوازن إلى شيء في أمر العالم العظيم . لهذا لا محل للتساؤل عن سبب عدم مداخلته الموجود الأعلى لمنع هذا الشر ولكبح جماح الفساد . ولهذا كان الإنسان أكثر اختياراً وأثقل مسئولية .

اختيار الخير أساس السعادة . أما الشر فلا بلد إلا يؤسأ وتعضأ . وأحزاننا ومخاوفنا وآلامنا إنما تصيبنا من عند أنفسنا . والشر الخلقى هو قطعاً من عملنا كما أن الشر الجسمى لن يكون شيئاً لولا فسادنا الذى يجعلنا نحس هذا الشر ونشعر به . ألا ترى إلى الطبيعة كيف جعلتنا نحس بحاجتنا حتى يظل وجودنا . ألا ترى أن الألم المادى إنما هو آية ارتباك جسمنا والنذير لانقضاء هذا الارتباك . أما الموت فهو الدواء لما توقعك فيه أعمالك من الشرور . ذلك بأن الطبيعة أرادت ألا يمتد بك الألم إلى الأبد .

وما أقل ما يلقاه الرجل الذى يعيش عيش البساطة الفطرية من مواضع الألم ، فهو يعيش من غير مرض ومن غير شهوة وهو لا يتوقع الموت ولا يحس به . فإذا هو أحسه كان فيه رغباً بقدر حبه فى الخلاص من شقوته وآلامه ، وكان لذلك لا يرى فيه شراً ، ولو أنك خلصت الناس من هذا التقدم المزعم وما جره عليهم من شرور وخطايا ثم لو أنك رجعت بهم إلى عيش الطبيعة ووحيا إذن لأنجيتهم من الشر ومن العذاب ومن خوف الموت .

واختيار الخير من عمل الروح والارتكاس فى الشر من ترواوت شهوات الجسد ، وما ننزل إليه من درك الشر طوعاً بحكم الشهوة وخروجاً على أمر الروح هو الذى يسرع بجسدنا إلى الفناء وهو الذى يجعلنا نشعر بألم الموت . وأولئك المتعمون الذين يظلمون الناس ويضربون بالفضيلة عرض الأفق ويزعمون النعم على هذه الأرض هم الذين يقاسون هذا الألم أكثر من سواهم ، ذلك عند الخير البصير .

يوم تفترق الروح عن الجسد يرجع إليها كامل نشاطها ، فتبدأ بالتكفير عما سبق لها من ضعف فى قياد الجسد ومن خمول فى تغليب الخير على الشر . يومئذ ترى الروح التى كانت مثقلة الجناح إبان عيش الجسد تحيا حياة طيبة عاد هلاكه .

هل الروح خالدة بطبيعتها ؟ ذلك ما أجهله . فإن عقل المحدود لا يسع شيئاً غير محدود . وكل ما لا نهاية له يعزب عني . . وإنما أحسب أن الروح تبقى بعد الجسد أمداً يكفل حسن النظام . وليس من بدري إذا كان الأمد يمتد إلى الخلود ، ولكننى إذا قدرت على تصور كيفية هلاك الجسد وفنائه بتشتت أجزائه فلست أستطيع تصور هلاك كهذا للموجود المفكر . وما دمت لا أستطيع تصور كيفية هلاكه فأحسبه لا يهلك ، وما دام فى هذا الظن لى عزاء وليس فيه ما يتنافى مع العقل فلست أدري ما الذى أخشاه إذا أنا أخذت به . .

.. إذن فالروح خالدة إن كان الدليل على وجودها مجرد إحساس روسو أن ليس لديه على هلاكها من دليل .

هذه الروح الخالدة تحيا حياة طيبة بعد هلاك الجسد ، وهى تحيا سعيدة أو شقية بما قام به صاحبها إبان حياة الجسد من خير أو شر . ذلك بأنها وقد جاورت الكائن الأسمى وخلصت من هموم الحياة الدنيا ترجع إلى نفسها تحاسبها عما قدمت ثم تقيسه إلى الحقيقة الخالدة البادية أمامها والتى كانت هى مثلاً لها على الأرض . . . وليس يعلم قسيس السافوا إن كان ثمة جزاء للروح غير السعادة أو الشقاء فى جوار الله . وهو لا يعلم كذلك إذا كان شقاء الأرواح التعسة خالداً . وهو تكفير ينتهى بالغفران . ولكنه يشعر بأن السعادة فى جوار الله خير نعمة تجعل العيش على هذه الأرض لذة تدفع إلى معالجة الفضيلة ومجاهدة الشر فى أثناء الحياة . . . وكيف لا يكون ذلك لذيداً . وهل لذة فى الحياة إلا لذة المجهود الشاق ينتهى بنعمة السعادة الخالدة .

جزء الروح نتيجة أعمالنا فى الحياة الدنيا . فإذا كانت روحنا قوية فأسمعنا صوتها وأخذنا به ظلت سعيدة . وإن كانت ضعيفة فخضعت لحكم الجسد وأخضعتنا له كانت شقية . . . ذلك بأن الضمير صوت الروح والشهوات صوت الجسد . فهل عجب أن يغلب على هذين الصوتين التناقض . وإذن فلأى نستمع ؟ ما أكثر ما يضلنا العقل حتى لقد صار من حقنا الثابت أن نرد حكمه . أما الضمير فلن يضلنا . هو مرشد الإنسان الحق وهو للروح يمكن الفطرة من الجسد ، فمن اتبعه أطاع الطبيعة ولم يخش ضلالاً .

الضمير صوت الروح ، والروح من أمر الله ، والله لا يريد إلا الخير ،

فالروح لا تعمل إلا للخير . والروح هي أساس وجودنا وهي القوة التي تبعث الحياة في الجسد الكثيف . إذن فالخير في أساس وجودنا . وإذن فالإنسان طيب بطبعه .

الإنسان طيب بطبعه . ما أعز هذه الصيغة على رُسو . لقد رأيناها في خطاب عدم المساواة ورأيناها في كل ما كتب بعد ذلك . وما نحن أولاء اليوم نراه يدلل عليها تدليلاً تجريبياً بعد ما دلل عليها تدليلاً تاريخياً .

وتدليله التجريدي في أبسط صورة هو على ما رأيت أن الله خلق الإنسان على صورته . والله طيب بطبعه . فالإنسان طيب بطبعه . وليس في مظاهر الحياة إلا ما يؤيد أن الشر ليس إلا خبيثاً يغطي الأصل الطيب إلى حد إخفائه أحياناً ، ولكن من غير أن يحل محله أبداً . وهل رأيت نفساً مهما بلغ من قسوتها إلا متاهبة لعمل الخير عند سنوح الفرصة . وهل رأيت يوماً وقد أفدت لنفسك بشر جنيته على غيرك إلا حز الندم في قلبك ، فإذا أفدت غيرك خيراً تريد إفادته إياه ورأيتك سعيداً أكبر السعادة . . . وهلا ترانا جميعاً نفرح للخير ونجزع للشر ونظهر بالخير ونناري من جنى النكر « شأنا في ذلك شأن الناس جميعاً . الق بنظرك على كل أمم الأرض وراجع كل التواريخ تر أفكار العدالة والأمانة كما ترى مبادئ الأخلاق وصور الخير والشر هي هي بعينها فيها جميعاً : ذلك بأن مبدأ العدالة والفضيلة أصيل في أعماق النفوس ، ونحن على الرغم من قواعدنا نقيس على مقتضاه أعمالنا وأعمال سوانا وعلى مقتضاه نفرق بين الطيب منها والخبيث ، وهذا المبدأ هو ما أسميه أنا الضمير » . .

هنا يشعر رُسو بالاعتراض يوجه إليه من كل جانب . فهو يرى ، أو بالأحرى يشعر ، بأن الضمير هو فكرة الخير القائمة بالنفس الإنسانية من حين خلقها . ويرى لذلك أن الخير والشر والحق والباطل والطيب والخبيث صور وأفكار ثابتة لا يعمل فيها زمان ولا مكان . أما غيره فيقول إن الضمير الفردي ليس إلا صورة وجدان المجموع منطبعة في نفس الفرد . ولما كانت آي إيمان المجموع أفكاراً نسبية هي الأخرى لأنها ليست إلا التعبير عن أحسن الظروف التي يمكن للمجموع أن يعيش فيها فممكن بل حاصل أن آي الإيمان تختلف من جيل لجيل ومن أمة لأمة . ألست ترى أن النهب والسلب كانا مجداً في زمن من الأزمان وعلماً على

الفروسية ثم أصبحا من بعد ذلك جريمة تجزى بأشد العقاب . وقد بلغ احترام الملك الخاص مبلغ العقيدة العامة في الماضي القريب ، وما هو ذا اليوم موضع الطعن والنضال من كل جانب . صحيح أن القواعد الأساسية لحياة الجماعات لم تتغير تغيراً جوهرياً فيما نعلم . وأن الفطرة الحاكمة فطرة الاحتفاظ بالوجود لا تزال توجهنا سبيلاً وتوحى إلينا بطرق سلوكنا . لكن هذه الفطرة ليست من أمر الروح . وهي ليست إلا ملاءمة الجزء للكل الذي يشمل ملاءمة مادية أولاً . وهذه الملاءمة تتغير صورها بتصور وجود الكل . وهذه الملاءمة هي التي تشكل الضمير الفردي على مقتضياتها .

على أن رُسو لم يقف أمام هذه الاعتراضات ولم يرد عليها بأكثر من أنها لا تتفق مع حسه وشعوره ، وبأنه ليس محالاً أن تترتب أعمالنا على مقتضى ضميرنا وإدراكنا . ثم قضى عليها قضاء أخيراً بهذه الصيغة الخطائية الشعرية البديعة : « إيه أيها الضمير . إيه أيتها الفطرة الإلهية والصوت السماوي الخالد ، إيه أيها القائد المسكين لمخلوق جاهل قصير مدى النظر حر بصير . إيه أيها الحكم الفارق بين الخير والشر . إيه يا من تجعل الإنسان شبيهاً بالله . أنت الأساس لطبعه الطيب ولتأديب أعماله . ولست أرى شيئاً غيرك يرفعني فوق البهائم إلا ما امتاز به من الضرب في الضلال مستعيناً بذهن لا نظام له ويعقل ليس له من أساس » . لكنه يشعر باعتراض آخر يحسبه ذا خطر . إذا كان الضمير هو صوت الروح والمرشد للخير فلم استعبدت الروح للجسد استعباداً يجعلها في نضال مستمر معه . وبعبارة أخرى لم كان للشر مثل ما للخير على الأرض من سلطان . إن القطع في أمر الاعتراض لا يكون إلا لمن دخل في علم الله . أما علمنا فيرشدنا إلى أن الشر إنما وجد على الأرض ليكون الخير ولتكون الفضيلة وليكون لثوبتهما بالسعادة الخالدة في الدار الآخرة موضع .

ولا سبيل للاستماع لصوت الضمير ووحى الروح إلا بالخلوص من حكم المادة . ولن يكون خلاص إلا بالعودة للحال الطبيعية ، فإن المدنية وأديالها من ترف ونعيم ومن علوم وفنون ومن فلسفة وتفكير لا شأن لها إلا أن تغشى على الضمير وتحجب وحي الروح وتريد في حكم المادة وتقعّد بالنفس عن الاتصال بملكوت الله . فإذا نحن نجونا من حكم المادة اتسع نطاق العالم أماناً وامتدت إلى اللانهاية آفاق

وما أدراك أن الله قاله . . . إنه قسيس وهو به علم .
عجب أن تكون تلك لهجة المؤمن روسو ، وهو هذا العجب الذي يدعونا
لتفصل هنا بعض الشيء رأيه في أمر الوحي والنبوة من غير أن تعرض له بتقد
أو إقرار ولأن نكث من ترجمة نصوصه التي أضاعت في هذا الباب إلى الصيغة
الخطابية التي يمتاز بها أسلوب روسو صيغة تهكمية قد كان فولتير الملحد الساخر
أخرى بها وأجدر .

وإنما دعا روسو هذه اللهجة القاسية ما رآه وهو نصير حرية العقل والفكر
من ضرورة مهاجمة سلطان الكنيسة المستبد مهاجمة عنيفة . ولما كان سلطان
الكنيسة قائماً على الاستئثار بكلمة المسيح واحتكار تفسيرها واعتبار التفسير
جزأ منها وردّها جميعاً إلى الله فلم يكن النقد البسيط كافياً لتزعزعة ثيار مستبد زاده مر
القرن ثباتاً وقوة . صحح أن قيام البروتستانتية في القرن الخامس عشر وانتشارها
بعد ذلك هد من ركن الكثرة في بلاد شتى . لكن البروتستانتية كانت مذمهاً تعديداً
كالكتلة وكل ما فيها أنها جعلت للشروح والتفسير الكنائسية مكاناً ثانوياً إلى
جانب الكتاب المقدس . فهي بذلك لم تكن إلا ثورة جزئية على النظام القائم .
وهي بذلك لم تزد على أن أضافت فرقة جديدة من الفرق المتدنية المتعصبة لمذهبها
المستعدة لأن تريق في تعزيزه ونشرو الدماء وتضحي بالهيج والأرواح . وليس هذا
ما يريده روسو التسامح علو التعصب والجمود ، فلم يكن بد من قيامه في وجه
ما اعتقله أساس التعصب ، وأساس التعصب هو الانحياز الأعلى لشخص
ورفعه عن مستوى البشر وتقديسه ثم تأليه .

« ولولا بناء الدين على الوحي لما كان شيء من هذا التعصب والجمود .
فلننظر الآن لهذا الوحي أساس المجازر والقطائع وإن يك عند أهله مهبط الهدى

والحق .

« ماذا عندك يا رسول الحق مما لا حكم لعقل عليه ؟ لقد تكلم الله فاستمع
لوجه ! ذلك شأن آخر ، لقد تكلم الله ، هذا أمر جلال ، ولن تكلم ؟ لقد كلم
الناس . لم إذن لم أسمع أنا شيئاً ؟ لقد أتى على رجال آخرين ليبلغوك كلمته . . .
الآن أرى ، هم إذن رجال يلقون إلى بما قاله الله ، إلا أنه أحب إلى أن أسمع الله
بنفسى . وما كان ذلك ليشر عليه ، وكنت أنا في حوز من الضلال . لقد حفظك

« فوجدنا في هذه السعة مسرة للنفس وسبيلا للسعادة .

« لا أتفق قدر استطاع إلى تلك الحال من السعادة والقوة والحرية جعلت
نفسى على التأملات العليا . فأملت نظام العالم لا بغية تفسيره بعث من
« بل لدوام الإعجاب به وإجلالاً للمخالف الحكيم الذي تظهر آثاره من خلاله .
« حتى استغرقت كل قوى فيه وحتى ذقت فضله وباركتني روحه القدسة
« لم أصل له ولم أرحبه شيئاً . ولأى شيء أطلب إليه . . . أطلب إليه أن يغير
« الأشياء من أجل أن يحدث المعجزات لمصلحتي . وهل كنت وأنا أعنى
« المدام التي أقامته حكمته وأمسكته قدرته لأريد أن يضطرب هذا النظام لقائدي ؟
« فإن هذه الرغبة الخرقاء أجدر بأن تجزى منها بأن نجاب . ولست أطلب
« إلا أن يقدرنى على عمل الخير فما كان لي أن أطلب إليه ما سبق أن أعطاه لي . »

لاحظ القارئ من غير شك أن قسيس السافو وهو رجل من رجال الدين
لم يأت إلى كل ما قدم من تعاليمه إلا لوجي الضمير وهدى البصيرة . وهذا ما لاحظته
« معادله في كتاب روسو ، فسأله رأيه في الوحي والنبوة والرسالة ، فما لبث أن
« اطلعنا انطلاقة الأولى حين مجد الله ورآه في كل أعماله . لكنه انطلق هنا بنفى
« الوحي والنبوة والرسالة بمثل تلك القوة والشدة ، وهو لم يكتف بغيتها بل جعلها
« أساساً لعدم التسامح بين الناس ولا جر إليه عدم التسامح من حروب أريقت فيها
« دماء وأزهقت فيها أرواح وما لا يزال يجر إليه من فتور علاقات الأخوة الإنسانية
« الواجب أن تكون .

قال : « يزعمون وجوب الوحي لتعليم الناس طريق عبادة الله ، ويقدمون
« على زعمهم اختلاف الأديان العجيبة التي أقاموها ، ولا يرون أن هذا الاختلاف
« من أبى أدواق أصحاب الوحي ، فمن يوم أراد الناس بالله أن يتكلم استنطقه
« « هم على طريقته وجعله يقول ما يريد هو قوله ، ولو أنهم لم يستمعوا إلا لما
« « فلوهم من قوله لما كان على الأرض إلا دين واحد . »

هذا الدين الواحد هو الدين الطبيعي الذي عرضه القسيس في سابق تعاليمه .
« « فإن الوحي فكيرة ومتعددة ويدعى كل منها أنه دين الهدى والحق . فإذا
« صحابه كيف عرقم أن دينكم دين الهدى والحق أجابوك . كذلك قال الله .

منه بما ثبت به رسالة أنبيائه . وبم ثبوتها ؟ بالمعجزات . وأين هاته المعجزات ؟ في الكتب . ومن وضع هذه الكتب ؟ رجال . ومن رأى هذه المعجزات ؟ رجال شهدوا بها عجباً . شهادات رجال دائماً ، رجال يقولون إلى ما نقله إليهم رجال غيرهم ، ما أكثر الرجال بيني وبين الله ، فلننظر على كل حال ولنبحث ولنحقق ولنقارن ، أو لو أعفاني الله من كل هذه المشقة كنت ترائي أقل إخلاصاً في خدمته .

« لنفرض أن العظمة الإلهية رضيت أن تنحط فتجعل إنساناً واسطة إرادتها المقدسة ، أتري من العقل والعدل أن يفرض على الجنس البشري كله طاعة هذا الرسول ما لم يبين الله للناس أنه رسوله ، وهل من الحق أن يكون كل ما لديه من دلائل الإقناع بعض مظاهر خاصة يقوم الرسول بها أمام قمر من الناس لا قيمة لهم ، ثم لا يعلم سائر الناس عن هذه المظاهر شيئاً إلا بالتناقل والإشاعة ، ولو أنك صدقت من المعجزات ما يقول الشعب والبسطاء من كل أمة إنهم رأوه لكأن كل طائفة هي طائفة الهدى ولكأن المعجزات أكثر من الظواهر الطبيعية عدداً ثم لكأن كبرى المعجزات انعدام المعجزات حيث يكثر المتعصبون الذين يلقون العنت في دينهم ، تلك سنة الطبيعة لا تبدل فيها وهي تدل على حكمة اليد المدبرة للطبيعة ، فلو أن المستنثبات كثرت لفضل في التفكير فيها ، وإن إيماني بالله لأجل من أن أصدق هذا الجرم من معجزات لا تليق بحكمته ولا بكرامته . »

ولو أن الرسول الذي يزعم أنه من عند الله بذلك سنته فأطلع الشمس من المغرب وأخلف نظام الفلك ودك الجبال وغير معالم الأرض لصدقاته أن أتى في الكون بما لا طاقة لغير مبدع الكون به . أما سخریات السحر فلا معجزة فيها ، أو ما أتى سحرة فرعون عصيهم كما أتى موسى عصاه فانقلبت حيات كلها ؟ وهل كان السحرة رسلاً صغاراً أو كان موسى ساحراً كبيراً . وإذا عجزت المعجزة عن إثبات الرسالة فكيف تثبت الرسالة المعجزة ، أم تكون بذلك في حال من التداول لا تدل على شيء .

« يجب أن تؤسم الرسالة الآتية من عند الله بسيما الألوهية . فليس يكفي أن تستنير بها الأفكار المضطربة التي يلهمها التفكير لأذهاننا . بل يجب أن تعرض علينا عبادة وأدباً وقواعد جديدة لما تنصوهر من صفات الله . فإذا هي لم ترشدنا

إلا للأشياء السخيفة غير المعقولة ولم تلهمنا إلا عواطف البغضاء لأمثالنا والجزع من أنفسنا ولم تصور لنا إلا إلها مغضباً غيوراً منتقماً محايياً كارهياً للناس إله حرب وضرب . دائم الاستعداد لأن يهلك ويصنع . لا ينفك يقص أمور العذاب والعقاب ويفخر حتى بمعاينة الأبرياء » إذن لما مار قلبي إلى هذا الإله الفظيع ولحرصت على الديانة الطبيعية لا أتركها لاعتناق ذلك لدين ما دام لا محيص من الاختيار .

وهذه الرسائل كلها تزعم أنها على الحق وأن غيرها على الباطل . وتذهب إلى رمي من لم يعتنقها بالكفر وتهديده بعذاب الآخرة الغليظ . هذا على أنك لن تستطيع أن ترد إلى دينه رجلاً ولد في دين من الأديان فاختلطت عقائده بلحمه ودمه ثم ظل في سذاجة ولم يجد من الوقت ومن العرفان ما يمكنه من بحث ألوف المجلدات التي كتبت في الديانات المختلفة ليرى أصلحها . ولو أنه بلغ من العرفان هذا المبلغ لما كفت حياته كلها للوصول إلى هذه النتيجة . أفترك الناس طراً أعمالهم وواجبات حياتهم للقيام بهذا البحث العقيم جرياً وراء ما يسمونه سلام أرواحهم وإن هم فعلوا ذلك أترأهم يصلون إلى شيء من هذا السلام ؟ أم تختلط أمام أفهامهم ألوف الصور المضطربة التي وضعها الروحيون والمتكلمون والفلاسفة والشعراء فيزدادون ضلالاً وينتهي بهم الأمر إلى الجنون .

وما قولك فيمن لم تصل لهم الرسالة ؟ أهم يجرون بعدم علمهم ؟ إن ألوقاً من ملايين البشر يدينون بغير المسيحية وبغير اليهودية وبغير المحمدية ، فهل أرواح هؤلاء جميعاً آوية حتماً إلى سقر . وهاته الأديان الثلاثة ؛ أيها على الحق . وما ذنب من ولد مسلماً بإسلامه وما ذنب من ولد يهودياً بيهوديته ؟ !

على أن الإنجيل يخاطب قلب قيس السافوا ولا يستطيع له رداً ولو كانت حياة سقراط وموته لحكيم فإن حياة يسوع وموته لإله .

« هذا هو التشكك الذي بقيت فيه على غير إرادتي . لكنه تشكك غير أليم لأنه لا يشتمل خطير مسائل الحياة العملية ، ولأن ثابت اليقين في المبادئ المتعلقة بكل واجباتي . فأنا أعبد الله بقلب ساذج ولا أبحث عن علم مالا يقتضيه سلوكي . »

تلك تعاليم قيس السافوا وتلك أسس الديانة الطبيعية . وقد أحدثت رجة

عند نشرها انتهت بالقبض على روسو كما سبقت بنا الإشارة وقد
في فصل مقبل . وهذا الدين هو في نظر العلماء الواقعيين (الوضعيين)
العقل التجريدي ومظهر احتضار الإيمان القلبي . ذلك بأنك متى أنكروا
ورجعت إلى حكم العقل ورددت إلى الفرد حرية التفكير كنت قد أنكروا
فرد أن يبحث ويحكم مادام على البحث والحكم قديراً ، ولن نضم
نظر الباحثين والعلماء مع نظر قسيس السافوا . أو لم ير قسيس السافوا
فلاسفة عصره كانوا على خلاف في الرأي معه . أو لم ير من بينهم الملحد
والمادى . فأى ضمان له في إيمان الجميع بالدين الطبيعي الذي يدين
هو مادام قد أطلق العقل من عقال الوهم ورفع عنه سلطان الكنيسة فقد
له الحرية الطبيعية الكاملة . وما دام حراً فلن تكون شعريات قسيس السافوا
مدى نظره . بل سيخلف قسيس السافوا أوجست كومت ودارون وهربرت
وبرجسن وغيرهم من العلماء والفلاسفة والمفكرين . وسينادى لذاتك بالإلحاد
المطلق وبالنفي ، وسيكون ذلك كله مظهر حرية الفكر التي دعا إليها روسو
وستكون هذه الدعوة لذلك سبباً لمطاردة الكنيسة إياه بقية حياته .

إلى هنا عرف أميل الوجود وما فيه . وعرفه بعد ما تكونت ملكاته تكويناً
يمكنه من الحكم عليه ، وإلى هنا انتهى دور الطفولة والتربية ، فهل لم يحن الوقت
بعد ليتبركه أستاذه لنفسه حراً ويعمل حراً ويعيش حراً .
ذلك رأى الأكثرين من علماء التربية ، ولكن حذار من اتباعه ، إن الشاب
في هذه السن أحوج ما يكون للمرشد المخلص الصديق ، وإذا كان عقله قد بلغ
حد القدرة على حكم الأشياء فإن شهواته الناشئة قد تضل حكمه وتفسد تربيته
وتدفع به في أسوأ السبل ، في هذه السن تنفتح يتابع الحياة الجنسية إلى حد قد
تجرف معه حياة الشاب ثم تذره خاوياً . وفي هذه السن يفتح القلب للحب ، فما لم
يكن له من أستاذه مرشد يهديه السبل وسط هذه المخاطر زلت به القدم وسط
الجماعات وبين الشباب الذي يقدم له المثل السيئ باندفاعه في تيار الشهوات
وإمعانه في تحصيل كل ما يستطيع منها .
على أن الذين يميلون للنصح إلى الشباب في هذه السن يرتكبون شئاً

ويدفعون الشباب عن غير قصد إلى حماة اللهو واللذائذ . وأول ما يرتكبونه من
ذلك أنهم يلقون على الشباب من أعر منابريهم قواعد السلوك وكأنما نسوا أن ما يلقى
من أعلى المنابر لا يترك من الأثر . بمقدار ما يسمح لأول ظرف ولأول فرصة
تصادمه بنسيانه ومؤاناة ما يناقضه . لأن هؤلاء الخطباء يكتفون بإلقاء الفكرة
وتعريضها بحججهم اللفظية ، أما ظروف الغواية فتجر وراءها جنوداً من الآيات
التي تغريها وتؤيدها . وتجرح وراءها اللذائذ والشهوات والمثل الفاسد لابساً كلها براق
ثوب الجمال والظرف والنعمة والمسرة ، أفترى تلك الحجج إلا متطائرة أمام هذه
الدلائل الرقيقة ، وهلا تكتفى النظرة الضاحكة والابتسامة البديعة والثغر الحلو ولفظه
العذب لتنسى الشاب أبلغ الخطب وأطولها .

لذلك يرى روسو وجوب بقاء الأستاذ مع تلميذه وجوب ملازمته إياه في هذه
السن ملازمة وثيقة . على أنه ينقله هنا من مركز الأستاذية إلى مركز الصداقة
ويجعله مع تلميذه بحيث يتباحثان ويتناقشان في كل أمر من الأمور ، وهذه
الصداقة وتلك الملازمة تضمن ابتعاد الشاب عن الأوساط السيئة وما تقدمه من مثل
فاسد كما تضمن أن يظل على خلاق حسن .

كذلك من أغلاط الذين يريدون توجيه الشباب توجيهاً حكيماً يحميهم من زلق
الشهوة أن يبغضوا إليه الحب وأن يجعلوا مجرد التفكير فيه في تلك السن جريمة
حتى لكأنما كان الحب للعجائز ، « وهذه التعاليم المضلة التي يكذبها القلب
لا تنفع أبداً . وترى الشاب تقوده فطرته الأمانة ليضحك سراً من هذه التعاليم
النعسة وإن أبدى الموافقة عليها وينتظر الفرصة التي يعمل فيها على نقبضها ، وهم
في ذلك إنما يواجهون الطبيعة . أما أنا فأسلك سبيلاً يضاد سبلهم ثم أصل حتماً
إلى الغاية التي يريدون بلوغها . فلست أخشى أن أملق فيه العاطفة الرقيقة التي تملأ
جوانحه وإنما أرسنها له كأبدع ما في الحياة من صور السعادة لأنها هي كذلك
القلوب لذة الحسن كنت قد كرهت إليه الفجور وجعلته حكيماً أن جعلته
محجاً .

« وإنما أقول للشباب : إن قلبك يحتاج إلى رقيقة فهل تبحث عن موافقه ،
وقد لا يكون وجودها بالأمر اليسير ، فإن الفضل الصحيح نادر لكننا لن نتعجل

ولن نبأس ، فليس من شك في وجود من توافق قلبك وسنجدها آخر الأمر أو نجد من تقرب منها .

ويصف روسو لأميل من يحسبها أوفق من تصلح له ويدعوها صوفيا ويسعى وإياه للبحث عنها ، وفي خلال هذا البحث يذهب روسو بتلميذه إلى المجتمعات غير خاش عليه سوء أثرها أن صار بمنزلة تمكنه من الحكم عليها من غير اندماج فيها ، كما أنه وهو في بدء الصبا يستطيع أن يعرف أخلاق أهلها ووسائل الأخذ والرد معهم وسبل التصرف فيما يعرض أمامه من أمورهم . ولو أنه غشى هذه المجتمعات صغيراً لتكونت في نفسه عادات قد لا يكون هيناً عليه أن يتخلص بعد ذلك منها . وإنما خطر هذه المجتمعات ما تزينه للشهوات من خادع المظاهر ، لكن إشراف الأستاذ على تلميذه حصن بقيه هذا الخطر وضمان لبقاء سلطان العقل حاكماً كل سلطان سواه . وسلطان العقل يدعو الشباب في هذه السن للملاحظة الناس ملاحظة دقيقة ، وليس أفتق للذهن ولا أدعى لدقة الملاحظة من الصالونات الجامعة .

« فإذا درس الناس وأخلاقهم في المجتمع كما درسهم ودرس شهواتهم من قبل في بطون التاريخ كانت أمامه مواضع للنظر فيما يستهوى القلب الإنساني وفيما يصده ، وتلك فلسفة مبادئ الذوق ، وهي ألبق الفلسفات به في هذا الوقت من حياته .

« وتجارة ما بين الجنسين هي التي تجعل الذوق الحسن أو القبيح يتشكل بصورة خاصة . ذلك بأن الذوق نتيجة لازمة للغاية التي ترمى هاته الجماعات لها ، لكن الذوق يفسد إذا تسرت اللذة فابتذل الدلال ، وعندئذ أن هذا سبب من الأسباب الواضحة التي تبين لنا تعلق الذوق الحسن بالأخلاق الطيبة .

« وإنما يستشار النساء في الأمور المادية التي يستطيع الحس الحكم عليها كذلك فإنما يستشار الرجال في الأمور الأخلاقية المتعلقة بالعقل . ولو أن النساء كن ما يجب أن يكنَّ لاقتصرن من الأمور على ما كان من خصائصهن ثم لصح عندئذ حكمهن ، أما من يوم أقمن أنفسهن حكماً في الأدب وأبحن لأنفسهن تقدير الكتب وأكثرن من تأليفها فقد فقدن كل علم وكل معرفة . وليكن المؤلفون الذين يستشرون النساء العالمات في أمر كتبهم على ثقة من سوء المشورة . وليكن الظرفاء الذين يستشرونهن في أمر زيهن على ثقة من سوء هتداهم . »

هذه المساء الصغيرة التي وجهها روسو للنساء ليست إلا مقدمة لما سيكتبه في القسم الأخير من كتاب التربية عنهن وليست إلا أثراً من اقتناعه السابق الذي عرضناه عند الكلام عن خطاب المناظر .

وسيرى القارئ فيما بعد أن صوفيا ستكون خلواً من كل ثوب للإدعاء لأنها ستكون صورة منمقة مجملة لتريز لفاسير .

• • •

ذهب روسو بتلميذه إلى باريس وظاف وإياه في الصالونات ودرس وإياه أخلاق النساء والرجال وكل ههما من ذلك البحث عن صوفيا ، وقد استغرق ذلك زمناً كافياً للملاحظة الشاب ما لم يسبق إلى ملاحظته من أخلاق أهل زمانه وعوائدهم ، وهو لم يقابل صوفيا كل هذه الأثناء لأنها كما كان الأستاذ يعلم لم تكن مقيمة في باريس وإنما أراد روسو أن يعرض صور المدينة على تلميذه المطواع ، وما ندرى كيف ضمن هذا الأستاذ ألا يتعلق قلب أميل بباريسية تقابله في المجتمعات والصالونات قبل الوقت الذي حدده وقرره لمغادرة باريس إلى حيث تقيم صوفيا ، فإذا تعلق قلبه بباريسية رقيقة فما هي الوسيلة لخلاصه ، وهل يضمن روسو إذا هو انتزع من ملاكه ليقتذف به على الملاك الذي أعده له ألا يتقلب ما يريده من سعادته شقوة وتعباً .

لكن أميل ليس إلا رواية التربية ، وأشخاص الرواية هم من خلق خيال المؤلف ، ولخيال المؤلف أن يصرفهم على ما يشاء .

لذلك كره أميل باريس وعظمتها وضجتها وأخلاق نسائها ورجالها وذهب إلى الريف وقابل صوفيا وكان من حظهما أن تعلق قلبه بها كما تعلق به قلبها وأن أعانت الظروف على تيسير خطبة الفتاة له . ولما اتصل الحب بينهما لم ير روسو أن الوقت قد حان لزواجهما ولم ير أن دوره كمرب قد انتهى ، بل أخذ فتاه فطاف به بلاد العالم ستين تبعاً تعلم الفتي في أثنائهما لغتين أو ثلاثاً من اللغات الحية وجاس فيهما خلال الممالك المختلفة دارساً طباع أهلها واطلع فيهما على النظم لحكومية لمختلف الدول ، وظل خيالهما يكتب صوفيا وتكاتبه : وما أكثر ما يصرم البعد من لاعج المحبة والشوق وما أشد ما تفعل المكاتب في نفيس المغرمين . هذه ملاحظة نقر عليها روسو ، فليس يبدو من محبوبك وهو بعيد عنك

إلا حبه ولا يحمل كتاباته إلا أظهر ما في نفسه وأحلاه . فإذا جدد بك الشوق له فأنجديت . . . ما عليك دمة على القرطاس الذي يحمل إليه مله شوقك وحار زفرائك رأيت . . . لك حلت في نفسه كما حلت في نفسك روحه فكنت إليه أكثر شوقاً وكان همك أكثر هياماً ووجداً . وكذلك تريد الفرقة الحب ضرماً وتربط القلبين برابطة المحن والغرام .

قال روسو : « ليست فكرة خلق الحب في نفس أميل قبل سياحاته من مبتدعائي . . . إليك الحادث الذي ألهمني إياها .

« كنت في البندقية أزور مربي شاب من الإنجليز . وكنا حول المدفأة اتقاء برد الشتاء . وقد تناول المربي خطاباته من البريد وقرأها ثم تلا واحداً منها على تلميذه ، وإذا كان بالإنجليزية فلم أفهم منه شيئاً ، لكنني رأيت الفن في أثناء القراءة يمزق أكماس قميصه الجميلة ويرمي بها في النار واحداً بعد الآخر ، وقد قام بهذا العمل بكل سكون جاهداً ألا يأخذ أحد منه باله ، فدفعني عجب هذه الفعلة أن أحلق به ، فخلته متأثراً ، فانتظرت بالأستاذ حتى أتم تلاوته ، ثم أشرت إلى معصم تلميذه العاري وقلت : أفيمكن أن أعرف معنى هذا ؟

« فلما رأى الأستاذ ما حدث ضحك ثم قبل تلميذه قبلة الرضا وشرح لي ما أردت بعد أن حصل على موافقة الشاب . قال :

« إن الأكماس التي مزقها المسيو جون إنما أهدته إياها من زمن قريب إحدى سيدات هذه المدينة . وقد تعلم أن خطبة المسيو جون عقدت في بلده على فتاة يحبها ، وهي بهذا الحب وبأكثر منه جدية ، والخطاب الذي تلاوته هو من أم الفتاة . وسأترجم لك الموضوع الذي أدت تلاوته إلى ما رأيت من إتلاف : « إن لوسي لا تترك أكماس لورد جون . وقد جاءت بالأمس مس بتي بولدهام وأمضت ساعة العصر معها وأرادت بكل ما فيها من قوة أن تعمل فيما تعمل لوسي فيه . ولا عرفت أن لوسي قامت مبكرة هذا الصباح فوق عاداتها أردت أن أرى ما تصنع فوجدتها مشغولة بنقص ما صنعت مس بتي بالأمس . ذلك يأتيها لا تريد أن يكون في هديتها غرزة واحدة من يد غير يدها » .

وإنني وإن وفقت روسو على هذه الملاحظة إلا أنني لست في الحق أدري إذا كان هذا الحب المثلث بنار الفراق هو الحب الواجب لسعادة الزواج .

فقد ذكر روسو في الهلويز أن الحب ليس عماد السعادة في الزواج . كذلك فإن الفرقة والتخاطب يوحيان إلى كل من المحبين بسا عبيد صاحبه من حسن . فإذا رأى كل صاحبه بعد ذلك ورأى الحسن تخالطه صدت له تكن يادية كان ثمت خطر الانقلاب . وما أنعس محبين استحلال حبه في نقبضه . فلا يحسن إذن أن يكون التعارف بينهما تاماً وأن يطلع كل على كل صور نفس صاحبه وحالاته حتى يكونا فيما بعد بئام من كل طارئ .

كنت مسافراً من لوسرن بسويسرا إلى إيطاليا ، وكان معي في ديوان سكة الحديد شاب وفتاة في مقتبل العمر . وقد تحدثنا وسألت الشاب عما إذا كان هو وعروسه يقضيان شهر العسل . فابتسم وقال إن من عاداتهم في أمريكا أن يذهب الشاب ومخطوبته في سياحة طويلة قبل الزواج ثم يبتان بعده في الأمر . وهم يسون هذه السياحة سياحة التجربة . لأن السفر خير ما يدل على أخلاق الشخص وخير ما ينبئ عن ميوله . فإذا اتفق الخطيبان بعد سياحتهما اقترنا معاً وضمننا زواجاً سعيداً تزيد ذكرى تلك السياحة الطويلة سعادة بما تبعته إلى نفسيهما من صور وخيالات وأحلام وتأثرات مشتركة . وإلا انبثت الخطبة على خير ما يكون الوتام . وقد قصصت هذه الحكاية على بعض من عرفت من الفرنسيين في باريس . فوافق على الفكرة وذكر أن سياحة شهر العسل بعد عقد الزواج كثيراً ما تبين عن أخلاق غير محمودة عند أحد الزوجين ، وكثيراً ما تكون بدء النزاع في حياة الزوجية . ولست أدري إذا كان روسو قد وقف على هذه العادة الأمريكية ، ولكنني على يقين من أنه لو وقف عليها لما أقراها ، لا لتطرفها في الحرية ، بل لأنها تعطى المرأة حق الحكم على الرجل . وهذا ما لا يرضاه لجنس أول واجباته عنده طاعة الرجل والخضوع له . ولا انقضى الوقت الذي رآه روسو لازماً لسياحات أميل عاد به إلى صوفيا .

واقترن الشاب بالفتاة . ومع ذلك ظل الأستاذ على مترية منهما . « حتى إذا كان بعد أشهر دخل أميل إلى غرفتي وقال وهو يقبلني : هني فتاك يا أستاذ ، إنه بأمل التمتع بشرف الأبوة عما قريب ، ألا ما أكثر ما سيلقي على عاتقنا من صنوف العناية وما أشد احتياجنا إليك . وما أريد علم الله أن أدعك تقوم بترية الابن بعد ما قمت بترية أبيه . فما أريد أن يقوم غيري بهذا الواجب الحلو المقدس حتى لو أتيج لي أن أحسن الاختيار له بمقدار ما حسن الاختيار لي . لكن كن أنت

المتفاني في إخلاصه ، والبالغ من الفضيلة والطهارة أقصى الحدود ، حتى لبصر جهوده عشر سنوات بل عشرين سنة متوالية على تربية طفل واحد . وهل يستطيع هذا الأستاذ مهما بلغ من حذقه ومهارته أن يغير من طبع الطفل أو أن يحجب الموجودات عن أن تؤثر فيه على غير ما تؤثر في سواه وعلى غير ما تؤثر في الأستاذ نفسه . ألم تر أخوين شقيقين بل ألم تر توأمين أحياناً يسلكان في التربية والتعليم سبيلاً واحدة ثم تختلف نتيجة التربية عند أحدهما عن نتائجها عند الآخر . فكيف بك تنتظر النتيجة التي قدورها روسو لكل تلاميذ روسو مهما اختلف وراثتهم وطبائعهم وميولهم . كيف تنتج عند النبيه ما تنتج عند البليد وكيف تنتج عند العصبي ما تنتج عند اللمفاوى . ما هو هذا الامتياز السحري الذي يجعلها تسوى بين طبائع البشر وقد أبدعت الطبيعة بينها من صور الاختلاف والتفاوت ما يقصر العقل عن تصور مداه .

ما نشك كذلك في أن طريقة روسو تحوى شتى المتناقضات . فهو يزعم أنه يخلو بين الطفل والطبيعة مدى سنى التربية السلية . وقد رأينا أن ما يلجأ إليه من الوسائل الصناعية يجعل هذه التخلية وهما من الأوهام كما يجعل تربيته أبعد عن الطبيعة من كل تربية سواها . وما ندرى بعد ذلك سبباً لفضل وسيلته على غيرها من الوسائل المتبعة عند الطبقات الراقية في البلاد المتقدمة وبخاصة في إنجلترا ؟ ثم لا ندرى بعد ذلك ما الجديد فيما كتبه ولم يسبقه إليه مونتني أو الفيلسوف الإنجليزي لوك (١) إلا أن تكون صيغة الكتابة وتعاليم قسيس السافوا وإلا قلب بعض الأفكار قلباً روائياً مدهشاً .

قال فيلمن : « لن ينكر أحد على روسو بلاغته ودقة تحقيقاته عن الطفولة الأولى . لكنه كان أقل نجاحاً في كلامه عما بعد الطفولة . وهو برغم تكراره : انظر كيف يفوق تلميذى تلاميذكم - لا يبين للفارئ ما بين نتيجته والوسائل التي أدت إليها من صلة . صحيح أن ما يعود روسو عليه تلميذه من كثرة الرياضة بالغ في الحسن . لكننا لا نرى بعد ذلك كيف حصل التلميذ على ما يدعيه روسو له من صفات وأخلاق . والحق أن المؤلف ينقض الطرائق المتعارفة بأحسن مما يثبت

(١) راجع كتاب التربية لبسر وسر تقدم الإنجليز السكونيين لدمولان .

الإنسان الشبان . فانصح إلينا ووجهنا وسكون طوع بذلك . إننى سأبقى اليك ما عشت . وأنا اليوم أشد ما أكون لك احتياجاً أن ابتدأت أعمالاً . أما أنت . وقد قمت بما عليك . فأرسلنى لأسير على سنتك . واسترح الوقت الذى يحق لك فيه أن تستريح .

المبارة هي ختام كتاب التربية . وقد أثرتنا ألا نذكر من الكتاب الخامس . روسو لتربية الفتاة إلا ما خص أميل وستطرح أمام نظر القارئ . فلات على طريقة التربية التي اتبعها روسو مع فتاه ثم نعود إلى تربية .

نعمال سنوات من نشر أميل كتب أحد المهذبين إلى روسو يقول له إنه اتبع التربية مع تلميذ له فرد عليه روسو يقول : « لئن صح أنك أخذت بالاهتمام التي جاهدت لرسمها في أميل فما أشد إعجابى بهمك فإن عظيم ذكائك على أن هذه الطريقة يجب الأخذ بها كلها أو تركها كلها ، وإن خيراً . أنه أن تأخذ بطرائق التربية المعروفة فتصوغ فرداً كالأفراد من أن تأخذ ببعض الطرائق فلا تصوغ إلا رجلاً خائباً . . وأنت من غير شك لا تجهل المجهود العظيم الذى تكفلت به . فأنت مدى عشر سنوات صفر بالنسبة لنفسك ، ولك بكل مواهبك إلى تلميذك . فالعناية والصبر والثبات هي الصفات التى لا تستطيع أن تتخلى لحظة عنها من غير أن تتعرض لخطر إضاعة تاله إضاعة تامة . ولحظة قلق أو إهمال أو نسيان كافية لتتزع منك ثمرة عشر سنوات ثم لا يكون لك أن تسترد ما فقدته ولو أجهدت نفسك وأخرى . ولعمري لو أن شيئاً استحق صفة البطولة والعظمة بين أعمالك فذلك نجاح مثل ما أقدمت عليه . ذلك بأن قيمة النجاح تتناسب دائماً مع المصروف عليها من مواهب وفضائل . . .

« لئن يستطيع الإنسان أن يعبر بأحسن من هذا عن أن يومية بحثة لا تقوم إلا كما تقوم قصور الوهم وهى من سهولة لا يمكن اعتبارها إلا تصوراً جنوبياً ورواية وهمية » .

« أن هذا النقد صحيح في مجموعه . فأتين نعتز على هذا المذهب

به صلاحية طريقته .
بدل أن يتعلمه . هاد .
يوسوس إلى تلميذه .
معرفة وجهه السير إلى .
منه . فمن نزهة يضل فيها لطفل لعدم
تأثير عن التملك .

لست أرى حقاً .
له وأخلاق . بل لقد .
من مواضعها . فكيف .
عمره ذا إرادة قوية بعد .
أول أيامه لا يرى إلا بعينه .
ألا تراه متى خرج بعد ذلك .
إيقالا في الضلال عن سواء .
الكوارث من نعمة أطفالهم .
استسلم له وألقى إليه مقاليد قيادته .
شرح روسو بعد نشر الأمل في تأليف رواية أسماها (أميل وصوفيا أو المعتزلين)

ولم يتمها . على أن ما ظهر منها يلم على شك منه كبير في تفوق طريقته في
التربية على الطرائق المتبعة . فقد أوج أميل من صوفيا وأولدها غلاماً وعاشاً زمناً
في الريف بين مناظر الطبيعة الساذجة ، ثم انتقلا إلى باريس وخالطا جمعياتها
شهوراً تقلب هو فيها على أسوأ المصروف . ثم أوج على زوجها أن يقربها ، وظلت كذلك
« تنح يا أميل عني فقد عشت » . ثم أوج على زوجته في المسألة فقالت له :
ذلك ما عشت . ففر أميل . فاشك وتركني حاملاً . وما كنت لتقربني بعد
أستاذ طابت نفسه والتسليم . الأس وظل في بابه زمناً حتى إذا ذكر دروس
الصراحة بعد الكبر فغفر لها . وأخذ فتاه وارتحل حتى نزل عند تجار اشتغل
معه آملاً تخفيف آلامه .
إنها . فسارت حتى إذا .
إنها الثاني : « كلا إنه لم .
فتعال تبتعد فليس لنا هنا مستقر .

عند ذلك ترك أميل لها غلامه وهاجر إلى الجزائر فأخذه لولي عبداً ثم أتته
منه وكرم مجلسه .

قال حول لمر : « هنا تقف الرواية فسائل أنفساً : ماذا أفاد أميل من
تربيته الخاصة إذا كان قد عاش عيش سواه بعد ما جاء إلى باريس .
ينكر روسو غرائب طريقته بعد ما وضعها كما أنكر من قبل غرائب خصايصه
عن العلوم وعن التفاوت ، وهو يخفف من الحدة التي ظهرت في كتابه ضد صريح
التربية المتعارفة كما خفف من حدته ضد المناظر بعد إذ نشر خطابه للمبسر عن
المناظر .

ولم يكن لروسو في الحقيقة بد من هذا الإنكار والتخفيف فقد كان يغلو
غلواً غير معقول أول ما تخنر فكرة في رأسه . وإذا واجهه الناس بمعقولهم ومعرفهم
ارتبك ولم ينجه من ربكته إلا نظام التقهقر أبدع فيه وبرع حتى كان الناس يظنون
في تقهقره منتصراً .

لكنه كان يترك بعض الأفكار الغريبة العزيزة عليه تمر من غير أن يمسه
في أثناء تقهقره بسوء . ففكرته في أن يبدع الطفل العلم من غير أن يتعلمه ليست
أقل أفكاراً غريبة ، وهو مع ذلك بها مدله وعليها حفيظ . وكأنما يريد بكل إنسان
أن يبدأ جهود القرون الماضية ليكشف ما كشف الجدود من أسرار الوجود .
وبديهي أن هذه الأسرار لم تسلم مفاتيحها إلا بعد أن أخذت عنوة وبعد ما يجتدل
تحت أسوارها ألوف الشعراء والفلاسفة والكتاب والعلماء المنقيين . فكيف يذرها
روسو تغلق أبوابها من جديد دون فتاه قانعاً بأن يوسوس له منها بشيء من صور
النجوم وظواهرات الطبيعة .

لا يريد روسو أن يجيب عن هذا الاعتراض إلا بما أجاب على ما وجه لخطاب
العلوم والفنون من الاعتراضات . وهو بعد ما كتب أميل لا يزال يرى أن السعادة
الخالدة في أحضان الطبيعة لا تحوجها العلوم بل هي تنقص من أطرافها . وإذا لم
يكن من هذه العلوم بد فقليلها يكفي ، أما الفنون فلا .

وأغرب الأفكار العزيزة على روسو فكرته الأساسية . فهو يزعم أن لإنسان
طيب بطبعه . وهو يرتب على هذه الطيبة كل نظامه في التربية . يكفي عنده
الاندفع موضعاً بنفذه منه الشر إلى نفس الطفل لتجوبه ولتكون قد كونت رجلاً طيباً .

قال قاسم أمين : « يولد الإنسان شريراً خبيثاً قاسياً محتالاً كذوباً .
الولد الصغير لا يعرف إلا نفسه ولا يرى إلا نفسه ولا يحب إلا نفسه ولا يألم إلا
من نفسه وفيه أثره هائلة لا حد لها . هذه العيوب تنمو مع الطفل وتبقى فيه حتى
يصل إلى سن الرجال فيتعلم كيف يخفيها ، يحسن ظاهره ويستر باطنه . أعظم
ما تنتجه التربية الجيدة إذا استمرت بلا انقطاع هو أن تقطع من النفس فروع
هذه الشجرة الخبيثة ولكنها لا تستطيع أن تقلع جذورها » .

استغرق النظر فيما إذا كان الإنسان طيباً بطبعه أو خبيثاً بطبعه جهوداً لا تقل
عن الجهود التي أنفقت في بحث الخير والشر ومصدرهما ومآلهما . وأثار بحث
المسألة من الجدل ما أثار بحث غيرها من المطلقات التجريدية الأخرى . وعندنا
أن كل هذا البحث والجدل عقيم . وليس الإنسان طيباً بطبعه وهو ليس خبيثاً
بطبعه . وإنما هو ذرة في دائرة الوجود قضى عليها بالحياة الإنسانية ولا تعلم لهذا
القضاء سبباً ولا تفهم للحياة غاية ولا تدرك للوجود غرضاً . وهي تعيش حتماً في
انتظام مع غيرها من ذرات الوجود . وكلما زاد انتظامها طابت حياتها . ولذلك كنا
نعتبر خير حالات الحياة وأسعدها أكثرها مع حياة مجموع الوجود انتظاماً وأكثرها
لها ملائمة . . صحيح أننا لم نعرف بعد ، وقد لا نعرف أبداً ، ما يجب علينا لكمال
الانتظام حتى نبلغ كمال السعادة . ونحن لا نزال نلعب وراء هذه الغاية بالاستفادة
مما يكشف العلم عن صلات الأشياء بعضها ببعض وعن صلتنا بالأشياء وباستيعاء
إلهامنا الغريزي الناشئ من شعورنا بأثر الأشياء فينا وثقلها فيها شعوراً لا نعرف مظاهره
 وأسبابه . فإذا أمكن حصول هذا الانتظام ، وهو أنه حصل ، يومئذ نكون
قد بلغنا غاية التقدم ويومئذ تسترد الإنسانية الفردوس المفقود .

لكننا ولما نصل من التقدم لشيء إلا أن يكون سراباً لا نعرف له وجوداً فإن
الخير والشر والحسن والقبح والطيبة والخبيث وما إليها من أشباهها لا تزال في
حيز المطلقات التجريدية . كل ما عندنا من علم بها ليس إلا حدساً وضعناه
على قدر معارفنا الناقصة الضيقة الدائرة ووضعناه بمقدار اقتضته ضرورات الحياة
وظروف العيش . قد يكون هذا المقدار النسبي قريباً من الحقيقة المطلقة - إن كان
للحقيقة المطلقة وجود - وقد يكون بعيداً عنها ، بل على النقيض منها . ذلك أمر
لا نعلمه ولا يستطيع أحد أن يقطع فيه برأى .

من ثم كان بناء التربية على تقدير الطيبة الطبيعية أو الخبيث الطبيعية بناء
واهناً الأساس . وإنما التربية تهيمته الناشئ للعيش في الوسط المحيط به عيشاً يقر به
من فكرتنا في السعادة قدر المستطاع . ولما كانت هذه الفكرة مستفادة من العلم
بالوجود الخارجي علماً قائماً على الملاحظة والاستقصاء ، ومن الإلهام النفسي
فيما لم يحكمه العلم بعد ، فوجب أن نطرح الصور المادية التي كشفت قواعد
العلم عنها للإنسانية أمام حس الطفل كي تدخل في دائرة معارفة وكي يكون إلهامه
النفساني أقرب إلى مظنة الصواب فيكون هو أقرب إلى السعادة .

سهل بعد ذلك أن يشعر الطفل بأن كثيراً مما يقع تحت حسه إنما كان
من عمل الإنسان . وأن مثل هذا الكثير مثل الشجرة الكبيرة يتمتع هو بشرها وإن
كان فضل غرسها لغيره . وسهل كذلك أن يتصور ما أنفق لتحصيل هذه الغاية
من الجهود على عمر الأجيال . فإذا هو شعر بذلك وتصوره ، قدر ما للإنسانية
عليه من فضل ، وشعر بأنه مدين للماضي بسعادته وطمأنينته في الحاضر . ورأى
أن أداء هذا الدين الواجب الأداء إنما يكون بمواصلة جهود الماضي لتقريب
الإنسانية من تمام الانتظام في مجموع العوالم كي تتحقق غايتها وتتم لها السعادة .
من هنا تنشأ فكرة الواجب . وليس الواجب إلا أداء ما تراه ديناً عليك .
وقد ذكر أميل فاجيه أن روسو لم يلهم فتاه هذه الفكرة ولم يرب في نفسه إرادة
الوفاء . وقد يكون هذا صحيحاً . قد يكون صحيحاً أن روسو لم يقو إرادة فتاه
إطلاقاً وإنه لم يشعر بما للماضي عليه من فضل ودين واجب الوفاء . لكن لروسو
عذره . فهو يعتبر جهود الماضي جهوداً ضالة أفسدت الإنسانية ونشرت الشقاء
ومكنت للنفس . وهو يرى في السكون إلى الطبيعة والركون إلى الطمأنينة الخالدة
وسيلة السعادة . وهو يرى أن تقوم الفضيلة على أساس من الإشفاق والرحمة
بالإنسانية المعذبة الدائمة الأنين .

قال : إنما يتكون الجنس الإنساني من سواد الناس . أما ما ليس سواداً فهو
من القلة بما لا يحرك العناية لحسابه . . ولو أن الغنى كان أكثر من الفقر
شهوة وتعباً لما دعا ذلك للإشفاق عليه . وإنما تعسه من عمله وسعادته في يده .
لكن شقوة البائس من عمل الأشياء ومن قسوة الحظ الذي يتقل كاهله . ولا سبيل
لتزع إحساسه المادى بالتعب والهمود والجوع . ولا يجدى الحكمة ولا يجدى الذكاء

على استنباط القواعد . وهذا ما فعله روسو حين وضع فكرة التربية لسلية ثم الإخاء ثم الحوار والجدال .

وليس يصح لشباب بحث نظام قواعد سير في الحياة إلا في حال الأحوال الأخيرة من حالات التربية . ذلك بأنها نتائج المشاهدات والمقارنات استنبطها الدهن بعد بحث وتحجيس . ولبحث والتحجيس لا يمكن أن إلا بعد أن تكمل للدهن قوته . ولو أنك وضعت أدم الدهن هذه القواعد على إطلاقها ولا يتم تفسيحه فإن كنت كمن ينقل معدة نريض بالغذاء الدم يريد به أن يسرع إلى النمو فلا يكون من وراء عمله إلا تخمة الطفل تخمة قد تودي بحياته . وما نشك في أن إليه العلم الذي يصيب أكثر طبقات الإنسانية إنما سببه ما أتى على أذهان أهلها ولا تزال فجوة ضيقة من أحمال لا طاقة لها بها . لذلك أصابها الهزال برغم استمرار نمو الجسم وصرت ترى رومساً كأنها رومس الرجال تعمرها أذهان لا تزيد قوتها على أذهان الأطفال . وهذا هو ما حدا بروسو لترك الفلسفة والدين وقواعد الخلق جانباً لا يلقى بشيء منها إلى وفاة قبل السادسة أو الثامنة عشرة من العمر . تلك كلها مضاربات نظرية اقتضى الوصول إليها جهاد أصحاب الأذهان الناصجة والنبوغ العقلي مدى أجيال كثيرة . وهم لم يصلوا إليها إلا بعد أن كشفوا من دقائق محبات الأشياء عما لا يقع تحت حس الطفل . فالقاء هذه النظريات والدقائق إليه يفسد ذهنه بل يتلفه .

ولما كانت حاجة الطفل لمشاهدة الأشياء هي الحاجة الماسة في المدة الأولى من طفولته ، ثم لما كانت حاجته لمقارنتها هي الحاجة الماسة بعد ذلك مباشرة ، فإن إضاعة وقت الطفل في قراءة الكتب صرف له عما يعوزة . إنما تحوى الكتب صور الأشياء لا حقائقها . وتحتوى منها وجهاً خاصاً قد يكون أقل وجوهاً استغنائاً لنظر الطفل . وفي قصر الطفل على الصور دون الحقائق خطر كبير . فإن مشاهدة الأشياء على حقيقتها تبعث في النفس نشاطاً لاستجلاء هذه الحقيقة . كما أن القام بين الصور يجعل الطفل ينمو خيالياً محباً للأوهام متطلعاً إلى ما يرسمه له ذهنه على الورق لا إلى ما تسليه عليه الموجودات من صور الواقع . والحياة واقع لا خيال وحقيقة لا وهم فالعلاق بالخيال والوهم ليس يصلح للحياة . لكن ترك الطفل يشاهد الأشياء ذكراً ثم يقارنها زماناً آخر لم يستطع القواعد

لأوقته من هضم مركوه . احترم جنسك واذكر أن أساس تكوينه جميع السيدات . وأنك إذا زرعت منه المليك والفلاسفة فلن يكون لانتزاعهم أثر ولن يتأثر سير الرجولة . وبجملة علم فتاك حب الناس جميعاً وألا يكون من طبقاتهم في واحدة منها بل فيها جميعاً . وحدته عن النوع الإنساني بمحبة وإشفاق . وإياك ولنظف المنقير . فما كان للإنسان أن يلطم شرف الإنسان .

ظاهر هنا أن روسو جعل الرحمة والمحبة أساس الخلق . وظاهر أنه أوحى للأستاذ بأن يلهمها فتاة على أنها بعض مظاهر الوجود الطبيعية ، لا على أنها قواعد تواضع الناس عليها ، وذلك لكي تنعش في نفسه كما تنعش صور الموجودات المادية التي تقع تحت حسه . وفي الغرست أنتجت بعد ذلك كل ثمرة حسناً . ومن ثمأها فكرة الواجب على معنى خاص . فإذا لاحظنا مع فاجيه أن فكرة الواجب طبيعية في الإنسان كان هذا المعنى الخاص توجيهاً لها إلى وجهة قد لا تتفق مع رأى Nietzsche من وجوب تطبيق مبدأ تنازع البقاء على أقصى صورة في الجماعة الإنسانية ، ولكنها من غير شك تتفق مع النظرية المسيحية نظرية التقاف والإخاء . وما كان لنا مع ما نعلم من شدة إخلاص روسو للمسيحية برغم نفيه النبوة والرسالة أن نطالبه بالأخذ بنظرية غير نظريته .

وما دام روسو قد أقام أساس الخلق على الرحمة والمحبة فمن الخطأ كذلك ربه بأنه أراد لطفله أن يبقى جاهلاً بقواعد الخلق حتى الثامنة عشرة من عمره . وهو إنما أراد أن يأخذ الطفل بهذه الظواهر على أنها وسائل الحياة العملية من غير اضطراب للمقارنة بينها ومقارنتها واستنباط القواعد منها حتى لا يكره ذهنه الضعيف على النظر فيها لا يطبق حصه . فإن الدهن كسائر الأعضاء والمعدة إذا أهمل فسد ، فإذا أعطى بمقدار حاجته قوى وطلب المزيد . أما إن أرفقته أثقلت النخلة وقل أن يعود إلى شيء من الصلاح . ومقدار حاجة ذهر الناشئ مشاهدة الأشياء وظواهرها ، فإذا هو أحاط بكل منها منفرداً جد في مقارنتها . فإذا أبدت له المقارنة أوجه الشبه وصور الخلاف بينها فكر في الاستفادة من هذه الوجوه والصور لوضع قواعد يصدر عنها . وقد لا تستغل هذه العملية اللحية عن سائر أرباب النامرج من الصغر إلى الشباب . لكنها على كل حال تحتاج إلى العودة على هذا الترتيب . ففرض المشاهدات . ثم تقرب المتوافق والتخالف ، وأخيراً الإغارة

والأحكام منها بعد أن تكون عنده ملكة التفكير يحتاج إلى وقت طويل قد لا يتسنى للكثرة المطلقة من الناس الذين يضطرون لكسب حياتهم . هذا اعتراض يوجه إلى مذهب روسو . وهو اعتراض يوجه لا على التربية كمنهج ولكن على التربية كوسيلة لكسب العيش . قال فاجيه : « إذا كان مرمى التربية سرعة كسب وسيلة للعيش كما هو الحال حيناً وضرورة لأغلبتنا العظمى ، فيجب أن تكون التربية عملية أو إن شئت مادية إلى درجة أكبر . وليس معنى ذلك أن هذه التربية العملية هي التربية الصحيحة أو التربية الحسنة . تلك تربية سيئة بل هي ليست تربية إطلاقاً . إنما هي مران يخلق العامل المتقن ولا يجعل الطفل رجلاً . وما دامت الحالة الاستثنائية الطيبة التي اختارها روسو تجعل الطفل غير محتاج لكسب العيش فيمكن أن يحتاط له بتعليمه حرفة بدوية يستطيع الكسب من طريقها إذا ساء حظه . أما ما خلا ذلك فتربية عامة كلها تثقيف الذهن ورياضة العقل ونماء حسن التقدير ورفعة القلب - وأن يكون وسيلة ذلك : الحديث الطويل الجهد الدقيق مدى عشرين سنة مع حكم تعينه . كتب قليلة . وتلك هي التربية الصحيحة ، فليس العلم غرضها وإنما غرضها تفتح الذكاء . يسير عليك بعد ذلك أن تحصل ما تحتاج إليه أو تشتهي من علم وأن تحصله سريعاً . صحيح أن هذه التربية لا تؤهلنا لنضال العيش . لكن أصحاب هذا النضال لم يكونوا موضع تفكير روسو » (١) .

ظاهر من كل ما سبق أن مذهب روسو في التربية مذهب غير ممكن تطبيقه . وظاهر أن في كتاب التربية آراء تستحق النقد وأخرى خاطئة الخطأ كله . وظاهر كذلك أن مجموع فكرة روسو في التربية بديع عظيم وأن الكتاب يحتوي من الأفكار ما جعل المسيو مارتن يكتب عنه فيقول : « برغم ما أثارت بعض أجزاء أميل من اعتراضات عليه فالكتاب يكاد يكون أعمق بحث واحد في لغتنا وفي غيرها من الكتب الحديثة عن الطبيعة الإنسانية . وهو قطعاً أكثر الكتب دفعاً للتفكير فيها لا يكون تفكير المؤلف فيه صواباً . وإنك لتي حل من أن تقول غير مبالغ إن هذا الكتاب كان سفين سلام ألقى بها القدر على أمواج مذاهب التشكك والمادية وإنه جمع بين دفتيه كل العواطف والمبادئ الأساسية للحياة الأخلاقية التي

(١) راجع أميل فاجيه « القرن الثامن عشر » ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

كانت على شفا الماوية . وليتصور الإنسان القرن الثامن عشر خلواً من روسو ثم ليسائل جاداً مخلصاً أبان كان ينتهى سير العقل الإنسان . . . هذا المقام الكبير الذي اعترف به الكتاب جميعاً . كتب روسو وتلك الأفكار الجملة التي قررت حقوق الطفل كما قرر العقد الاجتماعي حقوق الإنسان هو الذي أدى بنا لتقبض في عرض الكتاب كل هذه الإفاضة ولو أن روسو كان دقيقاً في شأن المرأة دقته في شأن الرجل كريماً معها كرمه مع أمثاله لعرضنا قسم أميل الأخير مع ما سبق عرضه . لكن روسو كان خصماً لحرية النساء لأنه كان شديد الولع بهن . وخصومته تدعونا لأن نفرد الفصل الآتي للكلام عن الكتاب الخامس من التربية (مضوياً أو المرأة) .

استأثر الرجال كبراً وغروراً بحق الحكم على كل شيء . والمرأة بعض الأشياء التي استخضعوها لحكمهم . فما لها من حق وما عليها من واجب رهن أمرهم وطوع إشارتهم . وقد بالغوا في ذلك حتى بلغوا في بعض العصور أن جعلوا حياتها وحريتها بيد بنينا بل بيد موالها . وكانوا ولا يزالون في بعض الأحيان يدفنونها حية مع زوجها الميت . وهي لم تصل بعد إلى التمتع بكل الحقوق التي يتمتع بها الرجل قانوناً وفعلاً في أى بلد من البلاد . ومن يدري إذا كانت ستصل إلى هذا المقام يوماً من الأيام .

لم هذا ؟ لأن الرجل قوى الساعد والمرأة ضعيفته . وللقوة بحكم الطبيعة حق لا يمكن إنكاره . واستعمال حق القوة يتكيف حسب الأزمنة والأمكنة بصورة مختلفة : فحيث الرجل معرض لفتك الأقوى تراه يفتك بالأضعف . وحيث تحول حيلة الرجل دون فتك غيره به تراه يجعل للحيلة حقاً يقف دون الفتك . ولو ملكت المرأة يوماً من وسائل الحيلة ما يعجز الرجل عن كشفه لخضع الرجل لسلطانها ولأقر لها بحق التحكم فيه .

لكن الرجل في حاجة إلى المرأة . لذلك كان يرعى مع استبداده بها حرمانها غير قليلة . وكان يرعى جانب الرأفة واللطف ليصل منها إلى غاياته . كذلك فالمرأة أم الرجل وأخته وزوجه ومحبوبته والرجل أبو المرأة وأخوها وزوجها وحبيبها . وهذه صلات تمنع عليه أن يقسو بها إلى الحد الذي يقسو عنده القوى بخصمه الضعيف ، وتقضى عليه حتى أن يرتب علاقاته معها تربيةً يضمن لكل منهما سعادة متبادلة من غير أن ينزل القوى عن عرش قوته .

وقد كانت المرأة ولا تزال ترى من الرجال هذا الاستئثار بالحكم ، وكانت ولا تزال تسخر منهم لما هم فيه من باطل الغرور وما هم عليه من كاذب الكبرياء . وهي تسخر منهم لأنها تشعر من جانبها بأن قوتها أبعد من قوتهم أثراً وإن كانت أقل ظهوراً . قوتهم كقوة الحيوان الضخم يجر العربة وهو كلما ثقل حملها اشتد

بنفسه اعتزازاً وإن كان أكثر أمام عربته اهتزازاً . وقوتها كقوة الكهرباء لا تقع عليها العين وهي تتر العوالم وتلك الرواسي وترزع الآلهة .

ولم يفت الرجال على عظم تبلدهم أن يشعروا بهذه القوة . وقد خيل إليهم لما أرادوا التخلص منها أن القمع والقصر يخفف من آثارها . فألزموا المرأة عقر دارها ومنعوها من الاختلاط بالعالم مخافة أن يزيد هذا الاختلاط في سلطانها ، وجسوا عنها ما كشفوا من قوى الوجود لتبقى ضعيفة بجهلها . فلم يغن ذلك عما أرادوا شيئاً . إذ رضيت المرأة بالنصيب الذي قدره لها مقابل أن استخضعتهم لحاجاتها واستندتهم لشهواتها وجعلت منهم مطي رغائبها وأهوائها . وكذلك كان الفوز في هذا النزاع القديم الخالد بين المتحايين المتنافسين لسلطان المرأة الرقيق .

على أن شيئاً من النور قد بدأ يدخل إلى عقول الرجال المتبلدة ، فبدءوا يشعرون بأنهم يزيدون في سلطاتهم على المرأة إذا هم تركوها تصادم الوجود وتحتال لنفسها على اتقاء قسوة صدماته . ولا كانت المرأة هي ابنة الرجل قبل أن تكون امرأة ذات وجود مستقل ، فقد فكروا في إعدادها لهذا الصدام كما يعد الرجل ، حتى إذا خرجت إلى الصدام فلم تكف نظراتها وبسماتها ودلالها ورقتها لتلين من جلمود قلب الوجود ورأت ألا مفر من الاستعانة بالرجل الغليظ ليشدد من لينها ويقوى من ضعفها أدركت ما له عليها من يد وجميل وراعت القصد فيما كانت تعتته من قبل فيه من حاجاتها وشهواتها ورغائبها وأهوائها .

وبين هذين الموقفين - موقف القصر في عقر الدار وموقف جلال الوجود - كانت المرأة ولا تزال تردد .

وأشد الرجال عسفاً بالنساء وأكثرهم حرصاً على إخضاعهن هم أشدهم تعلقاً بهن وأحناهم ضلوعاً عليهن . هؤلاء العشاق للجنس يرون المرأة كالزهرة إن عرضتها للافح الهجير أو قارص الزمهرير ذبلت وزال جمالها . وهم يرونها كالغزال إن قوى أستاذ فزال عنه ما جعل لهم عليه السلطان . وهم يشعرون توهماً ما لها من ذكاء وحيلة فيخشون أن تنقلب الحيلة سياسة توجه بها المرأة الرجل حيث تشاء . وهم يرون لذلك إمكان زوال ملكهم وهم أحرص من أن يرضوا زواله .

وقد رأى القارئ مبلغ تعلق روسو بالنساء وهيامه بهن هياماً دفعه إلى أعمال

الجنون في شبيبته وفضح مستور حياته في رجولته . فلا بدع إذن أن يكون رأيه في تربية النساء فألا فاضحاً في جنونه . هذا مع الاعتراف بأن للجنون منطقاً لا يقل عن منطق العقل دقة ، وبأن في اندفاعات الجنون إلهامات حق لا يصل إليها منطق العقلاء .

يقول أميل فاجيه ردّاً على اعتراض الذين يذهبون إلى عدم جواز تعليم المرأة إلى حد تتساوى عنده مع الرجل أو تفوقه فيه : (لن يكون تعليمها كذلك شراً بل يكون هو عين الحكمة . فإنما يكنى الرجل أن يتقن حرفة للكسب وأن يحسن أدائها وأن يعمل على حد قول الأمريكيين - لكسب المال لامرأته : أما المرأة فمدبرة للمنزل ، عليها واجب ألا تسرف في المال . وذلك أشق كثيراً من كسب المال . وهي زوج يجب عليها ألا تضايق زوجها وأن تعمل الذهن لتنشيطه وتشجيعه وأن تقدم له النصيحة الطيبة التي لا يعنى سواها بتقديهما وأن تنجيه من ملال الحرفة بما تتبادله معه من حديث ذكي طريف إن لم يجده في بيته ذهب إلى النوادي باحثاً عنه فيها . وهي أم مكلفة بأن تدخل إلى نفس أبنائها الأفكار العامة الأولى ذات الأثر الدائم مدى الحياة . فهي من أجل ذلك ولتحسن صنعا يجب أن تكون أذكى بكثير من الرجل وأن تصل من العلم إلى استغلال كل ما يحتويه هذا الذكاء وكل ما كان ممكناً أن يؤديه) .

هذه الكلمة من أميل فاجيه نقدمها ليرى القارئ إلى أي حد يريد أكابر الكتاب أن تصل المرأة . وهي كلمة كتبت في سنة ١٩٠٩ أي قبل نشوب الحرب العالمية بخمس سنوات . أما بعد إذ رأى العالم ما قدم النساء من جليل الخدم للإنسانية في حرب دامت رحاها دائرة مدى سنوات أربع بلا انقطاع ولا هدنة ولا ملال فقد أصبحت كلمة فاجيه أكثر من أن توصف بالاعتدال واعترفت الأمم للنساء بحق التقدم حتى في السياسة إلى مصاف الرجال .

لكن (وسو يرى ذلك هذراً وهزواً . إن المرأة لم تخلق للعلم ولا للحكمة ولا للتفكير ولا للفن ولا للسياسة . وإنما خلقت لتكون أما تغنو أطفالها بلبثها وتتعهد ضعفهم بحسن عناية وتسلمهم من بعد ذلك للآب أو للعرى يعنى بهم على نحو ما توجب به الطبيعة . وترجع هي للقيام بوظيفة الأمومة فتضع وترضع وتعهد لتعبد فتضع وترضع وتعهد من جديد . وهي وأطفالها دائماً في عتق الرجل بقوم

عليهم ويكد لهم ويربيهم ويهيئهم للحياة بحسب الإلهام الطبيعي . إذن فالعانس والأرملة ومن نكبت بزواج آخر : كل أولئك لا يدخلن في حساب روسو . وربما كان جوابه إذا سئل عنهن إتهن خرجن على نظام الطبيعة فلا مكان عنده لهن .

وما دامت الأمومة هي الوظيفة الطبيعية للمرأة ثم ما دامت في عناية الرجل وقوامته . وما دامت الطبيعة قد جعلت بذلك بينهما من الفروق ما يجعل الكلام في المساواة بينهما سخافة مضحكة . ما دام ذلك « فإن المرأة الكاملة والرجل الكامل لا ينبغي أن تتشابه أذهانهما إلا كما تتشابه وجوههما .

« والجنسان في اجتماعهما يعملان للغرض المشترك ولكن لا على طريقة واحدة . ومن هذا الخلاف ينشأ الفرق الأول المميز للعلاقات الخلقية بين واحد الجنسين والآخر . فيجب أن يكون أحدهما ناشطاً قوياً والآخر مستسلماً ضعيفاً كما يجب أن يريد أحدهما ويقدر على حين يكتفى الآخر بعض الشيء من المقاومة .

« ومنى استقر المبدأ ترتب عليه أن المرأة خلقت خصيصاً لتسر الرجل فإذا وجب على الرجل أن يسرها بعد ذلك فتلك ضرورة أقل ظهوراً . فإنما فضل الرجل في قدرته وهو إنما يسر المرأة بقوته » .

وما دام هذا الاختلاف الطبيعي قائماً فمن خطئ الرأي سلوك سبيل واحدة في تربيتهما . إنما التربية تنمية الملكات الغريزية التي أوجدها القدر للملاءمة الوجود . ووجود المرأة ليس هو وجود الرجل فملكاتها الغريزية تختلف وإذن فيجب أن ينمى في كل ما يعاونه على الحياة التي أعدها والتي تختلف جد الاختلاف عن حياة الآخر .

« بل إن كل الملكات المشتركة بين الجنسين ليست موزعة بينهما على نسبة واحدة . وهما في المجموع يتعاوضان . فالمرأة أحسن كامراً منها كرجل . وهي كلما أرادت أن تتمتع بحقوقها كان لها الفضل . فإذا أرادت أن تغصب حقوقنا بقيت دوننا . ولن يستطيع الإنسان أن يعترض هذه الحقيقة العامة إلا بمسئليات يعتمد عليها أصحاب المصلحة من أنصار الجنس الجميل » .

وإنك لترى مصداق ما تقدم فيما تلاحظه من ميول كل من الجنسين أول ما يبدأ التمييز عندهما . فترى الفتاة ميالة للزينة تضي كل نهارها حول عروستها .

تغير مئات المرات من ملابسها وتداب في البحث عن صور جديدة من زينتها سواء أكانت هذه الصور قبيحة أم حسنة . وهذه العناية التي تبدلها الفتاة في تجميل لعبتها ليست إلا مظهرًا لكمين ما في نفسها من ميل للزينة لا تستطيع رده على نفسها فتخلعه على تلك اللعبة التي تتصرف فيها . فإذا بلغت من العمر حدًا يجعلها تقدر على تجميل نفسها رأيت عنايتها وقد انصرفت رويداً رويداً عن عروستها ورأيتها أنفقت كل ما أوتيت من ذكاء وجهد لتبدو في أجمل مظهر تمكنها الطبيعة من الظهور فيه .

وقد يسهل عليك بعد ذلك أن تستنتج ما تقدم من أن المرأة خلقت لمسرة الرجل ، كما ترى أن وجود المرأة خاضع لحكم الجماعة عليها لا لاعتبارات الخاصة ولا لآثارها الشخصية . فهي مهما وجدت في تجميل ذاتها من السخريّة ومن إضاعة الوقت لا تستطيع أن تهمل جمالها ، وإلا بدت في حال من الكآبة يجمعها معها الناس جميعاً . وهي كلما أضافت إلى جمالها زاد الناس إعجاباً بها وتقديراً لها .

إلا أن وظيفة الأمومة هي الوظيفة الطبيعية للنساء جميعاً . وهي لا شك في حاجة إلى تجميل المرأة نفسها حتى يعنى بها الرجل الذي أعدته الطبيعة لها . ولكن ثمة إلى جانب كمال الجمال ما تحتاج إليه حياة الزوجية والأمومة من معارف . وإدارة البيت ليست بالأمر الهين لذاته . فيجب أن يعنى بصحة المرأة حتى تنشأ قوية على احتمال مشاق الأمومة كما يجب أن تتعلم ما تحتاج إليه تلك الإدارة من معلومات ومن صنائع . فإذا أتقنتها تعين عليها أن تعرف الموسيقى والرقص تسر بهما زوجها وتدخل بهما إلى بيتها من معاني النعمة ما لا غنى عنه .

لكن التعليم الذي يريده رومو للمرأة لا يتعدى درجات المعرفة الأولية البسيطة . لقد رأيت في تربية أميل يظعن على الكتب وعلى العلوم وعلى الفنون ويريد فناء شاباً قوى البناء سليم الجسم حسن الإدراك قديراً على معرفة الأشياء وحسن تقديرها من غير حاجة لدرس علم خاص أو التبحر في بحث شيء من الأشياء . وقد رأيت يعتبر المرأة مخلوقاً ضعيفاً مستسلماً وجد في الحياة متاعاً للهر الرجل ومسرته . وخلق ضعيف العقل كما خلق ضعيف البدن . فهو لن يرى بعد ذلك في تعليم المرأة إلا سخافة وسخريّة .

« يقولون : إنه لا يجدر بالرجل ذى تربية أن يتصل بامرأة لا تربية عندها . لا أن فتاة بسيطة فتاة التريبة لأحب إلى من فتاة عالة ذات ذكاء وخاطر نجى . فتقيم في بيتي سوق أدب تجلس هي على رأسه . فإنما الفتاة ذات الذكاء والخاطر وباء زوجها وأبنائها وأصدقائها وتخدمه ووباء الناس جميعاً . ذلك بأنها وهى في سماء نبوغها الرفيع تحتقر كل واجباتها كامرأة وتبدأ تريد أن تكون رجلاً . فينظر الناس إليها بعين الزرابة ويوجهون إليها من النقد عن حق . ولن يسلم إنسان من النقد ما خرج عن الدائرة التي هيأ تقدر له المكان فيها ليدخل إلى دائرة لم يتهيأ بها . وكل هاتيك النسوة ذوات الملكة والموهبة الكبيرة لا احترام هن إلا عند الغفل البلهاء . فالناس يعرفون دائماً من هو الفنان أو الصديق الذي يمسك بالقلم أو بالريشة حيناً يعملن . فإذا كان للمرأة مواهب حققة دنس غرورها مواهبها . فإنما كرامة المرأة أن تبقى مجهولة ومجدها في احترام زوجها ومسرته في سعادة أسرته . وإنني إليك أيها القارئ أحتكم . إذا أنت دخلت إلى غرفة امرأة فأى الأمرين أحسن عندك أثراً وأدعى بك لاحترامها . أن تراها عاكفة على أعمال جنسها معنية بأمر بينا محاطة بملابس أبنائها أو أن تلقاها تكتب الشعر على منضدة زينتها تحيطها كتب من كل الأنواع وتذاكر نقشت على كل لون ؟ ألا لو كان الناس جميعاً عقلاء لوجب أن تبقى كل فتاة متعلمة فتاة طول حياتها . »

وما للمرأة والعلم . « إن البحث وراء الحقائق المطلقة والنظرية ووراء قواعد العلم وكل ما يرجى لنشر الأفكار ليس من خصائص المرأة . إنما يجب أن تقتصر معلوماتها على ما يحتاج إليه العمل . وهي المكلفة بتطبيق ما يجده الرجل من المبادئ . أما خواطر النساء فما لا يمس واجبهن فيجب أن تنصرف إلى معرفة الرجال أو إلى المعلومات الرقيقة التي تتعلق بالذوق وتقتصر عليه . وذلك بأن مظاهر النبوغ تتعدى مدى مرميهن . وأن ليس لديهن من الدقة والانتباه ما يكفل النجاح في العلوم الدقيقة . كذلك فإن المعارف الطبيعية أو المادية هي من متناول أكثر الجنسين عملاً وأكثرهما مراناً وأحيطهما بالأشياء نظراً وأشدّها قوة وأقدرهما لقوته استعمالاً يزن بها ما بين الكائنات المحسّة وقوانين الطبيعة من صلات وروابط . »

ليس للمرأة من العلم إذن فائدة . والمرأة مخلوق أوجده القدر للهو الرجال ومسرّاتهم فيجب لذلك أن تعنى بدرس الرجال . ويجب أن تنفق فيما يجلب للرجال

المسرة ويلمق ذوقهم ويجب أن تنظر للأشياء وأن تتصل بها وأن تمارسها بمقدار ما يرضى الرجال - فإذا هي نجحت في ذلك فقد أدت الواجب الذي خلقت له . وأما إن هي تعدته وجعلت لنفسها شخصية مستقلة وأرادت أن تتصل بالعالم والكائنات عن غير طريق الرجال فقد ضلت سواء السبيل .

وماذا يرضى الرجال . إن الإجابة عن هذا السؤال غير ميسورة . لأن للرجال في كل زمان ومكان ميولهم وأذواقهم وشهواتهم . وقد وهبت الطبيعة المرأة ملكة لا تراها عند الرجل إلا لدرجة قليلة . تلك هي دقة الملاحظة . فإذا أنت رضت هذه الملكة فبين من نعومة أظفارهن رأيتهن سرعات إلى معرفة ميول الرجال وأذواقهم وشهواتهم سرعات إلى إرضاء هذه الميول والأذواق على طريقة تبلغ من الدقة عند المرأة الكاملة ما يخلق بينها وبين الرجل أرقى العواطف وأرقى الإحساسات

وما دام رضا الرجل هو غاية تربية المرأة فيجب أن تسلك معها سبيلا غير الذي سلكته في تكوين أميل . وقد رأيت أن أميل لا يجب أن يكون ثنائياً وأن يقصد إلى الفائدة من عمله . ورأيت أنه يجب عليك لتسكت الفتى أن تسأله : ما الفائدة من ذلك . أما الفتاة فلا يصح إسكانها . إنما تسأل عن الأثر الذي يحدثه كلامها . ويجب أن تعود الكلام الرقيق والرد الدقيق وحسن العبارة وجميل الإشارة وما إلى ذلك مما يجذب قلب الرجال فيكرسون حياتهم لفخر المرأة المحبوبة ولسعادتها .

كذلك . « ما دام سلوك المرأة خاضعاً لرأى المجموع فيجب أن تخضع عقيدتها للسلطان العام بأن تعتق كل فتاة دين أمها وكل امرأة دين زوجها . ولو أن هذا الدين الذي تعتقه كان لغواً فإن خضوع الأم والأسرة طائعين لحكم الطبيعة يحرم ما في الخطأ من ذنب عند الله » .

وليس القصد من اعتناق الفتاة دين أمها أو زوجها أن تجعل الدين موضع بحثها وإنما القصد أن يحل محل العقيدة منها إرشادها . « ويجب لذلك أن تحتفظ ببنائك في أضيق حدود قواعد الخلق وأن تدخل إلى نفوسهن أن ليس لشيء مما نتعلمه فائدة إلا ما دلنا على الوسيلة لفعل الخير ، ألا تجعل من بنائك متكلمات منطبيقات وألا تعلمهن من أمور السماء إلا ما يفيد الحكمة الإنسانية وأن تعودهن الشعور دائماً بأنهن بمرآى من الله ومسمع ، وأن يتخذنه شهيداً على

أعمالهن وأفكارهن وفضائلهن وطموعهن ، وأن يعملن الخير غير مترددات لأنه يحبه ، وأن يحملن الضرر قانتات فلهن عنده جزاؤه ، وأن يكن في كل يوم من أيام حياتهن مطمئنات لما قدمن وأن هن تقدمن له . تلك هي الديانة الحققة ، وهي وحدها البعيدة عن كل غلو وضلال وتعصب ، ومهما دعا الداعون إلى ما يحسبونه أرق من ذلك وأسمى فهي عندى الوحيدة التي أقر بها وأعترف » .

لكن روسو كان قد رأى ألا تعرض على أميل أية عبارة عن الدين قبل الثامنة عشرة من عمره . وكان قد علل ذلك بأنه قبل هذه السن لا يستطيع فهم قواعد الدين . فكيف به وهو يرى المرأة أضعف من الرجل عقلاً يسارع إلى تلقينها عقيدة أمها وزوجها ويطلبها بالوقوف عندها والإيمان بها .

وقد رد روسو على هذا الاعتراض الواضح بقوله : « من الجلى أنه إذا قصر باع الذكران من الأطفال عن أن يكونوا لأنفسهم فكرة صحيحة عن الدين فأحر بالفكرة أن تكون فوق متناول تصور الفتيات . ولنفس هذا السبب أرى أن أحدثهن عنها في سن متقدمة . ذلك بأنه لو وجب أن ينتظر بهن حتى يستطعن مناقشة هذه المسائل العميقة مناقشة ضيقة فقد يبقى الإنسان أبد الدهر ثم لا تحين هذه الفرصة » .

على أن الاعتراض السابق ورد روسو عليه يثيران مسائل شتى . فكيف يتأتى أن تعرض مسائل الدين على الفتاة وتحجبها عن الفتى . وهو إذا سمع أمه تخاطب أخته عن الدين أو رآهما تصليان لم يستطع أن يمنع نفسه من النظر فيما يفعلان فإن أنت حاولت منعه وإلزامه الطاعة فإنك تدخل إلى نفسه أحد إحساسين : إن الدين من السخافات التي وضعت للنساء فلا يصح الأخذ به ، أو أن في متناول أخته ما لا يستطيع هو إدراكه . وفي الحالين تكون قد هيات متاعب للمستقبل قد لا يسهل اجتيازها .

لكنك إذا غرست قواعد الدين في نفسه من نعومة أظفاره عرضت نفسك إلى خطر آخر فهو إما أن يتعصب لما عرفه من الدين لأنه عرفه ولما يستطيع فهمه . وإما أن يتزل عنه يوم يبلغ أشده أن يرى فيه شيئاً لا يقره عقله . ومن هنا تنشأ صعوبة يتخطاها روسو ولا يعيرها كبير اعتبار . وهي عندنا صعوبة خلقها روسو بوضعه المرأة في مستوى منحط عن مستوى الرجل بكل هذه

المراحل. ولو أنه لم يتأثر بادعاء السيدات دعيات الأدب والفلسفة في عصره ونظر في الأمر نظرة أكثر رفقاً وأعلى حكمة ولم يعنه عشقه النساء لرأى أن الفارق بين المرأة والرجل ليس بمقدار ما خيل إليه وأن اختلاف وظائفهما في الحياة التناسلية لا يقتضى كل هذا الضيق في طرائق تربيتهما. وهو ما دام قد قرر وجوب تربية الشاب والفتاة تربية جسمية مثبته واعترف بضرورة إعدادهما لمعرفة ما في العالم فإن أدوات التربية الجسمية كأدوات المعرفة متعادلة للجنسين. وإنما هو استعدادهما الذى يوجه كلا بعد ذلك في طريقه.

وهل يحسب روسو أن الفتيان جميعاً من نوع واحد في الاستعداد. أو لو عالج غيره الموسيقى إلى سن الأربعين كنت تراه يفشل فشله. وهل من يعالج التحرير والأدب من نعومة أظفاره ينجح نجاحه وهو لم يعالجهما إلا بعد الأربعين. ولكن روسو عاش في عصر كان للمطلق وجود فيه. فبحث هو عن المطلق من ناحيته وخيل إليه أنه وجده في تلك الأفكار الضئيلة الضيقة التي شغلت مدى حياته فنسج حولها من بدائع الأدب ما بقى ليخلد على حين تلاشت تلك الأفكار مع تلاشي المطلق أمام تقدم النظر العلمى.

من هذا المطلق اعتقاده أن المرأة خلقت لمسرة الرجل ووهو. وأنها لذلك مكلفة أن ترتب حياتها لتتال رضا. ولستأ ندرى مبلغ صحة هذا رأى أمام ما أثبتته العلماء من أن الذكور من أنواع الحيوان تسعى لاستغواء الإناث برائع جمالها. ويشتد بها هذا السعى إبان فصل التناج. فذكر الطير يباهى بريشه وبرخيم صوته. وذكر الوحش يباهى بقوته وجماله. وتضعف الأنثى أمام الاستغواء وتخضع له ويكون التناسل نتيجة هذا الضعف والاستغواء.

على أن روسو لم يلاحظ شيئاً من هذا. بل أضمن في رأيه من أن المرأة متاع الرجل. وأن الفتاة يجب لذلك أن تراض على الخضوع من أول أمرها. «فإنما الخضوع شأن النساء بحكم الطبيعة حتى يشعر الفتيان إنما خلقن والطاعة أول واجباتهن. وإذن فلا حرج على المربي في إكراههن وقمع حريتهن. ولا جناح عليه إذا عاقبهن. وإن من نتائج هذا القمع ما نرى في النساء من مرونة هن في حاجة إليهن في حياتهن. فهن دائماً في قوامة رجل وهن دائماً طوع حكم الرجال. وليس هن أن يضعن أنفسهن فوق حكم الرجال».

ومجمل الأمر عند روسو أن المرأة تابع من توابع الرجل يجب أن تأخذ الصورة التي ترضى الرجل، وروسو يجعل نفسه مقياس هذا الرجل الذى يجب أن ترضيه كل امرأة. فهو يضع أمام نظره ما مر به من تحكم النساء في أمره وتسلطهن عليه وعجزه أمامهن ويريد من المرأة التي تربي على ما يريد لا تكون مثاراً لشيء من هذا التحكم ولا ذلك السلطان وألا تعرض الرجل أبداً كان - تعرض له روسو من ألوان الألم والعبث.

وقد مر بك ما لاقاه روسو من النساء. مر بك مبلغ حبه هن وعجزه أمامهن ومبلغ استخفافهن به مع عطفهن عليه استخفافاً وعطفاً كان يشهى به إلى كراهيتهن والفرار منهن واحدة بعد الأخرى. فهو لم يطق مدام دبنائى ولا مدام دودنو ولا مدام دلكسميور ولا واحدة من السيدات ذوات النبل والكرم وصاحبات الفضل عليه. كلا بل لم يطق «أمه» وخليته مدام دقارانس. لأن هاتيك جميعاً كن متعلقات وكن يععلن من حياته موضعاً للعبث به. لذلك يجب أن ينتقم لنفسه من جنسهن. ويجب أن تكون النساء جميعاً من صنف تريزلفاسير جهالة وغباء لأن تريزلفاسير وحدها هي التي استحققت تفضيل روسو على رغم ما كان يجده في غبايتها وبلهها من عجب وبرغم ما كانت تفتن فيه أمها من أساليب الخداع للاحتيال على سلب ما يكسبه هذا البائس العظيم من المال القليل.

فأنت ترى أن روسو كان ذاتياً صرفاً حين معالجته موضوع تربية المرأة. وشأنه في ذلك شأن المغرمين بالنساء جميعاً. فكل مغرم بالنساء إلى حد الخيام، أو إن شئت فقل مع أميل فاجيه إن الكثرة المطلقة من هؤلاء المغرمين الهائمين ليسوا من أنصار النساء. فهم لا يريدون أن نحصل المرأة على أى صفة من صفات الرجولة وإنما يريدونها مخلوقاً خاضعاً متعلقاً بهم ضعيفاً الضعف كله محتاجاً لأن يسر الرجل غير محتاج إلا لأن يسره. وذلك أمر طبيعى، فالمغرم بالنساء إنما يقصد إلى غاية واحدة هي امتلاك المرأة امتلاكاً بالفعل. وامتلاك المرأة عسير إذا كانت ذكية عالمة عارفة بشئون الحياة قادرة نفسها حق قدرها شاعرة بأن لها وجوداً مستقلاً عن وجود الرجل وإنها في حل من أن تنافسه في الحياة إذا هو أراد أن يدخل معها ميدان المنافسة. مثل هذه المرأة القوية النفس لن تسمح لأحد بامتلاكها. بل نعلها تسعى هي لامتلاك الرجل أو لعلها تريد أن تساويه وأن تكون وإياه في مستوى

واحد فهي صاحبه وصديقه ما دام وفياً مخلصاً وما دام بينهما من تبادل الحب والاحترام ما يديم المحبة والصداقة ، وهي غنية عنه غير مبقية عليه إذا انقطع الوفاء أو ذبل الإخلاص . وما كان لهذا المذنب المدله أن ينصح الناس ليجعلوا من المرأة هذا المخلوق العسير الامتلاك . ولا كان له أن يخلق أمام أهوائه وشهواته صعاباً وعقبات قد لا يتغلب عليها وبخاصة إذا كان حياً عاجزاً ضعيف الحيلة بمقدار ما كان روسو . فلتكن المرأة إذن جاهلة ساذجة ولكن رقيقة مطوعة حتى يتيسر لهذا الأحقق روسو أن يمتلكها وحتى يأمن عيها به وحتى يستطيع إن أراد أن يحبسها في صومعته فلا تشكو الحبس ولا تطلب الحرية التي أباحها الله للناس ليمتعوا باستجلاء محاسن خلقه وليشاركوا الوجود مشاركة حرة تزيد حياتهم وحياة الوجود قوة ونماء .

• • •

أترى الناقد لرأى روسو في هذه المسألة يرى أن يؤخذ في تربية الفتاة بما يؤخذ به في تربية الفتى . أتراه يذهب إلى وجوب تدريب الفتاة على جلال الوجود حتى إذا صارت امرأة كان لها أن تقف من الرجل الموقف الذي تختاره هي وألا تخضع لما يقسرها الرجل عليه . لعل الجواب ليس من السهولة بحيث يكفي فيه عن نقد رأى بالأخذ بنقيضه . وهل كان إنكار الشيء اعترافاً بضده إلا عند العقول الساذجة البسيطة . إن إنكارك على شيء أنه أسود لا يقتضي أن يكون هذا الشيء أبيض . فإن بين السواد والبياض من مختلف الألوان ما يجعل التحديد عسيراً وإن كان الإنكار يسيراً . ونفك أن أمراً وقع ليلاً لا يقتضي حقاً أنه وقع نهاراً . فساعات السحر وساعات الشفق تشارك الليل في ظلمته والنهار في نوره . فإذا كان ذلك هو الشأن في أمر الميراثات التي تقع تحت حشنا فما بالك بغير الميراثات من متناول الأفهام . بل ما بالك بمسألة كالتربية ليس يكفي فيها الحس وليس يكفي فيها التفكير ولا تقطع فيها التجربة برأى ما دام معنى التربية البلوغ بالإنسان إلى خير حال يتلاءم فيها مع الوجود الذي خلق فيه ملاءمة تجعله أكثر ما يمكن متاعاً بالوجود وسعادة في الحياة من غير أن يكون متاعه وسعاده حيلاً على الوجود ولا عيلاً على أهل هذا الوجود .

ما بالك بمسألة كالتربية يختلف النظر إليها من زمن إلى زمن ومن قطر

إلى قطر . تتأثر بالطقس وبالجو وبالمصادفات السعيدة أو النعسة التي توجد فيها أمة من الأمم بل بالمصادفات السعيدة أو النعسة التي يوجد فيها الفرد . أليس من الحق أن يقال في التربية ما قيل في الطب : ليس ثمة أمراض وإنما ثمة مرضى . كذلك ليس ثمة تربية وإنما ثمة أشخاص يجب تربيتهم .

من المتعذر إذن أن تضع قاعدة مطردة للتربية عامة وأصعب منه أن تضع قاعدة لتربية الفتاة . ذلك بأن المرأة كجنس لم تصل بعد إلى موقف محدد في أمر ما لها وما عليها . وإذا كان الرجال لا يزالون يتوقعون صوراً من التطور في شئونهم فهم يرسمون لهذه الصور حدوداً وهم يقدرون لهذه الحدود مواقع . وفي مقدور الفكر أن يتوسم إمكان حدوث هذه الصور أو استحالتها . وأن يتوسم مدى هذا الإمكان وأن يرتب عليه نتائجه . ولكن التطور في شأن المرأة لا يزال على حال يجعل قرار الفكر عنده عسيراً . لأن الفكر لا يقر على غير مستقر إلا حدساً . فإذا رأيت الكتاب يرسمون قواعد لتربية المرأة فلا تحسبهم واقفون عندها إلا الزمن الذي يقتضيه انتقال المرأة إلى طور جديد . وقد يطول هذا الزمن وقد يقصر . لكن عسيراً على كل حال أن تعرف ما ستكون علاقة المرأة بالرجل في هذا التطور الجديد . وعلاقتها بالرجل وحظها إلى جانبه من الحرية ومقدار تعلقها به أو استقلالها عنه ، ذلك هو ما يجعلها توجه تربيتها إلى خير ما يصلح للرجل ولها .

ونحن نحسب مع ذلك أن خير ما يضمن تطور المرأة إلى الخير أن تربي حرة مطلقة الإطلاق كله . فهي إذا عودت مكافحة الوجود طفلة استطاعت كفاح الاجتماع امرأة . وهذه القوة النفسية التي أراد روسو أن يمتلئ بها فؤاد أميل يجب أن تغرس في نفس الفتاة . لأن المرأة أضعف بنية من الرجل . وكل أنثى أضعف بنية من الذكر . فهي في حاجة لأن تكون قوية النفس حتى لا يجتمع عليها ضعفان . ضعف الجسم وضعف الفؤاد .

لقد انصرفت جهود الرجال في الماضي ليزيدوا المرأة ضعفاً وليشعروها بأن لا سبيل لسعادتها ولطمأنيتها في الحياة إلا عطفهم عليها وبرهم بها . وهم يبيعونها هذا البر وذلك العطف في مقابل خضوعها لهم . لذلك فسدت ملكاتها ولجأت إلى الخديعة والحيلة . ولو أنهم جعلوها تدرك دائماً أن قوة النفس تعدل قوة الجسم لكان لها أن تقف وإياهم في ميدان الحياة تعاونهم أضعاف ما تعاونهم

وظهر كتاب التربية فكان ظهوره بده متاعب روسو وشقيقته . لاقى بسبه من العنت ما مر بك في الجزء الأول من هذا الكتاب . قرر برنان باريس القبض عليه فاضطر للفرار من فرنسا . وأصدرت حكومة جنيف مثل هذا القرار في شأنه . وصادته السوربون وطعن عليه أسقف باريس وحرّمه البابا . وكان فراره من فرنسا مقدمة حياة التجوال التي عاد إليها والتي انتهت به إلى الجنون ووقفت به على حافة هاوية .

وقد أعان روسو على الفرار من باريس ما كان ياقياً لديه من بعض ما كسبه من كتاب العقد الاجتماعي ، وما أعان به جماعة بالكسبيون . وفيما هو في فراره وانتقاله بين البلاد المختلفة في سويسرا رد على أسقف باريس بكتاب وجهه إليه ، وعلى حكومة جنيف بخطابات الجبل . وسنعرض لهذه الردود وللعقد الاجتماعي وللاعترافات والأحلام في الفصول الباقية التي تضمنتها الجزء الأخير من هذا الكتاب .

اليوم - فإذا أرادوا الاعتناء عليها جزئهم عن العدوان عدواناً . وليس أحفظ للسلام من تعادل القوى . كما أنه ليس أحفظ للدولة من العدل بين أفرادها .

انظر كم بلغ فساد المرأة بسبب عسف الرجل بها وإضعافه نفسها إلى حد انحطت معه عن الحيوان . إن أنثى الحيوان لا تسلم نفسها للذكر إلا لتلد . أما المرأة فتسلم نفسها للرجل لتتلقح . وأنثى الحيوان لا تتسلق الذكر ولا تتزين له . لأن نفسها أقوى من شهواتها . وذكر الحيوان هو الذي يملك الأنثى ويتزين لها فيفشي شهوه أو ينشر ريشه أو ينشد أغانيه الرخيصة . أما المرأة فهي التي تملك الرجل وتتزين له وهي التي تحرك فيه ضعف نفسه ليعطف على ضعفها .

أما تعليم المرأة فامر يرجع الرأي فيه إلى البيئة التي تنشأ فيها وإلى مبلغ حاجاتها من العلم . ولست أدري لم تنحصر الفتاة في دائرة ضيقة من المعارف . إنما العلوم التي يتلقاها الناشئ إبان شبابه وسيلة لكشف ما في الحياة من جمال ولاستغلال ما في الوجود مما يزيد الحياة قيمة . فلم لا نضع هذا السلاح في يد الفتاة . لم لا نعهد لإدراكها السبل لكشف مختلف ما في الحياة من صور الحياة . وهي بعد ذلك متوجهة حتماً إلى ما تسوقها طبيعتها الخاصة إلى التوجه له من هذه الصور . وما دمت قد حصنت نفسها وأزجت عن ذهنها ذلك السطر الذي يحجب ما كشف عنه العلم فقد أقيمت أنك لم تفعل إلا خيراً .

قد يكون صحيحاً أن المرأة تدرك من العالم ما لا تدرك . وبقوتها منه كبير مما تدرك . لكن العلم الذي كشف من شئون العالم لم يكن من وضع الرجال وحدهم . ولم يكن من وضع النساء وحدهن . وإنما هو شركة لكل فيها نصيب . ولكل منها حظ . وقد تفيد امرأة ما لا يفيد رجل . وقد تكون المرأة التي تكتب عن تربية المرأة أكثر توفيقاً من روسو إذا هي أفادت من العلم ما يمد لها سبيل التفكير والكتابة .

على أنا وإن نقدنا رأي روسو في تربية المرأة فإننا لانعمل تكرار ما سبق لنا ذكره . . إن في صحائف (صوفى) من الأوصاف والملاحظات ما يستحق الإعجاب . وإن الأسلوب فيها لم هو دائماً أسلوب روسو . ذلك الأسلوب المسمى بالبالغ في مجاوبه حدود الإبداع .

الجزء الثالث

بين جان جاك روسو

وأسقف باريس

١

كان ظهور كتاب التربية بعد الهلويز والعقد الاجتماعي بدء متاعب روسو . فقد صدر قرار من برلمان باريس بالقبض عليه في ٩ يونيو سنة ١٧٦٢ وصدر قرار من حكومة جنيف بالقبض عليه أيضاً في ١٨ يونيو . وأنكر السوربون المؤلف على أثر ذلك . ثم طعن عليه المسيو دوبومون أسقف باريس بمنشور أذاعه في ٢٠ أغسطس . وطعته قرار من البابا . وقضى عليه أمر صادر من حكومة هولندا . واضطرته هذه المطاردة من كل جانب للارتحال إلى سويسرا ثم إلى إنجلترا ثم إلى فرنسا . وكان لا يكاد ينزل بأرض يحسب أنه في حل من المقام بها حتى يصدر إليه الأمر بمغادرتها . وكان لا يكاد يصل بينه وبين رجل بصدقة حتى يضطر إلى إنكارها . وظل ذلك شأنه بقية أيامه . اجتمع عليه المرض والمطاردة وإنكاره الناس وإنكار الناس إياه . واجتمع ذلك كله عليه في أقسى مظاهره وأشد صوره . ومع ذلك ظل نشاطه الفكري والأدبي متدفقاً تياره . فكتب يرد على منشور

(« يعلم القراء أن المؤلف قد نشر جزأين من هذا الكتاب وأن آخر فصل في الجزء الثاني تناول بحث كتاب روسو عن التربية ، وفي هذا الكتاب الذي هو أكبر كتب روسو وأعمقها بحثاً وتفكيراً عرض المؤلف للعقيدة الدينية المسيحية وانتهى إلى تقرير ما سماه الديانة الطبيعية . وجاء بذلك على لسان « قيس السافوا » . وقد أحدث ما كتبه من ذلك ضجة كبرى انتهت إلى إصدار برلمان باريس ، الذي كان يقوم بأمر القضاء فيها ، أمراً بالقبض عليه . وعلى أثر ذلك فر روسو من باريس وفضل متجولاً بقية حياته إلى أن أصدرت المحاكم القضائية والسياسية لأخرى قرارات بعدم قبوله في أراضيها . وبما ضعن به روسو في هذا الظرف منشور أذاعه أسقف باريس المسيو كريستوف دوبومون . وبالرغم من أن روسو لم يتحرك للرد على كثيرين ممن طعنوا عليه فقد رد على الأسقف بخطاب مطول يقع في نحو ٢٠٠ صفحة . والمنشور والخطاب آيتان في القوة والبلاغة . وهذا الفصل من كتاب « جان جاك روسو : حياته وكتبه » متعلق بمنشور الأسقف وخطاب روسو (من السياسة الأسبوعية في ١٠ فبراير سنة ١٩٢٧) .

لذلك كانت الحرب بينه وبينهم على أشدها بعد ظهور كتاب التربية مشتملاً تعاليم قسيس السافو . ولذلك كانت هذه التعاليم أساس الحرب بين الفريقين ، فقد خدم روسو قاعدة الكتلنة حين أكر سطلان الكنيسة ، واستخف بالمعجزات وأباح الاجتهاد بأوسع معانيه . وهم مكانة رجال الدين حين دعا إلى التسامح : فافر للأديان جميعاً مكانتها السامية واعتُرف للأدياء جميعاً بالعظمة والقداسة واعتُدى على مصالح أهل العصر حين أباد فساد التربية التي ينشأ الأبناء عليها . ثم هو لم يكف بقصد الحاضر وإنكاره بل تخلى ذلك إلى وضع دين جديد هو الدين الطبيعي ، ونظام جديد هو نظام الجمهورية ، وإلى دعوة الناس لاتباع دينه ونظامه بحجارة وقوة يمكن أن تحرك لها قلوب روسو عندهم ولم ينكر برلمان باريس في قراره ولا أسقف باريس في منشوره أن ذنب روسو عندهم خروجه فيما كتب على النظام القائم ودعوة الناس إلى الخروج عليه . ذلك أن للنظام القائم في كل جيل مكانته عند أهل هذا الجيل ، وهما يكن فيه من فساد وهما يعترف كل إنسان بهذا الفساد فهو عند الناس جميعاً بمثابة السبيل الواقي للحياة الاجتماعية من الانهيار . وليس على أحد بأس من الدعوة لإصلاح ما في هذا السبيل من فساد في رفق وثروة وليس على أحد بأس من التعرض للإبادة عن هذا الفساد ولو كان ذلك في غلو وتطرف . فاما الطعن على أسس هذا النظام والدعوة لتقصضها والخروج عليها فنلك هي الثورة التي بخشاها الناس أشد خشية ويقفون في وجهها بكل ما أوتوا من قوة .

هذا هو ما يدفع بعض الكتاب للدفاع عن قرار برلمان باريس ونشور الأسقف . فقد اعتبرت المملكة الفرنسية من عهد لويس الرابع عشر نفسها حارس المذهب الكاثوليكي . ورأت لذلك ألا يكون في المملكة إلا مذهب واحد كما أنها ليس فيها إلا قانون واحد وملك واحد وسبيل واحدة لعبادة الله هي السبيل التي يسلكها الملك . وهذه الفكرة ، فكرة وجوب وحدة العقيدة لتقيام الوحدة القومية ، هي التي كانت تجعل من كل مفكر حر ومن كل بروتستانتي ومن كل شخص غير كاثوليكي خارجاً على الدولة . فكان طبيعياً إذن أن تجارب الحكومة القائمة هؤلاء المخارج لتحتفظ على الدولة أمناً ونظامها والمحافظة على الدين في مقدمة ما يجب عند أهل ذلك العصر للمحافظة على النظام

أسقف باريس وعلى قرار حكومة جنيف . ثم كتب الحوار يدافع فيه عن نفسه ثم كتب الاعتراضات وأحلام المنزه المنفرد وكان خلال ذلك كله لا يضمن بكتابة الكثيرين ممن آمنوا بآرائه وقد سوا شخصه ، وزادهم ما حل به من ظلم إيماناً وتقليداً . وهذه الرسائل والأحلام والاعتراضات والحوار وخطابات الجيل والرد على أسقف باريس يستغرق آلاف الصحف . وله من جمال الأسلوب وروعة ومن دقة التفكير وسعة الأفق حظ عظيم .

وما كان روسو ليتبع هذه الثمرات الشهية العظيمة القدر لو أنه لم يطارده ولم يشعر إلى أقصى غور نفسه بظلم أهل عصره . وما كانت روحه لتعرف على الثورة الفرنسية وتندوها بكل ما غلظتها به من حياة لو أن أهل عصره كانوا أكثر تسامحاً وعدلاً . لكن الظلم يحمل في طياته جرائم موته . وحياة الوجود تنتقم لنفسها من كل من يطعن في البني عليها . ونواحي الرجال أمام الهدى هم أداة هذا الانتقام . لأن نفوسهم المملوءة بمعنى العدل تظهر الظلم أمام الناس في أبشع صوره فيستغز في قرارة نفوسهم ذلك القبس من نور الحق ، إن أخفته مصالح العيش حيناً فإنها لن تستطيع القضاء عليه ولن تستطيع قتله .

على أن ظلم الإنسان للإنسان هو أبداً نافع ككل شئون الإنسان . والأسباب التي تؤدي إليه أدنا منه وأنفه . فماداً يبغى الظالمون من ظلمهم غير المنافع من مصالح العيش بالسلطة في الرزق والجاه . وما بسطة رزق العيش وجاهه إلى جانب عظمة الحياة ومجدها . أليست تافهة في كمها ثقافة الفرد منا إلى جانب الوجود العظيم . مع ذلك فهي التي تحرك الأكابر وذوى السلطان وتوجههم في أعمالهم وتعيد لهم سبلهم وتدفعهم للمحافظة بكل ما لديهم من الرسائل على النظام القائم الذي يمكن لهم من هذه البسطة ولحاربة كل جديد يتخشى منه عليها . وهذا ما دعا كل أولئك الذين حاربوا روسو لخاربه وما دفعهم للتألب عليه

وطارده وهذا هو ما استثار الجيل الذي جاء بعدهم للاعتراض بفضله وإقرار مجده . وليس يدلك على ذلك أكثر من أنك لا تجد من خصوم روسو من يؤتبه على خطأ جوهرى من أخطائه التي نراها اليوم ونلسمها ونسخر منها وتبلغ بنا الدهشة كيف وقع فيها . لكلك تراهم يحاربون من آرائه ما يحسونه مهدداً للنظام القائم أو منبهاً إلى ما فيه من فساد وضعف .

والأمن . وما دام روسو قد عرّض النظام والدين للشبهات فمن حق برلمان باريس - وهو سلطة ذلك العصر القضائية - أن يأمر بالقبض عليه .

على أن برلمان باريس لم ينس حين أصدر قراره أن روسو كان برغم طعنه على النظام الديني القائم وبرغم دعوته إلى نظام اجتماعي جديد ، مؤمناً ثابت الإيمان ، وأن جماعة الفلاسفة من معاصريه كانوا أشد منه على الدين طعناً . ثم كانوا مع ذلك يتزعمون إلى الإلحاد نزعة صريحة ، كما أن منهم من كان يطلب إصلاح دستور الحكم . ولم ينس البرلمان كذلك أن روح العصر لم تكن من المحرص على النظام والدين بمقدار ترى معه قرار القبض بعين الرضا والطمأنينة . لذلك ذهب يتلمس المعاذير لقراره . فلم يجد إلا أن روسو خالف مألوف أدباء ذلك العصر وكتابه بأن أمضى كتبه . فذكر في أسباب حكمه ما نصه :

« وما أن مؤلف هذا الكتاب لم يخش أن يصرح باسمه فقد وجب الإسراع في مقاضاته .

« وما أنه قد عرّف عن نفسه فيهم العدالة أن تتدخل فتجعل للناس مثلاً من المؤلف ومن يثبت اشتراكهم في طبع هذا الكتاب أو توزيعه . »
قال مسيو موجرا في تقرير هذا التصرف :

« لا شك أنه نفي في سنة ١٧٦٢ من فرنسا وجنيف وبرن . ولكن ذلك كان أمراً عالقاً بأخلاق العصر . فهل تسمى مطاردة ما قانوناً عاماً . وأى رجل من رجال الأدب لم يكن معرضاً لمثل هذا الخطر ولما هو أقسى منه إذا كتب مثل هذه الكتب . . ولو أنه أراد أن يفر من تشريع العصر فلم لم يقلد كل أولئك الكتاب العظماء الذين كانوا يكتبون ينشر كتبهم من غير وضع أسمائهم عليها . وهل لإنسان أن يشكو من المطاردة إذا كان في مقدوره تجنبها ثم هو مع ذلك يتدفع إليها . »

وهذا الرأي هو كذلك رأى أوامر جول وهو رأى لا يفر منه فاجيه Faguet ولا جول لستر Jules Lemaitre . ولا تحسب رجال القضاء في أى عصر ينفرون لأن القضاء يطبق القانون الذى يحتوى قواعد العدالة كما يفهمها المجموع لا كما يفهمها الخاصة وأولوا العلم . والمجموع هو القوة التى باسمها ينفذ القانون وأحكام القضاء ، فيجب أن تكون الأحكام وأن يكون القانون في متناول

فهمها . فأما الخاصة وأما أولوا العلم فيجب أن يطمشوا إلى حظهم من النعمة بالسعادة الداخلية التى يحسونها ولا يشعر بها غيرهم . ولذلك لا يقدرها ولا يقيم لها من الوزن إلا بمقدار ما يكون لها من أثر براق في الخارج .

أصدر برلمان باريس حكمه ومن رجاله من يؤدّ ألا ينفذ وألا يقبض على روسو . لأن هذا القرار صدر ضد أجنبي وكانت عليه مطاعن شكلية شتى . ثم إن ما كان رجال الحكم يخشونه من أن يجزئ القبض على روسو إلى التحقيق مع دوق ودوقة لكسمبرج ومع المسيو مالرب ومع أمثالهم من ذوى السلطان في ذلك العصر جعلهم جميعاً يمهّدون لروسو وسيلة الفرار ويطمئنون تمام الطمأنينة لقراره على نحو ما مر بك في الفصل التاسع من هذا الكتاب .

هذا ، وأما منشور أسقف باريس فلم يعن بالشئون الشكلية ولم يتأثر بما لجماعة اللوكسمبرج ومسيو مالرب بالكتاب من صلة . وما للأسقف وهذه الشئون والصلات ، ومنشوره لا يتعدى الطعن على روسو وتفنيد آرائه ولا يقصد لغير المحافظة على إيمان الناس بسلطان الكنيسة وتعاليمها بعد ما حاول روسو أن يضع نظاماً للتربية وقاعدة للعقيدة غير قواعد التربية وأسس العقيدة التى وضعها رجال الدين ، وبعد ما استعان في محاولته هذه بكل ما لديه من معارف وبما أوتي من بلاغة وسحر بيان . فإذا ترك وشأنه صح أن تنمو فكرته وتجد من الناس أنصاراً لها وعاملين على نشرها . وفي هذا ما فيه من التأثير على سلطان الكنيسة وفي مصالح رجالها . والناس ، في متعارف الحياة ، لا يحفزهم شيء للنضال كالخوف على مصالحهم . فأما الذين يدافعون عن الحق لأنه الحق ويرضون ضنك العيش وسوء الحال حرصاً على سؤده وانتصاره فأولئك هم المختارون الذين أسبغت عليهم الطبيعة من المزايا ما يهون عليهم شهوة الحاضر ومتاعه ويجعل منهم جنود الحقيقة الخالدة .

انبرى إذن أسقف باريس بمنشوره للرد على روسو . والحق أنه دلّ به على قوة بيان وروح جدلية جذرية بالإعجاب . ولو أنك وقفت عند قراءته من غير أن تقرن في نفسك رد روسو عليه لما وسعك إلا أن تهتم روسو بالمرق وبالإلحاد . لكن صاحب دين الطبيعة كان ملهماً في رده متفوقاً في مناقشته إلى حد سما به إلى أقصى مما سما في تعاليم قسيس السافوا ، وجعل أسقف باريس يبدو أمام النظر متعصباً ظالماً إلى حد كبير .

وحد من بقاع الأرض - نزاها في أي دين ننشئ تلميذ الطبيعة وبأي مذهب تلحقه
إنا لن نلحقه بهذه ولا يتلك وإنما نحن نصل به إلى مقام يسكنه من اختيار أيها
أرشد إلى خير حكم للعقل . . . ولقد تم تفصل الله هذا العرس ولو أن المؤلف
وصل بتلميذه إلى مقام يتسكن معه من أن يختار من بين الأديان جميعاً ذلك الذي
يهدى إليه خير حكم للعقل . إذن لكان قد أعدده حتماً لاختيار قواعد المسيحية
فإن النور الطبيعي يهدى إلى النور الإنجيلي ، والدين المسيحي هو لا شك دين
العقل . وإن شئت فالأسقف يقول إن المسيحية دين الفطرة .

مجهود روسو إذن ضائع ودعوته للخروج على قواعد العصر ثورة طائشة لا نتيجة
ولا أثر لها . فما دامت تعاليمه وما دامت قيامته في وجه الدين وساعيه لتربية الطفل
تربية جديدة لن تخلق خلقاً جديداً ولن تجعل الناس إلا أكثر حرصاً على المسيحية
وتسكناً بها ، فمن الحق اتباعه ، ومن الجريمة عدم الوقوف في وجهه .

وأبلغ دليل على عبث وعدم إنتاجه عقم حججه جميعاً فحججه في فساد
التعليم الديني عقيمة ، وإنكاره المعجزات عقيم ، وشكته في وحدانية الله عقيم وكل
ما عرض له في تعاليم قسيس السافوا عقيم . وإن شئت أن تعرف كيف كان ذلك
فاستمع إلى هذه المقطعات من منشور مسيو دوبيون وتعمل قليلاً في الحكم
لها أو عليها حتى تقرأ مناقشة روسو بإياها .

قال الأسقف دفاعاً عن التربية المسيحية :
« يقول مؤلف أميل أيضاً : كل طفل يؤمن بالله وثيقاً كان أو هو يخلق الله على
صورة الإنسان . ولو أن هذا الطفل كان وثيقاً لآمن بالله عدة ونسب الطبيعة
الإلهية إلى أوهام غير مُحَسَّنة . ولو أنه كان « تصورياً » لجعل للإله الحق ، حين
اعتزاه به ، جسداً . ولن يرضى الإنسان هذه أو تلك لطفل نشأ في تعاليم المسيحية .
ولو أن التربية الحالية كانت فاسدة من هذا الوجه لكان من فاحش الظلم أن
نسب إلى الدين ما ليس منه وما هو من خطأ الدين يسيئون تعليمه » .

وقال مناقشاً روسو في أمر الخلق ووحدة الله :
« والمؤلف نفسه يأخذ مبدأ الشك في أمر الخلق ووحدة الله . فهو يضع
على لسان الشخص الذي اتخذ منه أداته ، ما يأتي : أعرف أن العالم تصرفه إرادة
قادرة حكيمة . ذلك أراه ، أو بالأحرى أشعر به ، وذلك يعني علمه . ولكن هذا

بدأ أسقف باريس رده بالظن على فلسفة الإلهاد التي كانت فاشية
في ذلك العصر واعتبرها بعض أعلام الساعة التي أشار إليها القديس بولس .
ثم وصف روسو وصفاً يستوقف النظر لما يظهر عليه من الدقة وحسن التحليل ،
فإن : « وهذا - الإلهاد - بنوع خاص هو ما يظهر أن بعضهم رمى إليه في كتاب
حديث عنوانه : أميل أو التربية . فقد نشأ في حظيرة الخطيئة رجل يتنحل لغة
الفلاسفة من غير أن يكون فيلسوفاً حقاً . إنما هو ذهن أقدم من العلومات يجم
لم يره ، ويبحث بالظلمات إلى أذهان أخرى ، وطبع مولع بغرائب الآراء وطرانق
السير في الحياة جمع بين سيطرة الخلق وثرف الفكر وبين الشك بقواعد الأقدمين
وشهوة إقامة المحدثات وبين خفية العزلة والرغبة في أن يعرفه الناس جميعاً . رأى
يناض العلم التي يتعهدا ، ويقرر كمال الإنجيل ثم يهدمه من أصوله ، ويصف
جمال الفضائل ثم يحوها من نفوس قرائه . وأقام نفسه مهذباً للنوع الإنساني كي
يضله ، ومرشداً عاماً لغيري الناس جميعاً ، وهادئ العصر ليفسد عليه أمره .
ففي رسالته عن التفاوت نزل بالإنسان إلى مرتبة الحيوان . ودس في كتاب آخر
سموم الشهوة زاعماً أنه يحاربها . واستبد في هذا الكتاب ، كتاب التربية ، بسني
الإنسان الأول ليقيم سلطان الإلهاد » .

بعد هذا التصدير الذي قلم به الأسقف روسو إلى القراء بهذه الصورة التي
تبدو كأنها الحقيقة والتي لخصت في أسطر قلائل مطاعن كتاب العصر على
مؤلف كتاب التربية وعلى رسالته وكبه جميعاً انتقل بنشوره إلى كتاب التربية أو إن
نشئت فقل إلى تعاليم قسيس السافوا ، فهي المقصودة بالذات عنده وعند بولان باريس
وعند غيرهم من القساوسة والحكومات . وأما عن أن هذه التعاليم صادرة من بروتستانتى
وقائفة على قواعد هذا المذهب من مذاهب المسيحية ، فقد تجاهل الأسقف الأمر
ونظر إلى ما خطه يد روسو بعين كاثوليكية بحث . ولكنه كان مع ذلك حازماً كرسياً فقد
أراد أن يظهر روسو خارجاً على المسيحية ومذاهبها جميعاً متكبراً للرسالة وللأديان
كلها عاملاً على ترويع الإلهاد مع ادعاء الإيمان والتدين مخففاً في دعوته هذه
إخفاقاً ظاهراً ، فقال : « على أن مؤلف أميل برغم عدم اعتزاه بأي دين من الأديان
يبدل من غير قصد على السبيل التي تؤدي إلى الدين الحق . فقد قال : نحن الذين
لا يريدون التحكم ولا يريدون أن يعلموا أميل شيئاً لا يفهمه من تلقاء نفسه حيثما

الم أخالده هو أم مخلوق . وهل للأشياء أصل واحد . وهل لها أصلان أو أكثر . حتى طباعتها . ذلك ما لا أعرفه وما لا يعنني . ولذلك أدر جانباً هذه المسائل المهمة التي قد تحرك أثرتي من غير أن يكون منها فائدة لسلوبكي . على أنها أسمى من أن يكون عتلي . فماداً يريد هذا المؤلف المجازف أن يقول . هو يعرف أن العالم إنما هو إرادة قادرة حكيمة . وهو يعترف بأن معرفة ذلك تعنيه . وهو مع ذلك إنه لا يعلم إن كان للأشياء أصل واحد أو أكثر . ويزعم أن معرفة ذلك لا تعنيه . كانت ثمّة إرادة قادرة حكيمة هي التي تصرف العالم فهل يليق ألا تكون هي الوحيد للأشياء . وهل يمكن أن يكون العلم بأحد الأمرين أجل خطراً من العلم بآخر . ما هذه العبارة المتناقضة . وهو يزعم أنه لا يعلم طبيعة الله ثم لا يلبث أن يصر بأن هذا الموجود الأسنى له الذكاء والقدرة والإرادة والطية . أليست هذه مرة عن الطبيعة الإلهية . ووحدة الله تبدو له مسألة تافهة نسبو على عقله !

ولقد شعر روسو أن حقيقة التنزيل المسيحي ثابتة بالوقائع . ولما كانت المعجزات الأدلة الأساسية على التنزيل وكانت هذه المعجزات قد بلغتنا عن طريق صحاح عجباً : شهادات رجال دائماً ، رجال يتقنون ما نقله رجال غيرهم ، أكثر الرجال بيني وبين الله !

قال الأسقف :

ولكن . . بآية وسيلة أخرى غير شهادات الرجال عرف المؤلف إسبرطة وروما . وهي التي بتغني كثيراً وعن ثقة بقوانينها وأخلاقها وأبطالها . كم من آية بينه وبين الحوادث التي تمس تأسيس هذه الجمهوريات القديمة صحتها . وكم من الرجال بينه وبين المؤرخين الذين احتفظوا بذكر هذه الحوادث . فشكه هنا ليس قائماً إذن إلا على ما يعليه عليه إلحاده .

انتقل الأسقف من الكلام عن الله وعن وحدانيته إلى ما تعرض به روسو لقائه . فقد قال روسو في التربية ما سبق إليه في الكتب الأخرى من أن تتكون من سواد الناس والعاملين بينهم ، وإنك لو انتزعت الملوك من بينهم بانتزاعهم أحد . لكن المجموع يضحى دائماً على مذهب فائدة العدد والمصلحة العامة تضحى للمصلحة الخاصة . وهذا العدد الأقل لا يتغني

باسم العدل والنظام إلا لفائدته وعلى حساب المجموع . كذلك يقول روسو . وقد رد عليه الأسقف بما يأتي :

« وكذلك يتهم الإلحاد لانتقاد مقاصد من تحكم الملوك بأمره ، ويتهم بتسميم قواعد السعادة العامة بما يوسوس به من قواعد لا نتيجة لها إلا الفوضى وما تجره ورائها من شقاء وتعس . أما الدين فيأمر بحشية الله وباحترام الملك . . وبأن يخضع كل إنسان لأولى الأمر . فمن الله تستمد كل سلطة . هو الذي أنشأها في الأرض جميعاً فمن قاومها قاوم أمر الله فحققت عليه لذلك لعنته » .

ويرتب الأسقف على ذلك كله وجوب البدء بتربية الطفل من أول حياته تربية دينية خالصة .

وقد تناول منشور الأسقف مسائل أخرى كخطيئة آدم وما إليها من شئون الدين مما يطول شرحه وليس هذا مقام عرضه .

أذيع منشور أسقف باريس في ٢٠ أغسطس سنة ١٧٦٢ ، وكان روسو يومئذ مقبلاً بموتبيه ترافير من أعمال نيو شاتل . وكانت المطابع لا تفتتحه إليه من خصومه في نشرات مطبوعة وفي نشرات غير مطبوعة . لكنه لم يكرث لها وفكر في الابتعاد عن الأدب ومنازعاته . أما منشور الأسقف فحركة لم يمسك القلم من جديد . قال :

« اعتقدت أن من حق على نفسي أن أجيب . وكنت أستطيع هذه الإجابة من غير مساس بكرامتي . فقد كانت هذه المسألة مشابهة جد المسألة لمسألة ملك بولونيا . وأنا ما أحببت قط المجادلات العنيفة على طريقة فولتير . ولست أعرف القتال إلا في كرامة ، لذلك أريد دائماً من مهاجمي ألا يدنس ضرباتي كي أنزل حتى للدفاع عن نفسي . ثم إنني ما شككت في أن هذا المنشور كان من صنع اليسوعيين وبرغم أنهم كانوا يوم ظهوره بائسين فقد عرفت فيه مذهبهم : مذهب القضاء على البائسين . وقد استطعت من أجل ذلك أن أسير أنا أيضاً على مذهبي القديم فأبجل المؤلف وأنسف المؤلف . وأحسبني بلغت فيما فعلت من ذلك حظاً من النجاح » .

ونحسبه نحن أيضاً قد بلغ في رده هذا حظاً من النجاح . بل نحسبه قد وفق إلى كل النجاح . وهذا جولة لمر على ما كان من حقه على روسو لم ينكر عليه

الحرية ، ووصل إلى وطنه الذي طالما فآخر به وأعزه وأكرمه ، وصار وكنه الأمل أن يجد في مقابلة أهله ما يهون عليه مصابه . . ماذا ترائي سأقول . يتقبض قلبي وترتجف يدي ويسقط منها قلمي . . يجب على أن أسكت فلا أحتلتي حربة شام . . ألا ليضي استطع أن أسيع في خفية أشد الآلامى مضاضة ومرارة .

« ولم كُتِبَ هذا . أنا لا أسأل عن سببه وإنما أسأل عن الدافع إليه . إنهم يجترئون على رمي بالإلحاد غير ذاكرين أن الكتاب الذى يبحثون فيه عن هذه التهمة موجود بين يدي الناس جميعاً . ألا ما أكثر ما تجود به نفوسهم لو أنهم أتبعوا لهم إعداد هذا السند ليدعوا بعد ذلك أنه يحتوى كل ما زعموه فيه . لكنه سبق برغم ما يصنعون . وسيرى الخلف عند البحث فيه عما يعزى إلى مؤلفه من الآثام أن ليس فى أغلاط هذا المؤلف ذاتها إلا خطأ صديق من أصدقاء الفضيلة . »

« وسأجنب التحدث عن المعاصرين فما أريد بأحد صراً ، لكن المحدث سينيوزا كان يعلم الناس مذهبه مطمئناً ، وكان لا يعوقه عن طبع كتبه عائق ، وكانت هذه الكتب يتجر فيها علناً . وحضر إلى فرنسا فاستقبل استقبالاً حسناً ، وكانت الممالك كلها مفتوحة أمامه ، وكان يجد الأمن بل الحماية في كل مكان ، وكان يحظى من الأمراء بكل إجلال ، وكانوا يعرضون عليه منابر الدرس . فعاش راضياً ومات مرضياً بل موقراً . أما اليوم وفي هذا العصر الذي يزدهى بأنه عصر الفلسفة والحكمة والإنسانية فلأن رجلاً عرض في احتياط وباحترام وبدافع من محبة بنى الإنسان بعض شكوك أملى بها مجد الموجود الأسمى ترى هذا المدافع عن دين الله محروماً من الماء والدفع في كل أوروبا مهيناً منبوذاً يطرد من مملكة إلى مملكة ومن ملجأ إلى ملجأ من غير رعاية لفقره ولا إشفاق على ما يعاني من أمراضه ويطارد بقسوة لم ير مثلها أثم ولا تجوز إلا عند الهمج حتى لو أنها عومل بها رجل وهو في قوته وصحته . ولكي يستطيع البقاء مطمئناً بين الجبال يجب لذلك حزم مجيد كبير وعناية أمير مستنير ، ولو أنه ظل تحت رحمة مطاردية أوف ما أصاب الهلديان تلك الحكومات لقضى بقية أيامه التعمسة في الأغلال ولغلب أن يلفظ نفسه الأخير في سكير العذاب .

« وبما من أيدي الجلادين لتلقاه أيدي القساوسة . ولست أذكر هذا على أنه عجيب . ولكن رجلا ذا فضل وأستقفاً عظيماً له من شرف النفس مثل ما له

١١. الأسقف « كان آية في الجدل وبدعة من بدائع المناقشة الدقيقة
اللمعة ». فقد سلك رُسو فيه مسلكاً جمع بين الكياسة والحزم .
والشكوى ، ثم أظهر عظيم احترامه للأسقف وإجلاله إياه ، ثم
قائه في المائة انتهى منها إلى أن المنشور ظالم مشيع بمعالي القسوة
التي تبعد كل البعد عن الحق الذي يجب أن يكون غاية رجال

١٨٠ الرد مائتي صفحة وعنوانه « من جان جاك روسو مولى جنيف
 ديمون أسقف باريس ودوق سان كلو ومن أشرف فرنسا وحامل
 القديس ومراقب السوربون إلخ . . وأوله اعتذار من روسو إلى الأسقف
 . . « فلو أنك لم تطعن إلا على كتابي لتركتك تقول ما شئت .
 كذلك على شخصي . وكلما كنت أنت أعظم بين الناس سلطانا
 حلا من السكوت عما أردت تدينني » .

لوصف حاله وما لقيه من الناس . واستطرد من ذلك إلى الكلام
باريس وعن مطارده من بلد إلى بلد ومن دار إلى دار ، وعن قرار
جنيف ألا يتزل فيها . وتلك صحيفة من صحفه الخالدة بلاغة وقوة
كمقدمة للرد بديعة في تهيتها ذهن القارئ للعطف على صاحبها

عمل مولد جنيف يد لقضاة ظالمين معتدين اتهم عندهم باطلا فقرروا
غير أن يستدعوه . وما دام لم يدع للحضور فليس ما يضطره
إلى القوة ضده فتحاشى القوة وغادر تلك الأرض المضيفة التي
عمل ظلم الضعيف ويقيم فيها الأجنبي بالأغلال من غير أن يسمع
أد يعلم إن كان العمل الذى اتهم به معاقباً عليه وإن كان قد

العريزة عليه أسفاً ، وفر من أصدقائه ولم يكن له غيرهم نعيماً
على ضعفه رحلة طويلة خيل إليه في نهايتها أنه يتنفس في أرض

ولعله لم يجئ بجديد في هذه الحجج غير ما جاء في الهلوي في أميل . فقد أعاد مبدأه العزيز عليه : مبدأ الطبيعة الطبيعية . ورتب عليه من النتائج ما رتب عليه في سائر كتبه . لكن طريقته في الجدل والمناقشة بالغة في هذا الخطاب أسمى حدود الدقة والإبداع . وإلى القارئ مثلاً من جدله رداً على قول الأسقف : « هو يزعم أنه لا يعلم ما طبيعة الله ثم لا يلبث أن يقر بأن هذا الوجود الأسمى له الذكاء والمقدرة والإرادة الطيبة . . أليست هذه فكرة عن الطبيعة الإلهية » ، وعلى قوله « ووحدة الله تبدو له مسألة تافهة تسمو على عقله كأنما تعدد الآخرة ليس ليس سخفاً أعظم من كل سخف » .

قال روسو رداً على اعتراض القسيس عن الطبيعة الآلية :

« الله الذكاء ، ولكن ما ذكاؤه ؟ فذكاء الإنسان في التفكير . أما الذكاء الأقدس في غير حاجة إلى أن يفكر . ليست لتفكيره مقدمات ولا نتائج ولا فروض . إنما هو ذكاء ملهم يرى ما كان وما يكون ويرى الحقائق كلها فكرة واحدة كما يرى الأماكن كلها نقطة واحدة والأزمنة لحظة واحدة . وللقوة الإنسانية وسائل تعمل بها ، أما القوة الإلهية فتعمل بنفسها . والله يقدر لأنه يريد ، وإرادته قدرته . والله خير لا ريب . وخير الإنسان حبه لأمثاله . أما الخير الذي قد في النظام الذي يسلك به الكائنات ويربط به كل جزء منها مع كلها . والله لا ريب عادل ، وذلك بعض آثار خيره . وظلم الإنسان من عمل الإنسان لا من عمل الله . واضطراب الروح الذي ينجح الفلاسفة من طريقه لإنكار قدرة الله يزيد هذه القدرة أمامي ظهوراً ووضوحاً . وعادل الإنسان في أن يرد إلى كل ذي حق حقه ، وعادل الله في أن يحاسب كلا عما وهبه .

« هذه صفات استنبطتها تباعاً من طريق منطق العقل وتبع النتائج من غير أن يكون لها في نفسي معنى مطلق . فأنا أؤكد لها ولا أدركها وذلك بعد أن لا أؤكد شيئاً . فعياً أقول لنفسي ذلك هو الله . وعياً أُلْمِسُهُ وأثبت في فؤادي فذلك لا يزيدني علماً لم كان الله كذلك .

« ثم إنني كلما حاولت فهم كنهه كنت لهذا الكنه أقل تصوراً . وكفاني ذلك به إيماناً . فإني كلما كنت له أقل تصوراً كنت به أشد تعقلاً وله أكثر عبادة . أمامه أعز قائلاً : وجودي منك يا كائن الكائنات وكلما أدمت الفكرة

شرف المولد أباح جنبه وكان حقاً عليه أن يصدده ، ولم ينجل من أن يسحق . فلوما طحنه ألم في حين أوجب عليه مركزه كقسيس التألم لحظ كل مظلوم . ثم إذا سائر رجال هذا الأسقف يسارعون يريدون سحق عدو يحسنه قد قضى . شريك الأكاير والأصاغر منهم في هذا حتى تترى أحقر وأعظ وأحط ملقن يسعى لينال مجد القضاء على هذا العدو بأن يضربه بقدمه الضربة الأخيرة .

« وهل تراك تظن أحداً يحسب أنك كنت لكتابي أقل عداوة لو أن البرلمان لم يعرض له . قد يكون لبعضهم أن يظن هذا أو أن يقوله . فأما أنت ولا طاقة انصميرك باحتمال الكذب فلن تقوله . فلقد انتشر كتابي عن التفاوت في أسقفيتك ولم تذع عنه منشوراً . وانتشرت هلوي الجديدة في أسقفيتك ولم تذع عنها منشوراً . ولقد قرأت هذه الكتب حتى حكمت عليها . مع ذلك فكلمها تجرى فيها مبادئ واحدة ، وطريقة التفكير فيها جميعاً ليست أقل خفاء . وإذا كان المقام في كل منها لم يسمح بالتوسع في عرض الآراء فقد كسبت هذه الآراء بذلك من القوة بقدر ما فقدته من تفصيل ، وفيها يرى الإنسان عقيدة المؤلف أوضح عبارة وأقل توارياً مما هي في قسيس السافوا . فمالك لم تقل يومئذ شيئاً . أو كان قطبعك يا مولاي أقل كرامة يومئذ عليك ، وهل كان أقل قراءة لكتبي أو أقل لها ذوقاً ، أم كان أقل عرضة للخطأ . كلا . لكنت لم يكن أمامك يومئذ من اليسوعيين من تحاربهم ، ولم يحطني الخونة يومئذ بأحاييلهم . ولم تكن كلمة أولاء جميعاً قد عرفت . فلما عرفت كان الجمهور قد اطمأن إلى ما في كتبي ، وكان وقت إحداث الضجة قد انقضى . فرأيت أن تتمهلوا وتوجلوا وأن تنتظروا الفرصة وترقبوها . ثم انتهزتموها بما طبع عليه المتعصبون من تهيج . فلم يكن في أفواهكم إلا حديث الأغلال والنيران وجعلتم من كتابي صيحة الحرب على القوضى والغير العام ضد الإلحاد ، ومن المؤلف مريداً يجب سحقه ويدهش الناس لبقائه كل هذا الزمن على قيد الحياة . بإزاء هذا التهيج العام خلجت أنت أن تظل صامتا وفضلت اجترار عمل من أعمال القسوة على أن ترمي بضعف حماسك للدين ، وأن تخمد أعداءك لتسكتهم على أن ترد مطاعنهم عليك . هذا يا مولاي هو الدافع الصحيح لمشورك وأنت به أعلم . وذلك على ما أرى تضافر بين وقائع غريبة تجعل مآلى عجباً » .

بعد هذا العرض لحاله جعل روسو يفتد حجج أسقف باريس حجة بعد حجة

فيك سموت بنفسى إلى أصلها . وفنائى فيك خير ما يعمله عقلى . فإنما بهر فؤادى وقوة ضعفى أن تأخذ بلى عظمتك .
وقال رداً على التوحيد والتعدد :

« ومن ذا قال بتعدد الآلهة . ويحى عليك يا سيدى الأسقف . ألا لو أنك أردت بى أن أقول أمثال هذه الحماقات لما كلفت نفسك ولا ريب مثونة إذاعة منشورك ضدى .

« أنا لا أعلم لم كان ما هو كائن وكيف كان . وكثيرون غبرى ممن يوهمون معرفته ليسوا أكثر به منى علماً . على أنى لا أرى غير سبب واحد هو مبدأ كل حركة ، ذلك بأن كل ما فى الوجود ظاهر تعاونه فى الاتجاه إلى غايات متفقة . لذلك أعرف إرادة واحدة عليا ييدها تصرف كل شىء . هذه القوة وتلك الإرادة أعزهما إلى كائن واحد لما هنا عليه من تمام الاتفاق ، ولأن تصورهما فى واحد خير منهما فى اثنين . فالتعدد لا يجوز لغير سبب ولا علة . وإن ما نرى من شر ليس شراً مطلقاً وهو لا يحارب الخير مباشرة بل يتعاون وإياه لتمام نظام العالم .

وبعد هاتين النقطتين الأساسيتين فى مذهب روسو عن الديانة الطبيعية أراد أن يبرر نشره تعاليم قسيس السافوا . ومن هذا التبرير يرى القارئ أن روسو إنما كان يقصد إلى تأييد البروتستانتية ويذهب إلى أكثر من تبريرها بالسعى لتوسيع أفقها وتدعيم نظرية حق كل فرد فى البحث الحر . وهو فى هذا مبدع إبداعه فى سائر ما احتواه هذا الرد على أسقف باريس . قال :

« وإنى لذاكر لك السبب الذى حملنى على نشر تعاليم القسيس . لماذا أراها على الرغم من كل ما أثير حولها من ضجة خير كتاب أخرج للناس فى العصر الذى نشرتها فيه . ولن تغير النيران ولن تغير القرارات من لغتى ولن يجعلنى اللاهوتيون كاذباً إذ بأمروتى بالتواضع ، ولن يدفعنى الفلاسفة إلى إعلان الإلحاد باتهامهم إياى بالنفاق . بل سأعلن دينى لأن لى ديناً . وسأعلنه على الصوت لأن لدى شجاعة إعلانة . ولشد ما كنت أرجو أن تكون هذه الشجاعة للناس جميعاً حرصاً على فائدة بنى الإنسان .

« أنا يا مولاي مسيحى ، ومسيحى بإخلاص على مذهب الإنجيل . وأنا مسيحى لا كتلميذ للقساوسة ولكن كتلميذ ليسوع المسيح ، وأستاذى قل تدقيقه

فى النصوص وكثر تنبيهه للواجبات . وقواعد الإيمان التى أمر بها أقل ما أمر به مؤنثة الخير وصالح العمل وهو لم يأمرنا أن نؤمن إلا بما وجب الإيمان به لتكون أنحياناً . ولما لخص سنن الأنبياء لخصها فى أعمال الفضل أكثر مما لخصها فى أبواب الإيمان . وقد قال بنفسه ثم قال قدسيه إن من أحب أخاه قام بما فرض عليه .
ثم أضاف :

« لم يتح لى دائماً أن أسعد بالعيش منفرداً فقد خالطت رجالا من كل صنف ورأيت أناساً من كل الأحزاب ومؤمنين من كل المذاهب ومفكرين بأنفسهم من كل الطوائف ، ورأيت عظماء وأصاغر ماجنين وفلاسفة ، وكان لى أصدقاء حميمون كما كان لى من هم أقل من هؤلاء فى مراتب الصداقة وأحاط بى جواسيس ومسيئون . وفى العالم كثيرون يكرهونى بسبب ما ألقوه بى من أذى . هؤلاء جميعاً أدعوه ليعلموا على الملأ ما يعرفونه من عقيدتى فى دينى . هل رأونى يوماً غير ما أنا سواء فى تجارة الحياة أو فى الصداقة المرفوعة الكلمة وحين هو الحديث على الطعام أو فى السر والنجوى . هل رأوا حججهم أو سخرياتهم زعزعت من إيمانى لحظة حين أرادوا المناقشة أو السخرية . هل تسينوا يوماً أنى تغيرت عواطفى أو بدأت أخنى فى دخيلة قلبى ما لا أظهر الجمهور عليه . هل علموا على يوماً شبهة كذلك أو نفاقاً . ليقولوا ما يعرفون ويعلمونه ليكشفوا سترى . أنا بذلك راض بل أنا أرجوهم أن يفعلوا وأعفيهم مما توجهه الصداقة من كتمان . فليرفعوا الصوت لا بما يريدونى أن أكون ولكن بما توجهه ضمائرهم عنى . إني أؤمنهم على شرفى غير خائف ، وأعد بأنى لا أعترض منهم أحداً .

هو إذن مؤمن ثابت الإيمان . لم تززع عواطف الإلحاد التى كانت ناثرة يومئذ عقيدته ولم تدخل سخريات فولتير ومنطلق مدرسته شيئاً من الشك إلى نفسه . وهو يرى كلمة السيد المسيح على ما يفهمها خير صورة تعبر عن إيمانه . لكنه لا يقر لذلك بأن السيد المسيح رسول من عند الله وأن أقر له وللأنبياء طراً بالعظمة والقداسة . وهو فى هذا يخالف فولتير ومدرسته ويناصبه العداوة . ذلك بأن فولتير نظر إلى الأديان على ما كانت فى عصره بعد ما أدخل إليها القساوسة ورجال الدين من الخرافات ما زعموه جزءاً منها لا ينجزى وشطراً منها غير منفصل ، وبعد ما نسبوا هذه الخرافات إلى الرسل الذين نشروا دعوة الله فى الناس . وعلى أساس هذه

١٠ جعل فولتير يبين ما في التعاليم التي ينشرها رجال الدين من متناقضات
 ١١ انات وبلقي عبء مسئولية ذلك على أصحابها الأولين . ولذلك سمى الرسل
 ١٢ الكذبة ونسب إليهم ما يستطيع رجل أن ينسبه لرجل من التهم ، ورأى
 ١٣ أفاقين ساقطهم مطامعهم في الدنيا وفي حكم الناس إلى ادعاء الرسالة . أما روسو
 ١٤ الإيمان ويفهم لذلك عظمة الذين أقروه في الأرض ودعوا الناس إليه ،
 ١٥ لأنه يحسه في قلبه ويراه في كل ما حوله . يرى الله في الأرض والسماء
 ١٦ في السراء والضراء ولا يزغزع من إيمانه به أنه لا يدرك مداه وكنهه ، بل يزيده
 ١٧ إيماناً في التفكير فيه وفي تقديسه . وعلى شعوره بقيس شعور الأنبياء والرسل
 ١٨ لم العذر عما قالوا من أنه أوحى إليهم من عند الله . فكذا كانت روح
 ١٩ لهم . ثم إنهم رأوا هذه الحقائق العليا التي فتحت عليهم بإدراكها أسامي مما يصل
 ٢٠ إليه عقل الإنسان عادة ، فلم يخالفهم شك في أن القوة المدركة المدبرة للكون
 ٢١ والى امتلأت قلوبهم إيماناً بها - مثلما امتلأ قلب روسو - هي التي أوحى إليهم
 ٢٢ الحقائق وكشفت عن عيونهم غشاء الباطل فرأوا النور الذي لم يره غيرهم ،
 ٢٣ وصار لزاماً عليهم من أضاء لهم بهذا النور أن ينشروه في الأرض وأن يدخلوه إلى نفوس
 ٢٤ من أخذتهم الحياة القصيرة بهرجها الخداع وهم لذلك يستحقون كل احترام
 ٢٥ ولهم سجل . وذلك ما دعا إليه روسو حين قال :

« أحترم جميع الذين وضعوا الأديان والمذاهب فقد كان لهم جميعاً نبوغ
 عظيم وفضائل كبرى . وذلك محترم أبداً » ولقد قالوا إنهم رسل من عند الله .
 وذلك ممكن أن يكون وألا يكون . والجماعة لا تستطيع أن تتفق في الحكم عليه أن
 أدلته في تناول الكل على سواء . على أنهم لو لم يكونوا رسلاً فليس ذلك
 إلى إتهمهم في خفة بأنهم كذبة دجالون . فمن يدري إلى أي حد يصل
 المستر في الإلهيات والتناهي في الحرص على الفضيلة من أرواحهم حتى
 عليها المنطق ونظامه ويجعلها تتعثر بشيء من أفكار العامة ، فعند التناهي
 في يدور الرأس ولا يرى الإنسان لأشياء على طبيعتها . »

ولكن ما قول روسو في المعجزات المثبتة للرسالة . لقد صاغ اعتراضه على
 في صيحته : « عجباً . شهادات رجال دائماً . رجال ينقلون إلى ما نقله
 غيرهم . ألا ما أكثر الرجال بيني وبين الله » . فرد الأسقف صيحته في

عبارته هذه التي مرت بك : « ولكن . . . بأية وسيلة أخرى غير شهادات الرجال
 عرف المؤلف إسباطة وأثينا وروما وهي التي يتغنى كثيراً وعن ثقة بقوانينها وأخلاقها
 وأبطالها . كم بينه وبين الأحداث التي تمس تأسيس تلك الجمهوريات القديمة
 وما أصابها . . الخ » ، فما دام روسو يقبل شهادات الرجال حجة على حوادث
 بينه وبينها زمان طويل فإنكاره المعجزات الثابتة بالتواتر عنت يبرر رمي الأسقف إياه
 بالإلحاد . لكن روسو لا يترك هذا الاعتراض من غير أن يدفعه بالقوة التي دفع
 بها غيره من الاعتراضات . قال :

« لو أن المسألة كانت أقل خطراً وكنت أنا لك يا مولاي أقل احتراماً
 لحيات لي هذه الطريقة في التدليل الفرصة لأثير مرح قرائي . ولكن حاشا الله أن
 أنسى اللهجة الواجبة للموضوع الذي أعالج وللرجل الذي أحده . ويكتفي
 ولو ثقل قولي أن أبين مبلغ خطئك . »

« أرجوك أن تذكر أن من المعقول تماماً أن تثبت شهادات الناس ما صنع
 الناس وأن ليس لإثباته بغير ذلك سبيل . فلست أستطيع أن أعرف أن إسباطة
 وروما كانتا إلا لأن مؤلفين عاصروهما خبرونا عنهما . ويجب أن يكون الوسطاء بيني
 وبين رجل عاش أو يعيش بعيداً عني . ولكن أي حاجة إلى هؤلاء الوسطاء بيني
 وبين الله . وأي حاجة إلى أن يكون هؤلاء ناثين ناثياً يحتاجون معه إلى شهادة كثيرين
 غيرهم . وهل طبعي وبسيط أن يبحث الله عن موسى ليحكم جان جاك روسو . »

« ثم إن أحداً ليس مكلفاً أن يؤمن بوجود إسباطة أو تحل عليه اللعنة .
 ولن يحرق أحد أو يخلد في السعير لشكه في أمرها . فكل حادث لسنا نحن له
 شهوداً لا يثبت إلا بالدليل المعنوي . وكل دليل معنوي يحتمل أن يكون راجحاً
 أو مرجوحاً الخ . »

« ولو أني رأيت المعجزات بعيني لرفضت أن أؤمن بمذهب سخيف غير معقول
 يراد أن يدعم بها . وأهون على أن أصدق بالسحر من أن أرى كلمة الله فيا لا بصدقته
 العقل . »

إذن فحكم العقل وحده هو الذي يجب اتباعه . وكل ما خالف العقل
 لا قيمة له ولو نسب إلى الوحي أو الرسالة . على أنه لو اقتصرنا على ما ألهمه الرسل

وجدنا فيه كل هذا الذى أدخله القساوسة عليه - فى رأى روسو - من أوهام
مات . وهل جاءت الأديان إلا هدى للناس من غير أن تمس تفاصيل حياتهم .
للأديان وشئون الدنيا وهى إنما توجه الناس كافة إلى الخير وإلى المحبة على
مهمونها . وهذا ما يستطيع الناس أن يبلغوه لو أنهم لم يتقيدوا بما يتقيدون به اليوم
صور رسمها لهم القساوسة ومن أوضاع ابتدعوها لفائدتهم ثم صارت هى الدين
نظروهم وصار ما كان الدين يأمر به فى المكان الثانى بالنسبة لها .

« وإذا صرف المرء النظر عن واجبات الإنسان واكتفى بالاشتغال بآراء
قساوسة وشحنائهم التافهة أصبح لا يعنيه أن يسأل المسيحى إن كان يخشى الله
إنما يعنيه أن يسأله إن كان متباً (أرثوذكسياً) . وكفاه أن يستمضيه نماذج
من مسائل لا جدوى لها وهى غالب الأمر غير مفهومة . فإذا وقع أفلح ولم يسأل
ذلك شيئاً ، وصار له أن يعيش كما يحلو له . ولم يعد سلوكه يهم أحداً
دام قد سلم بالملذهب . أى خير نجنى الجماعة من الدين الذى نزل إلى هذا
الدرك . وما فائدته للناس وهو على هذه الحال . وإنما يقف يومئذ أثره عند إثارة
النازعات والقلق والحروب على مختلف صورها ، وأن يدفع الناس للتناحر حول
الألفاظ ، وخير يومئذ ألا يكون دين من دين ذلك مدى شره . فلنحل دون تدهوره
إلى هذا الدرك إن استطعنا إلى ذلك سبيلاً ولنكن يومئذ واثقين برغم الأغلال والنيران
أن لنا على الإنسانية من أجل ذلك حقاً وكرامة » .

« وهب الناس شموها هذه المعارك التى تمزق الإنسانية فاجتمعوا لإنهائها
والاتفاق على دين يكون دين الشعوب طراً . لا شك سيبدأ كل واحد منهم باقتراح
على أنه وحده الحق والمعقول والثابت أنه وحده المرضى من الله الصالح للناس .
كن عدم توازن براهينه فى هذا الباب مع اقتناعه - فى نظر أهل المذاهب الأخرى
الأقل - يجعل كل طائفة يقف رأياً عند أهلها فيتفق الكل ضدها . ذلك
لا ريب فيه . وتسير المداولة على هذه الصورة فيقترح واحد ويرفض الآخرون .
ت هذه وسيلة الاتفاق . وقد يمكن بعد ضياع وقت غير قليل فى مداورات صيانية
بحث الرجال ذوو الحكمة عن وسيلة للتوفيق فيقترحوا من أجل ذلك أن يبدأ
رجال الدين من بين الجماعة . ولا يصعب عليهم أن يبينوا ضرورة هذه الخطوة
أما ضرورة محتومة . فإذا تم هذا الأمر الصالح قالوا للناس : ما لم تتفقوا على

مبدأ فلا سبيل بينكم إلى التفاهم . فتقول أياكم تصاحبه إنك مخطئ لأنى مصيب
حجة لم تقنع يوماً أحداً .

وبين روسو بعد ذلك أن الديانة الطبيعية التى وضحتها فى تعاليم قيس
السافوا هى المبدأ والدين الذى يمكن أن يتفق المسيحي واليهودى والمسلم وكل ذى
دين عليه . فهى نتيجة التفكير ليس غير . وهى لا تلزم أحداً أن يؤمن بما لا يستطيع
عقله قبوله . وهى لذلك سند للبروتستانتية ودعوة إلى إطلاق حرية الفكر .
وهذا ما جعل أسقف باريس وغيره من الكاثالكة يطعنون عليها وينحون باللائمة
على صاحبها ويعتبرونها خروجا على قواعد الدين ويتهمون روسو من أجلها بالإلحاد .
لكن العجيب أن هذه الدعوة لم تزل رضا الرؤساء البروتستانتين فى جنيف مما دعاهم
إلى إصدار أمر كالذى أصدرته الحكومة الكاثوليكية الفرنسية يحظر عليه
الدخول إلى وطنه ، وعلة ذلك أن هؤلاء الرؤساء يرون فى نظرية روسو الدينية
وفى نظرياته السياسية والاجتماعية ما يقضى بزوال امتيازهم على غيرهم من الطوائف
وبانهيار سلطاتهم وحقوقهم فى الحكم . وفى رأى كثيرين من الكتاب والمؤلفين
أن الملوك والأشراف ورجال الدين فى الملل المختلفة لا يتحركون حركة للدفاع
عن الدين ما لم تكن مصالحهم مهددة أو ما لم يرغبوا من وراء هذه الحركة فائدة
لسلطاتهم ومصالحهم . فأما الدين كعلاقة بين العبد وربّه فلا يدخل لأحد منهم
فى حساب . ولو أنك كشفت عن طواياهم لوجدتهم أكثر تذبذباً فى عقائدهم
من سائر الطوائف .

وبعد أن قند روسو أقوال أسقف باريس ختم خطابه بهذه العبارة :
« ما أيسر ما تتحدثون أنتم الذين رفعتم إلى مقام الكرامة . فأنتم ، ولا تعرفون
حقوقاً غير حقوقكم ولا قوانين غير ما تلزمون الناس به ، لا يكفكم أن تغفوا
أنفسكم من واجب العدالة بل ترون أنكم غير ملزمين كذلك بما توجهه العواطف
الإنسانية . فأنتم تظلمون الضعيف فى كبرياء من غير أن يسألكم عن ظلمكم أحد .
وإهانة الناس لا تكلفكم أكثر مما تكلفكم النسوة بهم . وأنتم تكسحوننا أمامكم
كسح التراب كلما عنت لكم أقل غاية أو مصلحة . فمنكم من يعدم أو يحرق .
ومنكم من يقذف ويطعن من غير حق ومن غير سبب ومن غير احتقار . بل من غير
غضب وبغير موجب إلا أن ذلك يوافق مصلحتكم ولأن البائس وجد فى طريقكم .

فإذا قدفتمونا بلا مبرر فليس مسموحاً لنا أن نرفع صوتاً بالشكوى . فإذا أثبتنا براءتنا وخطأكم اتهمنا بالخروج على موجب الاحترام .

«مولاي . لقد طعنت على علناً . وها قد أثبت لك أنك سببتني . ولو أنك كنت رجلاً من عامة الناس مثلي فاستطعت أن أخاصمك إلى قضاء عادل وحضرنا أعلامه معاً أنا بكتابي وأنت بمنشورك لما كان ثمة ريبة في اعتباره إياك مذنباً وحكمه عليه بالتعويض علناً بقدر ما كان الإثم علناً . ولكنك من صف يعني صاحبه من أن يكون عادلاً ولست أنا شيئاً . على أنك وأنت تعلم الإنجيل ووظيفتك أن تدل الناس على واجبه تعرف الواجب عليك في حالتنا هذه . ولقد قمت بواجبي ولم يبق لي ما أقول ولذلك أسكت .

وتفضل يا مولاي بقبول عظيم احترامي .

• • •

أنحسب هذا الرد البديع المقتنع غير من نظر الحكومات إلى روسو ؟ وهل تحسبه بعد نشره إياه ظفر من العطف العام بما أتاح له بعض السكينة في حياته ؟ . كلا . بل بقيت متاعبه تزداد وتزيد عبء مرضه عليه ثقلاً . وبقي مشرداً طريداً ينتقل من بلد إلى بلد ومن مملكة إلى مملكة مما ضاعف عقيدته المرضية بأن الناس جميعاً يناصبونه العداوة . وهل تحسب أن هذا الرد البديع المقتنع أسكت خصومه عن مجادلته ومناقشته في مبادئ دين الطبيعة . كلا . بل نشر النائب العام ترونشان بجنيف خطابات الريف التي رد عليها روسو بخطابات الجبل فازداد فيها سمواً وقوة وزادت سلطانه في عالم الأدب رفعة وخلوداً .

على أن الجدل بين روسو وأسقف باريس هو كما قدمنا صفحة من صفحات الأدب البالغة غاية السمو دقة أسلوب ومثانة حوار وإبداعاً في المناقشة . ولقد ظهر روسو فيها كما ظهر بعد ذلك في خطابات الجبل وكما ظهر من قبل في رده على دلبير مجاوراً ماهراً يستطيع أن يتراجع إن شاء . لكنه في رسالته إلى أسقف باريس وفي خطابات الجبل لم يتراجع قيد أنملة . ذلك بأنه كان يدافع عن إيمانه الثابت وعقيدته الراسخة . وفي سبيل هذا الإيمان احتمل على مرضه وعلى فقره ما لم يحتمله غيره من ذوى الثروة الطائلة والجاه العريض والقوة والفتوة . وكثيراً ما صهر الألم النفوس فتقاها وعلا بها إلى سماوات لا تعرفها نفوس المترفين والسراة ومن حجبت

عنه الضائقة مراقي الرفعة . ولئن دعا الناس الجاه والذل والسلطان سبواً فما هو إلا سمو زائل ما يلبث أن يتبخر تبخر السحاب وأن ينهد إلى الأرض ويختلط بالتراب . ولئن أنكر من دفعته مصالحهم في إنكار قوة رسة روسو إلى أسقف باريس فقد أقبل أهل عصره من السواد الذين كانوا خاضعين بطش الحاكمين وجبروتهم عليها أيما إقبال . ثم كانت إبان الثورة الفرنسية . وكانت كتاباته بعض الإنجيل هذه الثورة ، ثم بقيت وستبقى أثراً خالداً من آثار التفكير الإنساني .

